كلمتنا.....

أي دور للمثقّف في المجتمع الحديث؟ سؤال طالما طرحه أنصار الثقافة ومناوؤوها، فرام فريق أن ينكر على المثقف أن يكون له دور يضطلع به، وناقش فريق آخر وجود المثقف أصلا معتبرًا أنّ ما يطلق عليه إسم المثقفين لا يعدو أن يكون خليطا هجينا لا لون له ولا طعم، ورأى فريق آخر أنّ التجارب التي مرّ بها العصر تؤكّد جميعا أن قدر المثقف أن يخدم ركاب السّلطة السياسيّة أو أن ينعزل في برج قُدَّ من الأوهام والأحلام المثاليّة، ولكن فريقا آخر آمن بالمثقّف «العضوي» الذي يتّخذ من القضايا المحرقة التي يعاني منها مجتمعه في فترة ما إطارا لتفكيره، فيصدع بالحقيقة كما يراها ويقدّم حياته إن وجب قربانا لتلك الحقيقة.

ولكن المسالة يمكن أن تناقش من زاوية جدلية إن نحن قبلنا بوجود «سلطة ثقافية» متميّزة عن السلطة السياسية. وتَمَيُّزها ذلك لا يعني أنها ينبغي أن تتخذ موقف المعارض الأبدي الذي يستمدّ وجوده من *مناقضة الآخر* وإنّما يعني أنّ الثقافة «سلطة» مستقلّة عن السلطة السياسية، وبهذا المعنى لا تكون الصّلة بين السلطتين مندرجة في سياق مراتبي «تدجّن» فيه السياسة الثقافة، ولا في سياق صراع تترصّد فيه كلّ منهما الأخرى لتوقع بها أو تضعها في قفص الإتهام.

غير أنّ هذا الوضع لا بدّ فيه من شرطين: مدار أحدهما على قبول السلطة السياسية مبدأ التعدّد الفكري والإيديولوجي والحق في

الإختلاف ما لم يشكّل ذلك تهديدا لمصالح الوطن العليا، ومدار الثاني على إدراك ممثلي الثقافة أو المنتمين إليها ــ على اختلاف مبادئهم ــ لحقيقة الدّور الذي ينبغي أن يضطلعوا به.

ولا يكفي في رأينا أن نقف في وجه العنف السياسي بشتى صوره وبمختلف طرائقه، وإنّما يتعيّن علينا أيضا أن نواجه بجرأة وصراحة وصرامة تلك الممارسات التي تطلع علينا من حين إلى آخر فتطمس حرية الفكر وتغدو «الكلمة» بموجبها رهينة في يد البعض لا تخدم إلاّ المصالح الذاتية القريبة التي يضيع في خضمها الدور الطليعي الذي لا وجود للمثقف بدونه وهو دور يقوم أصلا على إدراك مسار التاريخ والعمل على توضيح المسالك الموفية على المستقبل في أزهى صوره وأبهرها.

إنّ النّاظر فيما يسمّى بـ «الساحة الثقافية» في بلدنا ليشعر بأنّ عجلة التاريخ المكتسحة هذه لتمرّ ببعض «المثقفين» فلا تعيرهم شانا ولا تاخذهم في دورتها فهم كالزبد يذهب جفاء، وتواصل العجلة سيرها رغم ذلك ورغم أولئك.

أما هم فلا يشعرون بحركة الزمن ويواصلون رغم ذلك تسويد الصفحات.

« المسار »

ثقافة المجتمع المدني

رئيس التحرير

«المجتمع المدني»، مفهوم مركزي في الفكر السياسي المعاصر
ختيارات الدولة الحديثة. مشروع يتأسس على قيم العدل والحرية
المشاركة، وهي قيم تتجسد في دولة القانون والمؤسسات وتنظيم
فضاء العمومي بالآليات الديمقراطية واحترام حقوق الفرد وتكريس
يمة المواطنة بكل أبعادها السامية... هذا المجتمع الذي يعبّر عن قيَم
دنية ويعقلن السلوكات والحكم ويفجّر طاقة الفعل والعطاء لدى
لأفراد بعيدا عن التسلط التيوقراطي والاستبداد الأوتوقراطي... هذا
مجتمع هو مشروع ثقافي بالأساس، لأنه حركة في الزمن الإنساني
طمح إلى القطيعة مع المجتمع المرؤوس والمسوس الذي هو امتداد
لقبيلة كبنية قمعية ارتدادية بالضرورة...

لذلك وجب الانتباه إلى أن المجتمع التقليدي يحمل في أحشاء
سائده الثقافي ذهنية مبثوثة تشكل بؤرة التوتر مع ثقافة المجتمع
لمدني... إنها ذهنية المطلقات المنغلقة والمذهبية المتحجرة والجماعية
لصلحية والبيروقراطية النخبوية... وهي ذهنية الموقع على حساب
لموقف، والتبرير على حساب التنوير، والحق المطلق على حساب
الحقيقة النسبية وإرادة السمو بالعقل والعمل إلى أعلى مراتب الخير...

كيف يصبح الاختلاف منهجية للائتلاف، والحوار أرضية
لحرية المبدعة؟ كيف نفجّر اللحظة الإبداعية ونشوء القيَم المغايرة
المغامرة الجميلة لا بالحيلة...؟

كيف نفتح لثقافة الإبداع شرايين الحياة المتجدّدة لتتاصل في ملحمة الفكر والكتابة وتسهم في ولادة الإنسان الجديد وحركة التاريخ... كيف ننخرط في وقع حداثة الكون والإصغاء إلى القرن المقبل بتحدياته وتنويعاته...؟

تلك بعض الأسئلة الملحة على ثقافة المجتمع المدني... وبالدرجة الأولى على «المنتجين» لأرضيتها ورموزها في مختلف مجالات الفكر والفن والأدب والسياسة...

هذه العقلية الثقافية الجديدة هي أولا برنامج حضاري بالمفهوم السياسي للكلمة، أي أرضية للمشروع المجتمعي تراهن على الثقافة بتجذير معادلة الحرية والمسؤولية فيما نعتبره الشعار الثقافي للمجتمع المدني: «لا لتهميش الثقافة ولا لثقافة التهميش».

تهميش الثقافة أدى إلى ضمور الفكر ونشوء المستنقعات والتلوث الذي فرّخ الجهل والظلامية... وثقافة التهميش ولدت رهطا من الصعاليك والمستوظفين الذين تصوروا «الساحة الثقافية» سقيفة للغوغائية والفوضوية والمقاولات الإعلامية وخلط الأرقام بالحروف في لعبة «سد الفراغ» لمشاكسة المؤسسات والعداء البدائي للجامعة... بين أدعياء الفكر ورهابنة الكفر أصبحت الشعوذة والسطحية تقاليدا وغابت وظيفة الفكر النقدي وقيمة المعرفة والإبداع...

هذه المعادلة الجديدة المطلوبة لتجذير ثقافة المجتمع المدني في حاجة أيضا إلى المراهنة على دور الحياة الجمعياتية، وفي مقدمتها الجمعيات الثقافية المستقلة، باعتبارها طليعة تعمق الوعي بقيّم المواطنة وفضاء تتفاعل فيه ثقافة الإبداع الحر بمختلف حساسياته ومضامينه على أساس الأرضية الوطنية للبناء المجتمعي... إنها المرآة التي تعكس مصداقية الخيار التقدمي وتستطلع آفاقه لأنها النسيج المخبري الذي يطور الوعي برهانات المجتمع الأساسية ويفتح فكر الإنسان ووجدانه على الحلم والخلق...

فإذا كانت السياسة هي ممارسة بمعطيات الحظة الراهنة... فالثقافة هي تاصيل لثوابت تلك الممارسة وانفتاح متواصل على حركية الزمن... وهي بالتالي مراهنة على الإبداع الذي يجعل من كل انسان سيدا واعيا بوجوده معتزا بكرامته وبالمؤسسات التي تعبّر عن إرادته.

عثمان بن طالب

شعر

عاصفة من فلفل أكحل

عزالدين المناصرة

ريح سوداء
من يوقف عزف الريح
أفعى تلسعني
من يسحبُ من قلبي هذا الشيح !!!

* * *

زبد أكحل
ثوبٌ مسموم
ومسافات
جملٌ أخضر
وغرابٌ
ورضيعان
امرأة
نَهــر
طرقات
الطفل الأول في صفحته الأولى ما مسَّد فوق ضفيرتها
الطفلُ الثاني في ضفته الأخرى مات
مع هذا ظلَّت ـ أم الغيث الزرقا ـ تتلوى في القنوات
زرعت علماً، فبكت الـمَـا، حصدت ندمًا... وندوب

مع هذا حلفت أن تلمس قاع النهر برسغيها
حلفت لكن ظلّت بين البرّين تلوب
ذهب في قاع البحر يموء كانثى
في كاس عصير أشربها فجرًا في الشرفات
قفرٌ رعويٌ وطبول رعود، برقٌ وغيوم
لغتي بيت منسوف... أو مهدوم
تذكار سجين يتناثر وردًا
وفسائل من وجع... ولغات
شجر الرعد نقوش، كنعانيات محلولات الشعر
عساليج كروم
لغتي أعراس وصهيل وجنازات
وأنا مزروع في العزلة، مفتون بحمير الوحش
مخططة كسطور المخطوطات
زبدٌ أكحل، ثوب مسموم... ومسافات
اتفيًا شجرًا، يتقيا نحلاً، يتقيا عسلاً،
كنقائك في الشمس وراء البلّور
وأرش أساي على الدرب الأزلي
وفوق صفائح جبل الطور
امتص ندى التين واقرأ فصلاً من سحر العنب
الدابوقي لسيدة التفاح الكنعاني
كانت من أعلى جبل الأيل تبصّ على ساحتها
في حقل مهجور
كم شجرة بلوط، شنقت قذلتها في قلب زجاجة
وشوت حبتها سامًا في قاع الشمس الوهاجة
حين يكون النص
غرابا، شرب البحر الأسود
ما عرف الدمعة في عين الأرملة
وما قبّل أوسمةً لشهيـد
حين يكون النص

جليدًا مختومًا أو مائدة في خمس لغات
ويكون عمود الشعر اسمنتًا صلبًا لا دمعة فيه
إذا عصفت بالقلب الأزمات
أو يبقى كهلام وخداج رخو في طور التكوين
نسمع جعجعة دون رصيد أو نسمع همسًا
أو خوفا... وتصير الموجةُ تلو الموجة
فقاعات
من زبد البحر من الهامش بالذات
زبدٌ أكحل، ثوبٌ مسموم ومسافات
أعرفهم في حضرته مثل كلاب الصيد
يلوكون الكلمات
أعرفهم مثل الجاسنكير يذوقون طعام السِّيد في السهرات
حتى لا تصل إليه ينابيع الفلوات
الشعراء المرخيّون إذا طال الليل وحوصرنا
بركام الأزمات
الشعراء المرجئة إذا شمّوا ريح البارود
الشعراء النامون
اعداء الحجر الكنعاني وأعداء رماة المقلاع
وأعداء الزيتون

* * *

ما أطيب قلب الشاعر حين يصدقهم
يحمل في الكفّ وثيقة ذبحه
ويدور بها من باب الحرص على الإيصال
الشاعر مجنونٌ باللؤلؤ أو دمع الموّال
يتنقل أياما وشهورًا فوق بعيرٍ
كي يصل الى حتفه
والآخر ذاك الغامضُ يجري مثل العاصفة الهوجاء
كتب قصيدته عن عاشقةٍ نرجسة،
تتخايل في قعر الماء

نالوا جائزةً منحتها نرجسة الماء
لعبيد الشعراء المائي
العاشق في صحراء الأبدية مرمى
يتناوشه الثعلب والضبع
الواوي والجندب والضب
زبدٌ يوصل مكتوبًا
رملٌ لا يصل الى الحب
وأظن ـ وبعض الظنِّ سراب ـ انَّ عليَّ بن الجهم
يشابهني
أرعى في جبل الملح شجيرات الشيح
شمس الصحراء تقاتلني
حين ركبت الناقة أقصد أسوار حدائقهم
في أعشاش الوقواق
أشهد انيّ كنت فتًى ممصوص العود
وسمعت ضجيج مدائنهم وشممت الطقس الرطب
في الزمن الصعب، الصعب، الصعب
رشوني بالعطر، صحوت من الندم ولكنَّ الفتنة ملح
ذاب وغاب
فتشت حدائقهم عنها وسألت العناب
أنكرني النهر وأنكرني الجسر وأنكرني الشعراء
الوقواقيون
حينئذ، قررت الهرب الى الداخل
فهناكَ الكنعانيات يلملمن الدمع ويقصصن جدائل
حتى نشعل نيران الثلج ونغسل رمل القلب
زبدٌ لا يوصل مكتوبًا، رملٌ لا يصل إلى الحب
أما ـ وضاح ـ فقد سلب امرأة السيد
فرصتها وجديلتها واللب
كانت كنبيذ جرار في شلال
كانت مرعًى للسيد، مملكة للنرجس

مزرعة للشاعر... والقوال
كانت تخفيه عن العسس تدغدغه بالشال
وتقرصه في الخال
يبدو لي
أن الشاعر قد فضَّ حداثتها فاشتعلت أو سحرت
أما الصندوق فقد كان من الخشب الورديِّ
ومن صنع الراوي
يبدو لي
والله تعالى أعلم
أنَّ السيد ولهان
جملٌ أخضر
عنينٌ أصفر
وله قرنان

* * *

عاصفةٌ تمشي فوق رصيف تتباهى
تحرق أفئدة القطعان
مشيتها فتنٌ كبرى
فلفلةٌ كحلاء... وحارقة، مشيتها
مثل، صنوبرة... ومعارك وهراوات ودخان
عنقود من ياقوت أو ماس
تهتزُّ الأرض لخبطتها
فيسيل التلُّ على الماء لكي تصبح تلماس
وانهزت أمطار ينابيع النوميديين فصارت
مدرسة وقلاع
حتى إن خرج الورد من الحجر، تدلَّى الحلزون
مشويًا بالملح، اشتاق العلامةُ عبد الرحمن
أن يخرج من قلب مغارته في أول أبريل
يتوكأ في العتمة كتف القنديل:
كان مقدمةً

يتلوها، تمهيدٌ. أبواب، وفصول
أما الخاتمة فقد كانت نصًا مفتوحًا للتنقيح
ثمَّ أقيمت حول الماء خيام وخيول
تتحنجل عاصفة في الأعراس
خلخال حبيبي حجر وكريمٌ ونحاس
وتراني عاصفة الفلفل مذعورًا
أهرب من همس الوسواس الخنّاس
أهرب نحو الوحشة مفتونًا بالفتنة والناس
لقلاع الحاضر
ليمون القرط
وقمح السهل
أنت الفتنة
والقتل
وأنت أشدُ من القتل
عاصفة تمضي تتركني وحدي في الوحل
عند بساتين القرويين
عند دكاكين الحرفيّين
ما بين الدار البيضاء... وفاس
حيث يطيح النوء حنونا فيبلل قلبي الولهان
قلبي الممتد الى قرطاج وضلعي الممتد الى وهران
ما ذنبُ القافية إذا جاءت تسعى
لينةً كالأفعى
في البحر المتوسط
في البحر الأسود
في البحر الأحمر
في البحر الميت تفترس المرجان
رجلٌ من عنب
قهوائي السحنة
لا فرق إذا كان المطر الصيفيُّ يحاصرنا بخليط الألوان

رجل يحمل أسئلةً ويطوفُ بها فوق الأمواج:
خذ سيفًا يا بوشكين
خذ وترًا يا لوركا
خذ حجرًا يا ناجي
خذ حذرك يا حلاج
الوردُ صناعيٌّ والقلب رخاميٌّ والعقل رتاج
رجلٌ ينطح مدنًا حالكةً من صحر الصوان
أين رنين الأجراس
ويهرول مثل نبيذ يسري في داخله بركان
أين إذن عسل الأقراص
وشموعُ رسوم الطاسيلي
جعصب فوق جبينك منديلي
وأشقُّ الكاس
رجل من جسد مهترىء مكسور
لكن ما طاطا أبدًا لهدير الأضواء
أين إذن حنظلة وكنعان:
ـ الأول : قبرٌ في لندنٍ
والثاني وشمٌ رعويٌ مأسور
الأول رسم في صحف والقاتل أولُّ من يرثيه
والثاني شعرٌ ممنوع يَركض في التيه
والثالث يشرب قهوته في البار
ويعنيه الأمر... ولا يعنيه...
رجلٌ يحمل لغة النار ونار اللغة شهاب التشكيل
لا يعرف لغة الثلج ولا طرق التدوير
وله قلبٌ يشبه حبة ليمون
أمسك بالخنجر، شقَّ القلب، تناثر كالحنّاء المعجون
وسقوه نبيذًا من خدرٍ وحلول
إشرب
هذا نسغ الزيتون!!!

إشرب منقوع الأوهام وقبض الريح
إشرب دولتك المرّة كالشيح
قل لي يا هذا
هل نركض فوق سرير الأمواج
هل نذهب للغيمة في ذاكرة الماء
قل لي يا هذا
إن كنت تنازلهم أم تختار الوقت
قل لي يا لوركا
قل لي يا بوشكين
قل لي يا ناجي
قل لي يا حلاج

* * *

عاصفة مقمرّة مرَّت قربي وأنا
أحلم بحليب الماعز والنوق
عاصفة مشمسةٌ مرَّت بي
وأنا
في صدر صحائفكم
مشنوق
عاصفة مرَّت وعلى مهل فرَّت
تعبت كفاي من التلويحْ
تعب القلب من التصريح
من يسحب من قلبي الشيح
إن قيل: طويل القامة مثل صنوبرةٍ
أو أيّ شبيه قال القاموس:
عشنَّط أو عنطنط أو جسربُ
أو شوقبُ أو سلهبُ أو شوذبُ
أو طاطٌ أو طوط
أو قاقٌ أو قوق
لكن يكفيني أن الملح هذا الجسد الغالي في السوق

لأقول : الحلوة مثل صنوبرة، جسد ممشوق
إن قيل : خفاء، تشكيلٌ سريٌ، تحويل، إبدال مجروح
أو قيل : صفاء ينزاح عن اليومي
قنبلة عاشقةٌ تتفجر بالبوح النبوي
أو قيل : صهيل الفرس البحري
وهدير الشلاّل القدسي
أو قيل : زجاجٌ معجون من رمل الصحراء
أو قيل : عناصر تستخرج من قلب مذبوح
أو قيل : مزيج الألفاظ المرميّة في الدرب المفتوح
معنى المعنى، عنبٌ ندركهُ أو لا ندركه
بمجرد تلميح
أو نظم منثور
أو قلنا : إنّ اللغة مبان أو دور
وإذا قلبنا الأمر كما امرأة من كلّ جوانبها
بين الأشجار العملاقة أو في الأرض البور
ـ ماذا ينفعني إن كان الدمعُ دموع الشاعر
قبل الألف الأولى قبل الميلاد
ماذا ينفعني إن كان القبر
قبر بثينة في صحراء الروح
ماذا ينفعني، إن قلت الآه، ولا يسمعني
أحدٌ في وطن الآه
ماذا أفعل يا جاك بريفير
إن كان الشاعر يُرمى في أرض لم تألفها قدماه!!!
فلننظر في مرآة أخرى غير المرآة.
حين يكون الشّاعر مطرودًا في بحر الروم.
يقتاتُ فتات الحاضر أو يفتح نافذة البلّور
فتطلّ على وادي الحيّات
وتكون الشمس رقيبًا ويكون الخبز ذليلاً واللغة تخوم
من يسندني إن مرّت قافلة في رمل اللغة الولهان

تركتني ماسورا لا اقدر ان أصف الهفوات
وسارت قافلةٌ أخرى في ذاكرة الماء وأقداح الرمّان
يا كنعاني الطوب الأحمر
وحدك عوسجةٌ ومديح
يا سيف الدولة في تطوان
يا شجر الدولة في وهران
من يلمح موتي في هذا الثوب المسموم
في الروض العاطر، في حبر دليل الحيران
في الثغر المالح في وصف قلاع الرومان
من يخرجني من مخزن أزجال - إبن قزمان
من يعطيني قدًا من حلب.
ذيلاً لوشاح من غرناطة،
توشيةً من توشيح
ريح سوداء
من يوقف هذي الريح
من يشفط من قلبي هذا الشيح!!!

* * *

زبدٌ أكحل
عاصفةٌ من فلفل
صرخة زرعٍ في شفرة منجل
ثم سباقٌ محموم... ومسافات
أنبيذٌ بلاغتهم مثلاً كنبيذ الرهبان بأديرة المرتفعات!!!
الأول برهان البرهان
الأول صفر يتحاور مع صفر ينجب صفرًا في الخان
الثاني في الليل لغات مسحورات
الثاني برميل مشتعل الأشواق
أما الثالث فهو الثلج الدفاق
يكتب شعرًا ليس يُطاق
لم يسمع قُمريًا يبكي، لم يتبلل برذاذ الغابات

واسالني فانا اندلسيٌ مجروح:
ها أنذا أترككم بومات للقال وللقيل
نثرًا منقولاً في ضوء العزلة، لا ايقاع ولا تخبيل
نرجسةً ذاويةً قابلةً للجرح وللتعديل
ها أنذا أترككم غرقى في قاع النيل
فانا نار البعل على جبل الكنعانيين يطلُ على
بحر الموت، يرى صحراء مؤاب
مفتونًا ستراني قطعان الغاب
وأنا الألفُ وأنتم تذييلُ التذييل
لغة الضدِّ أنا
وأنا نرجسكم إن عطشت هذي الصحراء
عاصفة مارقةٌ، فلفلةٌ حارقةٌ لغتي
حبز التنور
عاصفةٌ تكنس هذا الصدأ المزمن في السور
عاصفة مرّت في الإيقاع وهزّتني
كالبرعم في الريح
أمسك بالغيمة فوق سطور الريح
لكن
من يوقف هذي الريح السوداء
من يسحب من قلبي الشيح
من يسحب من قلبي الشيح!!!

* * *

في التاسع من شهر ديسمبر أفتح للزوّار سجلاً
لمتابعة الأخبار :
اليوم الأول : لزيارة موتانا الأحياء
اليوم الثاني : أجعله ليمام المسجونين
اليوم الثالث : تخزين التموين
اليوم الرابع : أوسمةٌ حمراء من الطين
اليوم الخامس : باقات

صدفٌ أموريٌّ
بلحٌ أراميٌّ
عنبٌ كنعانيٌّ
حجر التهديد
وأشجار التنديد
أعلام فوق سطوح القرميد
الأخضر ضلعي
الأحمر دمعي
الأبيض شمعي
الأسود منفاي وترحالي في هذي البيد
اليوم السادس : للزرع وللتشجير
السوم السابع : عاصفةٌ كحلاء
ثمَّ أوزعِ لونين لكل امرأة كنعانية :
مريم ثمَّ دليلةُ تتلوها حلْوة زيدان
وأخُصك يا سارا بقناديل الريحان
للأسباب الجهويَّة

أهديك قطوف مديحٍ من شوقٍ وتباريح
لكن
من يفتح هذا القوس،
ومن يسحب من قلبي الشيح
من يسحبُ من قلبي هذا الشيح!!!

عزالدين المناصرة
(فلسطين)

شعر

زيارة

كمال بوعجيلة

وحدي هنا..
واللّيلُ مطرقة تدقّ القلب
معلنة وقع الحذاء على حجر...
حذاء من؟
لو رأت ذبول الجسم حين نأت
كانت أتت..
لو أتت
عند اختناق الرّوح أحلاما.. وأوهاما..
كانت بكتْ..
لو بكتْ
خجلت دموعي من سواد رموشها
وخجلت من درر تسيل على شفق

كم مرة: أقول للقلب انتظر..
ستفوح في زهر السّهوب
كلما هطل المطر..
وتجيء من كلّ الدّروب
وتشقّ أردية الخطر..
وتطلّ من غبش الغروب..
وتهل في ضوء القمر..
كم مرة ما قلت آه.. أبدا..
لكنني في الليل أبحث عن سند
يردّني ظلّي إليْ
أقول مرحى بالجسد
وأسير متّكئا عليْ...
كم مرّة سألوا:

لماذا عرفت مالا يعرف
ورأيت ما لا يدرك..
كيف عشقت أمرأة سراب
للضوء عائدة
إذا عدنا تراب

دعوا لي فكرتي الزرقاء.. دعوها..
وخذوا الجسـد
السبت تأتي إذا وعدتْ
ولكن لم تَعدْ...
سأعدّ أحبابي إذن
وأنساهم جميعا لأذكرها فقط..
الأحد سأحبّ دوما من أحب..
وأخالف العادات أحيانا
كأن أمضي إليه إذا أتى
وأحيد عنه إذا أبتعد...
وحدي هنا...
والروح تجهش شهوة الجسد كلاما..
وأحسُ وقع حذائها في غرفتي
هل أتت...
أم هو القلب منشغل بها
حتى بدت
دقاته وقع الحذاء
إذا مشت.

تونس فيفري 1991

محور العدد

الجزء الثاني

آراء وتحاليل في :

الحداثة والتغاير الثقافي:

تحديات جديدة للثقافة العربية

نواصل نشر النصوص التي وصلتنا مساهمة من أصحابها في تعميق الحوار في اشكالية الحداثة والتغاير الثقافي.

وتحاول اسهامات هذا الجزء الثاني استقراء الجوانب الإبداعية في قضية الحداثة والتغاير، مع تقديم تصور لمستقبل المشروع الثقافي العربي انطلاقا من تحليل مفاهيم مركزية مثل «القطيعة المعرفية» و«النهضة» و«المصير»، وسيتناول الجزء الثالث والأخير من الملف في العدد القادم مسألة «الحداثة والفكر السياسي: الديمقراطية والمجتمع المدني».

«المجتمعات لا تتكون وحسب، من الهموم اليومية المتعلقة بالخبز والعمل، بالسياسة والأحداث. وإنما تتكون أيضا من التخيلات والأحلام والرغبات والرموز. وبقدر ما تكون رازحة تحت ثقل الحاضر، تتحرك حيّة في مستقبل تتخيله وتحلم به :

«لا تخن سلاحك، أيُّها الشاعر»

أدونيس

العرب بين نهضة الغالب ونهضة المغلوب

مصطفى التواتي

عرف العرب في تاريخهم الوسيط والمعاصر حركيّتين تاريخيّتين كان لهما الدّور الخطير في تشكيل مسارهم الحضاري العامّ وتوجيهه، وتحديد موقعهم على الخارطة الجغراسياسيّة في إطار الصراع الدّولي لا فقط من أجل السّيطرة الاقتصادية وإنّما كذلك من أجل بناء الذات والمساهمة في توجيه الحضارة الكونيّة.

وسوف أسحب مصطلح النهضة الذي تعوّدنا إطلاقه على الحركية المعاصرة على الحركية الوسيطة كذلك وأميّز بينهما بعبارتي «النهضة الأولى» و «النهضة الثانية».

ويمكن أن نعتبر بحقّ أن حركية النهضة الأولى هي حركة التأسيس وحركة النّهضة الثانية هي حركة لإعادة التأسيس وإذا كان من المتّفق عليه أن العرب قد نجحوا إلى حدّ بعيد إبّان نهضتهم الأولى في تأسيس هويّة حضاريّة متميّزة وذات أبعاد كونيّة مكّنتهم من دور القيادة الدوليّة، فإنّ مدى نجاحهم خلال النّهضة الثانية في إعادة تأسيسهم الحضاري تبقى محل جدال، وكثيرا ما تميل الأحداث بالكفّة نحو الإجابة بالسّلب.

فما هي العوامل الفاعلة في هذا الاختلاف الجوهري بين نهضتنا الأولى ونهضتنا الثانية، أي ما هي عوامل النجاح هناك وعوامل الخيبة هنا؟

لا شكّ أن هذه العوامل عديدة ومتداخلة ولكن أغلبها يدور حول جدليّة الذات والآخر، فالتاريخ كان وما يزال يتحرّك عبر الصرّاع : وقد شاءت عوامل الطبيعة والتاريخ أن تكون المنطقة العربية باستمرار ميدانا وموضوعيا للصرّاع الدولي : صراع الأمم والقوى والحضارات، وحسب موقع العرب من هذا الصرّاع ومكانتهم فيه كان وما يزال يتحدد وعيهم بذاتهم ووعي الآخر بهم وتتشكل في الآن نفسه طبيعة العلاقة بهذا الآخر بأبعادها وانعكاساتها على طبيعة الوعي بالذات لديهم.

صدمة الآخر وبداية الوعي بالذات

تعوّدنا التّاريخ للنّهضة العربيـة الأولى أو ما يسمى بالعصر الذهبي للحضارة العربية بقيام الدولة العبّاسية، وقد ردّ أحمد أمين هذا الخطأ قائلا:

«يصـوّر بعض المؤرخين الحالة وقـد سقطت الدولـة الأمـوية وقـامت الدولـة العبّاسيّـة. تصويرا يخيّل إليك أن هنـاك حدودا فاصلة بين الـدولتين وأن صفحة للتاريخ قد ختمت بـانتهاء الدولة الأمـوية وأن صفحة أخرى بدئت بقيـام الدولة العبّاسية (...) وهذا التصوير أبعد ما يكون عن الصحة!»(1).

ويعود أحمد أمين بجذور هـذه النّهضة إلى انطلاق الفتوحات الإسـلاميّة في عهد عمر بن الخطـاب على الخصوص. غير أنني أعتبر أن هذا التحـديد هو أيضـا بعيد جدّا عن الـواقع التاريخي وإنّما تمتدّ جـذور النّهضة العربيـة التي بلغت في العهد العبّاسي عصرها الذهبي إلى ما قبل ذلك بكثير، وبـالتحديد إلى مطلع القرن السادس للميلاد، عندمـا حدث أوّل صدام عنيف بين العرب والآخر.. فبعـد أن كانت طبيعة أرضهم تحميهم من الغـزو الأجنبي وتـؤمّن لهم عمق بـلادهم من مطـامع فـارس وبيزنطـة القوتين العظميين المتصارعين على النّفـوذ والسيطرة على طـرق التجارة العالمية التي تمرّ عبر المحيط الهندي والبحـر الأحمر وتتواصل بعد ذلك في الطرق البريّـة والنهرية بـالعـراق والشـام إلى بيـزنطة، تمكّن الأحباس مـدفوعين من بيـزنطة(2) في إطار صراعهـا مع الفرس من تخريب اليمن حـوالي سنـة 525 م والتغلغل في عمق بلاد العرب حتى بلغـوا مكّة المدينة المقدّسة وحاصروهـا طويلا إلى أن أصيب جيشهم بـوبـاء هـو على ما يبـدو وبـاء الجذام فـانسحبوا متراجعين، ولكن بعد أن أحـدثوا صـدمة عنيفة في وجـدان العرب صدمـة حرّكت فيهم بـداية الوعـي بذاتهم... وتلك في رأيي هي البـداية الحقيقيـة للنهضة العـربية الأولى كما سنتبين.

ويكاد التاريخ يعيد نفسه مع حملة نابليون بونابارت على مصر سنة 1798 في إطـار محاولتـه السيطـرة على نفس الطـرق التجاريـة المؤدّيـة إلى الهنـد والشرق الأقصى. لقـد فشل نابليـون في أحكام سيطـرته على مصر وانسحب كما حـدث مع ابرهـة الحبشي عند مشـارف مكّة ولكن بعد أن أحـدثت غزوته هـو الآخر صـدمة عنيفة في وجدان العـرب دفعتهم من جديد إلى الوعي بـذاتهم بادئين بذلك نهضتهم الثانية، نهضة العصر الحديث ولا أقتنع في ذلك بما ذهب إليه د. عابد الجابري من أن هذه النهضة هي من نتاج الحركة الوهابيّة ولا تدين بشيء لغزوة بونابارت ولا للثورة الفرنسية وحركتها التنويرية.. وهو رأي ردّه قبلنا الدكتور حسن حنفي في مساجلاته مع الجابري المنشورة بـ «اليوم السابع» في جوان 1989.

ذلك أن الحركة الوهّابية وكما هو الشأن أيضـا بالنسبة إلى الحركة السنوسية والمهدية لا تخرج عن إطـار المنظـومة الفكـرية التقليـديـة ولم تكن وراءها قـوة اجتماعيـة جديـدة وناهضـة وبالتـالي فإنهّا لم تستطع أن تقدم نمـوذجا صـالحـا لاستقطاب حركة نهضوية.

أما أفكار عصر التنوير الأوروبي والثورة الفـرنسية فلكونها تمثل نقلة نوعية على مستـوى الفكـر والسيـاسـة والمجتمع، ولكـونها لامست «نخبـا عصريـة»

ديناميكية، فإن تأثيرها بيننا يبقى أعمق بكثير من تأثير الصوفيّة الطقوسيّة للحركة الوهابيّة، سواء كان ذلك التأثير إيجابيا أو سلبيّا(3).

قلنا إذن، إن صدمة الآخر كانت أساسية ومحدّدة سواء في نهضة العرب الأولى في القرن السادس للميلاد أو في نهضتهم الثانية في القرن التاسع عشر. ولكن الحركية التي نتجت عن الصدمة الثانية لم يكتب لها ما كتب للحركية الناتجة عن الصدمة الأولى من نجاح في تجاوز أثر الصدمة إلى الفعل تجاوز مجرّد الوعي بالذات إلى إثبات الذات والمرور من دور الاتباع إلى دور الإبداع... والأسباب في ذلك عديدة، منها ما يتعلّق بالآخر ومنها ما يتعلّق بالذات.

1 ـ الاختلاف بين «آخر» الأمس و «آخر» اليوم

في الماضي كانت المنطقة الغربية من سواحل اليمن جنوبا إلى تخوم الشام والعراق شمالا محلّ اطماع القوتين العظميين المتنافسين آنذاك وهما بيزنطة وفارس وقد فرضت كل منهما سيطرتها على بعض المناطق في الأطراف وأقامت فيها سلطات محليّة حليفة تساعدها في تأمين تجارتها أثناء عبورها بالمنطقة الغربية وكذلك تستعملها كرأس حربة متقدّمة في حربها مع القوة الثانية مثلما كان الشأن بالنسبة إلى مملكتي اللخميين في الحيرة الموالية لفارس والغساسنة الموالي لبيزنطة.

وقد سقطت اليمن في مطلع القرن السادس ضحيّة لهذا الصراع المزمن غير أن الحروب المتوالية بين الفرس وبيزنطة أدّت إلى ضعفهما معا، خاصة وأن هاتين الدولتين كانتا قد بلغتا حسب التعريف الخلدوني مرحلة الهرم وأخذتا تتآكلان من الداخل سواء في شكل صراع على السّلطة بين العصبيات والقوى المتنافسة أو في شكل ثورات وانتفاضات كانت تقوم بها شعوب الأطراف المستعمرة والتي كانت الضحية الأولى لتدهور الأوضاع في المركز.

وإذا أردنا إيجاد شبيه لوضع العرب مع الآخر آنذاك أي الفرس وبيزنطة فإنّنا نجده في وضع الغرب المسيحي مع العرب أثناء الحروب الصليبيّة.. فاصطدام الغرب بالعرب أثناء تلك الحروب مثل صدمة وعي بالذات لدى الغرب وحتى الانتصار الحاسم للمسلمين في هذه الحروب على يد صلاح الدين الأيّوبي لم ينل من هذه الحقيقة لأن إمبراطورية الإسلام وقتها كانت في حالة هرم وتدهور شامل شبيه بما كانت عليه حال بيزنطة وفارس في أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع وقد تراجع الأوروبيون بعد هزيمتهم هذه إلى ما وراء المتوسط ولكن مفعول الصدمة الحضارية التي تلقوها ظلّ يحرك بعنف كل الهياكل الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ليبدأ مخاض النهضة الأوروبية بينما تواصلت الحركة عكسية في بلاد الإسلام، الذي أرغم على الانسحاب من جنوب أوروبا وما أن بلغت نهضة الأوروبيين أوجها من القوة حتّى امتدت أنظارهم مرّة أخرى إلى الحوض الجنوبي للمتوسط حيث ينام عدو الأمس.

فكانت غزوة نابليون ثم عقبها الغزو الاستعماري الذي وضع العرب من جديد في صراع مع الآخر ولكن الآخر هذه المرة كما ذكرنا كان في حالة نهوض شامل تدفعه حركية حضارية في عنفوان نشاطها وتقودها شعوب فتيّة في حالة ثورة

جذرية حطمت كل الهيـاكل العتيقة وشرعت تشيّد بدلها هياكل جديـدة ديناميكية أفرزت طبقة اجتماعية جديدة على غاية من الفاعليّة.

يقول «البيرسوبول» :

«إن الثورة الفرنسية تمثّل مع الثورتين الهولاندية والانكليزية في ق 17 خاتمة تطوّر طويل إقتصادي واجتماعي جعل من البورجوازية سيّدة العالم»(4).

وهكذا فإن العرب في صـدمتهم الحضارية إبّان النّهضة الأولى كانـوا في مواجهة خصم في حالة انحدار تاريخي ولكنهم إبـان نهضتهم الثانية وجدوا أمامهم خصما في حالـة مد تـاريخي، ولا شك أن هذا الأمـر يمثل أحد العـوامل الأساسيـة لنجاح نهضة العرب الوسيطة وتعثرهم في تحقيق أهداف نهضتهم الحديثة.

ولكن العنصر الخارجي لم يفعل وحـده وإنما كـان يحتـاج إلى عـوامل ذاتيـة مساعدة وسوف نرى أن هذه العـوامل الذاتية قد اسهمت إيجابا في النهضة الأولى وسلبـا في النهضة الثـانيـة. وهو مـا يقـودنا إلى الحديث عـن هذه العـوامل التي نلخصها في عبارة «ديناميكية المجتمع» لأن النهضة الاوروبية لم يكتب لها النجاح الذي عـرفته الا لكـونها «ولدت في رحم مجتمع يتحـول من داخله ويعيش حـالة مخاض دمـوي صعب شمل مختلف مستـويـاتـه، مخاض يتصـارع فيـه القديم والجديد بلا هـوادة لان خلف هذا الصراع تقـف قوة اجتماعيـة جديـدة نشات في غمرة ازدهار التجارة البحرية الكبرى بعد استئنـاف طرقها واكتشاف امريكا، قوة أخذت تبني نفسهـا على «رأس المال» وعلاقات انتـاجه، دافعـة الى الهامش اقتصاد الملكية العقاريـة الريعية بكل علاقاتـه العتيقة والقوى القائمة عليـه من إقطاعية وكنيسة كاثوليكية وسلطات استبدادية مطلقة»(5) فهل عرف المجتمع العربي مثل هذه الديناميكية إبان نهضتيه الأولى والثانية؟

عرب النهضتين بين الحركية والجمود

في إطار جدلية الاضداد بـات من البديهي أن للحرب حسناتها التي تصل إلى حد بعث جديد لبعض الأمم التي تخوضها أو التـي تتاثر بها بشكل من الاشكال، وهو ما ينطبق على شمال الجزيـرة العربية بعد تنامـي اطماع القوتين العظميين فارس وبزنطة وخاصة إثر تخريب اليمن من قبل الاحباش.

فاليمن، عقـدة طرق التجـارة العالميـة، كان في القرن السـادس وبعد تعـرضه لكوارث طبيعية كبيرة مثل انهيار سد مارب، في حالة من الانقسام والتفكك اعتبرها الطبري من أهم اسبـاب انهزام الملك ذو نـواس أمـام جيش الحبشـة، ثم جـاءت جحـافل الاحبـاش تدمـر وتحرق وتقتل(6) وجاء الفـرس لصد الاحباش حلفـاء بـزنطة وانتشرت حـركات التمـرد وعمت الفوضى وهـو ما ألحق ضربـة قاسمـة بالدور الذي كانت تلعبه اليمن في التجارة العالمية بسبب فقدان الامن، كما أدى هذا الـوضع إلى حـركة سكـانيـة مكثفـة وجماعيـة نحو الشمال وكـان لهذه الحركـة السّكانية انعكاسات ديمغرافيـة وحضارية لأنها حقنت الشمال بعناصر حضارية ديناميكيـة اقتصاديا واجتماعيـا وثقافيا وليس من سبيل الصّـدفة أن الممالك التي عـرفها الشمال كـوّنتهـا قبـائل نازحـة من اليمن(7) ومع هـذا المدّ السكاني نحـو

الشمال انتقلت أيضا الطرق التجارية وتحوّل مركزها من عواصم اليمن على المحيط الهندي إلى مدن أخرى تقع في مناطق استراتيجية على الطريق البرية الممتدة من الشام والعراق إلى عمان مرورا بيثرب ومكّة على الخصوص.

وقد رسم لنا أبو حيّان التّوحيدي خريطة لأسواق العرب في الجاهلية وطريق الانتقال بينها ذاكرا أنها تنطلق من سوق دومة الجندل في الشام وهي سوق تستمرّ كامل شهر ربيع الأول ثم ينتقل التجار إلى سوق هجر في شهر ربيع الآخر ومنها يتحوّلون إلى عمان ثم عدن فحضرموت لصنعاء ويصلون إلى عكاظ بالحجاز في الأشهر الحرم. ويضيف التوحيدي قائلا : «وهذه الاسواق كانت تقوم طول السنة، فيحضرها من قرب من العرب ومن بعد»(8).

وهذه الحركية التجارية التي مسّت إلى هذا الحد أو ذاك مختلف مناطق الجزيرة العربية أحدثت شرخا كبيرا في مختلف البنى البدوية القديمة وأقامت أسس اقتصاد رأسمالي بكل ما يستتبعه من نتائج وانعكاسات على انقاض إقتصاد الكفاف والمشاع القديم وحتى إذا استبعدنا ما ذهب إليه «لامنس» مثلا من أن العرب وخاصة في مكة قد أقاموا آنذاك اقتصادا رأسماليا، فهو في كل الحالات وكما ذكر «ماكيم رودنسون» عن «كارل بولاني» : إقتصاد تحرر من قماطه.

«فلقد كانت الأعمال الاقتصادية تحري في إطار أدوار إقتصادية موزعة على منظمات إقتصادية دائمة هي الشركات التجارية، وهيكل العلاقات بين هذه الشركات لم يكن أبدا حبيسا في «قماط» غير اقتصادي كعصبية القبيلة مثلا..»(9).

وبذلك دخل المجتمع العربي مرحلة صراع داخلي بين الهياكل والعقليات والأوضاع القديمة والجديدة وكلّما إزداد إزدهار التجارة واتسعت رقعتها كلما ازدادت الهياكل القديمة تراجعا والهياكل الجديدة قوة وبدأ المجتمع الجديد يخلق لنفسه ثقافته وقيمه وتقاليده وبدت المنطقة العربية الشمالية وكأنها قد أعيد خلقها من جديد : أمة شابة وافرة العدد مزدهرة الاقتصاد.. وقد انعكس كل ذلك في الرقي الثقافي الذي عرفته والذي يقوم الشعر الجاهلي شاهدا عليه(10).

وأمام اتساع التجارة وازدهارها بدأ العرب وقادتهم من كبار التجار يحسّون بمكانتهم الحقيقية على الساحة الدولية ويطمحون إلى ترجمة تلك المكانة الاقتصادية في المستوى السياسي، غير أن تشتتهم وانقسامهم إلى قبائل متناحرة كان يعوق طموحهم هذا بل ويهدّد تجارتهم رغم التحالفات التي كانوا يعقدونها فيما بينهم وما كانوا يؤمنون به القوافل أثناء تحولها إلى الأسواق من إتفاقات إتخذت صبغة قدسية في بعض الاحيان مثل «الأشهر الحرم».. لقد استوجبت التجارة وجود سوق داخلية كبيرة ولا يمكن تامين وجود هذا السوق إلا في ظل دولة مركزية كبيرة.

وهكذا بدأت تولد إيديولوجية توحيدية موحّدة، انتشرت خاصة في الأوساط النيرة بين القبائل الهامة بالجزيرة العربية رغم أحتدام التنافس بينها، وكما وجدت النهضة الأوروبية وقودها الروحي والفكري الموجّه في فلسفة الأنوار، وجدت النهضة العربية في القرن السادس للميلاد في الديانة التوحيدية أرضيتها الإيديولوجية وسلاحها نحو بناء وحدة اجتماعية وسياسية. ولعلّه مما سهل انتشار فكرة التوحيد وجود جاليات يهودية ومسيحية هامة في المدن التجارية

العربية وكذلك احتكاك العرب باتباع هـاتين الدّيانتين اثناء أسفارهم التجارية إلى الشام...

وهكذا بـدأت عقيدة التوحيـد تتسرّب إلى صلب الديـانة الوثنيـة ذاتها فلم يعد العـرب يؤمنـون بآلهة متعـددة وإنما هـو ربّ واحد يعبـدونه عن طـريق «آلهة» وسيطة كانوا يسمونها كما ذكر القرآن «بنات الله».. (11).

وقد إستفـاد تجار مكة إلى حدّ بعيـد من وجود «بيت الله» في مـدينتهم ليعزّزوا مكانتهم الاقتصادية والسياسية.

وكما هو الشأن في كل نهضـة قائمـة على اقتصاد السوق فإن حـركة عقـلانية بدأت تظهر بين العرب ولكنّهـا اتخذت طابعـا دينيا يتماشى مـع الموروث الثقافي للمنطقـة ورغم المؤثـرات المسيحية واليهـوديـة في هذه الحـركـة فإن وعي العـرب بذواتهم وطمـوحهم إلى لعب دور على الساحة الـدولية ولد بينهم مـا سمّاه إنجلز «بـالـوعي القومي» ولذلك عـادوا إلى جذورهم ومـوروثهم يستمدون منه المقـوّمات الفكرية والروحية لنهضتهم وهو ما ترجمته الحركة الحنيفية التي كانت تدعو إلى إحياء ديانة جدّهم إبراهيم الحنيف وفي ذلك تاكيد لقول ماركس: «إن تقاليد جميع الأجيـال الغابـرة تضغط بوزن كبير على عقـول الأحياء، وحتى عنـدما يبـدو أنها منهمكة في حركة تحوّل تشملهم وتشمل الأشياء من حولهم وحتى عندما يبدو أنهم بصدد إبتـداع شيء جديد تماما، بل وبـالتحديد في هـذه الفترات من التازم الثوري، يتذكّرون بخشـوع أرواح الماضي ويستعيرون منهم أسماءهم وشعاراتهم وأزياءهم حتى يبرزوا على الـركح الجديـد للتـاريـخ بهذا التنكّـر المحترم، وبهذه اللهجـة المستعارة، وهكذا استعـار لوثر قناع القدّيس بول، واستعارت الثـورة الفرنسية قناع الجمهورية الرومانية»(12).

وقـد انتشرت الحركـة الحنيفيّـة في الأوسـاط النيّرة أو مـا يمكن أن نسمّيهم بالمثقّفين المنتمين إلى العديد من القبائل الهامة فذكر منهم المسعودي خالد بن سنان وهو من عبس وهو الذي جاءت ابنتـه إلى الرسول ﷺ «فسمعته يقرأ: «قل هو الله أحد الله الصمد» فقالت: «كان أبي يقول هذا». (13) كما ذكر من عبد القيس رئاب الشنّي ومن حمير أسعد أبـو كرب الحميري ومن أياد قس بن ساعـدة ومن قريش زيـد بن عمـرو بن نفيل وهـو ابن عمّ عمـر بن الخطـاب ومن ثقيف أميـة بن أبي الصّلت «الذي كان يتّجر إلى الشام فتلقّـاه أهل الكنائس من اليهود والنصارى وقرأ الكتب» حسبما أورده المسعودي وهو مـا يؤكّد التفاعل الثقـافي والفكري بين عرب الجزيرة والشعوب المجاورة لهم، وقد برز من بين هؤلاء الحنفاء زعماء سياسيون صبغوا زعـامتهم بطابع ديني في شكل إعـلان النبوة وليس من سبيل الصـدفة أن ظهر هؤلاء للتنـافس على قيادة الدولة العربية المرتقبـة فتنبأ في نفس الوقت الذي ظهرت فيه نبوّة الرسول مسيلمة في بني حنيفة باليمامة والأسود العنسي في اليمن وما أن توفيّ الرسول حتى أعلنت سجاح نبوتها في بني تميم وأعلن طلحة نبوّته في بني أسد.

ولكن ما كـانت تتطلبه المرحلة التاريخيـة في الجزيرة العربية آنـذاك هو دولة واحدة وسلطـة واحدة ونبوّة واحدة. وكـانت كل العوامل ترجح كفّـة قريش لهذا الدور وهـو ما تكرّس فعلا بـانتصارها السـاحق في ما عرف بحروب الـردّة، هذه

الحروب التي أنهت إلى الأبد الوضع القديم وكرّست الوضع الجديد داخليًا بتوحيد القبائل العربية في هوية سياسية جديدة هي الأمة بزعامة أقوى القبائل آنذاك وهي قريش وخارجيًا ببدء الفتوحات الكبرى وإنهاء الامبراطورية الفارسية وتجريد الامبراطورية البيزنطية من مستعمراتها في الشام ومصر وشمال إفريقية التي أصبحت مجالا حيويا لتوسّع هذه الأمة الشابة الناهضة وأقبل العرب وهم في موقف قوة وغلبة يأخذون من الشعوب التي غلبوها والتي كان لها موروث حضاري ثري وعريق وذلك دون أي حرج ولا مركّب ولا خوف لأنهم في موقف الغالب ولم يمثّل ما أخذوه نشازا لأنهم أدمجوه في تراثهم واستوعبوه في ثقافتهم ولغتهم في إطار حركيّة ثقافية متعدّدة الوجوه ثرية المؤثرات ولكنها موحّدة الروح تحمل طابعهم وسمتهم ولم يقتصر ذلك على الثقافة فحسب بل شمل أيضا التركيبة العرقيّة للمجتمع عن طريق استعراب العديد من الشعوب المفتوحة وما يعرف بالتوليد.

ويمكن أن نعتبر مدينة البصرة نموذجا مصغرا للواقع البشري والثقافي الذي خلفته النهضة العربية الأولى إذ كانت تتفاعل فيها شعوب ذات أصول عرقيّة وثقافيّة متنوّعة ومختلفة من عرب وفرس ونبط وصينيين وهنود، لتصبّ في نهاية الأمر كل هذه الجداول في نهر واحد حسب تعبير أحمد أمين هو نهر الحضارة العربية الإسلامية وللحقيقة نقول إن الحركة العقلانية التي تعودنا إرجاعها إلى هذه الفترة اللاّحقة، وإلى مدينة البصرة بالذات، إنما تعود أساسا في جذورها الأولى إلى أواخر القرن السادس للميلاد من خلال محاولات الفئات المستنيرة والزعماء التجاريين عقلنة الواقع السياسي والاجتماعي لعرب الجزيرة بل ويمكن أن نقول أيضا عقلنة علاقتهم بالكون عبر الحركة الحنيفية مثلا.. وقد جاء الإسلام ليتوّج هذه المرحلة الأولى من حركة العقلنة هذه ويفتح آفاقا جديدة لمرحلة أرقى، هي التي بلغها المجتمع العربي الإسلامي مع الدولة العباسية. فقد سعى القرآن إلى عقلنة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية عبر نصوص قانونيّة ولا اختلاف في أن القانون يمثل درجة عالية من درجات العقلانية وقد كان الركيزة الأساسية لحركة التنوير الأوروبية.

كان هذا إبّان النهضة الأولى والعرب كما قلنا في موقع الغلبة أما إبان النهضة الثانية، فرغم جهود محمد علي المعروفة لبناء دولة قوية وعصرية، ورغم الحركة الفكرية التنويرية التي قادها المصلحون أمثال الطهطاوي وخير الدين وواصلتها الأجيال اللاّحقة ورغم ما حققته بالفعل من مكاسب قياسا بالواقع الذي كانت تعيشه المنطقة قبيل انطلاق حركة النهضة، رغم كل ذلك فإن المجتمع في عمقه لم يعرف مثل هذه الديناميكية الداخلية التي أحدثتها النهضة الأولى ولم تتحرر علاقته بالآخر من العقد المرضيّة بل وتحوّلت هذه العلاقة والموقف منها إلى عامل إضافيّ من عوامل التأزم الذاتي. ولعلّ ذلك يعود إلى جملة أسباب نذكر منها :

1) أن الآخر أي الغرب، لم يمهل المجتمعات العربية حتى تستكمل تحولاتها الذاتية بعد يقظتها، فجاءها غازيا وفرض عليها فوق هياكلها التقليدية القائمة هياكل جديدة هي حصيلة جاهزة لتحولاته هو التي استغرقت قرونا وثورات طويلة ومشهودة. وبذلك أصبحت هذه المجتمعات مزدوجة التركيبة مشوّهة البنية

وبقيت الهياكل القديمة حية فاعلة تتربّص الفرص لتعود إلى السيطرة من جديد. وهو ما نعيشه حاليا، بينما ظلت الهياكل الجديدة مهزوزة هشة لا تقوى على الصمود.

2) لم يتمكن العرب فكريا من إيجاد السند الإديولوجي النابع من تراثهم كما فعل اجدادهم، بل اعتمدوا في الغالب مقولات منقولة حرفيا عن الآخر الخصم ولم ينجحوا كثيرا في استيعاب هذه المنقولات ضمن رؤية جديدة خاصة بهم. وحتى ما يسمى بحركات التنوير الديني التي حاولت أن تستمد من الاسلام المقومات الإديولوجية لحركة نهضوية تربط مع الجذور، فإنها سرعان ما فشلت هي الأخرى وبدل أن تنشىء إديولوجية للنهضة، تحولت الى إديولوجيا رافضة للنهضة ولكل تغيير في اتجاه المستقبل.

3) من مفارقات هذه النهضة الثانية انها تاتي في إطار الهزيمة وفقدان السيادة.. بل وأكثر من ذلك فقد أردنا، ونحن المغلوبون، أن ننهض بتوجيه ورعاية من الغالب وعلى أسس توجهاته ورؤاه الحضارية والثقافية والقيمية دون كبير اعتبار لحقيقة واقعنا التاريخي، ولم يكن هذا اختبارا لأن ظروفنا التاريخية فرضت علينا ذلك، وجعلت خصمنا هو قدوتنا للنهوض.

ولهذه الاسباب فإن العوامل الهيكلية والإديولوجية والتاريخية بل وحتى النفسية لم تكن مواتية لتنشأ حركة نهضوية حقيقية بتحول في عمقه وعلى اختلاف مستوياته ومن هنا جاءت تلك التشوهات الخلقية في حركتنا النهضوية الحديثة التي بنيناها على عقدة المغلوب تجاه نفسه وتجاه الآخر عقدة تتارجح بنا وتمزقنا بين الإغراق في تقليد الغالب على المعنى الخلدوني القائل بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب وبين الرفض المرضي لذلك الآخر الغالب لانه تجسيد لسعي تاريخي لا يفتر لنفي هويتنا ونسخنا صورا متشوهة على منواله.. ولم نتمكن والحالة تلك من التعامل مع الآخر تعاملا متزنا ناخذ منه ونعطيه في حركة مثاقفة متحررة من العقد والضغوطات لأن ذلك لا يتم الا من موقف قوة نحن افقر ما نكون إليه. وما أحوجنا اليوم، إن أردنا النهوض من جديد حقا، إلى انتصار يحرر شعوبنا من عقدة المغلوب ويعيد إليها ثقتها بذاتها.. وما الحركة الشعبية العفوية المساندة للعراق في أزمة الخليج والحماس الذي كانت تنتظر به إنتصارا عراقيًا مستحيلا في المواجهة إلا تعبير دقيق عن هذه الحاجة التي قهرت مرة أخرى وبكل عنف بما آلت إليه هذه الحرب من نتائج.

وختاما فإن قناعتي أن طريق النهضة يمرّ حتما بضرورة استعادة الوعي بالذات بصفة صحية لا مرضية كما هو الشان عند القوى السلفية المتزمّتة وصنوتها القوى الانهزاميّة المنظرة لليأس والهامشيّة والذوبان في التّبعيّة.

مصطفى التواتي

الهوامش :

1) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ج 1 عن دار الكتاب العربي ط 10.

2) تجمع كتب التاريخ العربية مثل الطبري على أن ملك اليمن المعروف بـ «ذو نواس» قد اعتنق اليهودية وتحالف مع الفرق ثم أخذ ينكّل بالمسيحيين في اليمن وخاصة في نجران كرد فعل على اضطهاد اليهود في المناطق الخاضعة لبيزنطة المسيحية والتي رأت في هذا الوضع الجديد لليمن تهديدا لمصالحها الاستراتيجية فدفعت بحلفائها الأحباش المسيحيين الى غزو اليمن ومدتهم لهذه الغاية بكل ما يحتاجونه من أسلحة وسفن (أنظر كتابنا : التعبير الديني عن الصرّاع الاجتماعي في الاسلام ط 2 ـ دار الفارابي ص 55 وما يليها).

3) أنظر في ذلك كتاب «أثر الثورة الفرنسية في فكر النهضة» ـ تأليف مصطفى التواتي ـ محمد بن حمودة ـ صادق جلال العظم ـ عن دار محمد علي الحامي ـ تونس.

4) ألبير سوبول : تاريخ الثورة الفرنسية من الباستيل إلى الجيروند.

ترجمة جورج كوسي.

5) مصطفى التواتي : ضمن كتاب «أثر الثورة الفرنسية في فكر النهضة» ص 7.

6) قال الطبريّ في تاريخه : «وطىء أرباط (القائد الجيش) اليمن بالحبشة فقتل ثلث رجالها وأخرب ثلث بلادها وبعث إلى النجاشي بثلث سباياها ثم أقام بها قد ضبطها وأذلّها».

7) مثل قبيلة كندة التي كونت مملكة في حضرموت ومدت نفوذها إلى قبائل بني أسد في اليمامة، وجذام التي ينتمي إليها اللخميون أصحاب مملكة الحيرة بالعراق والازد الذين يعود إليهم الغساسنة ومملكتهم بالشام وخزاعة التي سيطرت على مكة مدة قبل قريش والتي ينتمي إليها الأوس والخزرج بيثرب والذين يعود إليهم الفضل الأول في نصرة الإسلام.

ومن القبائل اليمنية الأخرى التي لعبت دورا هاما في الحياة السياسية والثقافية بعد نزوحها إلى الشمال نذكر خاصة تنّوخ وقضاعة وجهينة وعذرة وطيء الخ..

8) أبو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة ـ الليلة السادسة.

9) مكسيم رودنسون : الإسلام والرجسمالية ترجمة نزيه الحكيم ص 43.

10) أنظر خاصة مكسيم رودنسون في كتابه : «محمد» الطبعة الفرنسية ص 57 وما يليها وطه حسين : في الأدب الجاهلي.

11) يقول ابن صاعد في كتابه طبقات الأمم ص 44 :

«وجميع عبدة الأوثان من العرب موحّدة الله تعالى وإنما كانت عبادتهم لها ضربا من التديّن بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والإصنام الممثّلة بها في الهياكل لا على ما يعتقده الجهّال بديانات الأمم وآراء الفرق من أن عبدة الأوثان ترى أن الأوثان هي الآلهة الخالقة للعالم ولم يعتقد قط هذا الرأي صاحب فكرة ولا واربه صاحب العقل دليل ذلك قول الله تبارك وتعالى : ما نعبّدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى».

12) ماركس : 18 برومير ـ المنشورات الاجتماعية 1968 ص 15.

13) أنظر مروّج الذهب المسعودي.

«السؤال الآن : هل يمكن تكرار قصة الحداثة والحداثة البعدية في سياق حضاري آخر، خارج سياقها الأصلي الموصوف بالغربي؟

وقد يمكن طرح السؤال بصيغة أخرى: إنه بدلا من تكرار ما هو من خصوصية مشروع ثقافي محدد، في مشروع ثقافي آخر مختلف، ألا يمكن القول بان مكتسبات العقل في الغرب هي في الوقت نفسه مكتسبات للإنسان بصرف النظر عن محليته الجغرافية، وهل لا تزال الهويات اللاتينية عقبات في وجه هذه المكتسبات الشمولية، أم أنها مجرّد تعددية بمواقعيات مختلفة قابلة للتعايش دون التورط في حروب التصفيات المتبادلة. وقبل محاولة الإجابة لا بدّ من تقرير هذه الحقيقة التاريخية، وهي أن «فتوحات» المشروع الثقافي الغربي السياسية والتوسعية طوال القرنين الماضيين، حجبت فتوحاته العقلانية الأخرى. وبذلك عرفت الشعوب التي لاقت عَسْفَهُ واضطهاده الوجه البشع لثقافة الاستعماري، التفوقي، العنصري، لكنها لم تعرف قصة العقل الغربي مع ذاته، ولعل الغرب نفسه قد تعمد هذا الحجب ليحتفظ لنفسه بنار المعرفة اطول فترة ممكنة».

مطاع صفدي

الشرعية / المشروعية II

الفكر العربي المعاصر 74/75

مفهوم القطيعة المعرفية في أطروحة الشكلانية الجديدة

ادريس بن الطيب
(ليبيا)

تحاول هذه الورقة التعرض لأحد أكثر مفاهيم الحركة الشعرية العربية الحديثة انتشارا وغموضا في الوقت ذاته ليس تنوع الرؤية التي تحكم فهمه بما هو مسالة منهجية لا تتعلق بالشعر وحده بل مع بقية فعاليات الإنسان الاخرى - ضمنه الرؤية الكلية الشاملة لحركة المجتمع والموقف الفلسفي من الكون والحياة، ان الموقف من الشعر أو فيه من جهة، وطبيعة تعين هذا الشعر في شكل ما من جهة اخرى يمتان بامتن الصلات إلى طبيعة الموقف من تطور المجتمع واتجّاه حركة هذا التطور.

○ ولو نتطرق إلى الكثير من نافل القول مما هو معروف وشائع حول الجذور الاجتماعية لحركة الشعر العربي الحديث وصلته الوطيدة مثله مثل كل مكونات الثقافة بالحراك الاجتماعي وطموحات التقدم في المجتمع العربي منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى الآن مما يوصل الى الحقيقة الأكيدة المتمثلة في ان هذه الظاهرة الثقافية لم تنشا برغبة فردية من شاعر أو مجموعة شعراء حبا للكشف والمغامرة و الابداع الفردي، وانما نشات تعبيرا عن حاجة فعلية - في الواقع المعاش - إلى انجازات جمالية جديدة على مستوى القصيدة الشعرية انطلاقا من حقيقة ان الشكل الشعري المختلف هو حالة التعين الجمالي للمضامين الشعرية المختلفة.

○ وإذا كنا نعبر ان الشعر العربي الحديث جاء ضرورة فرضتها حركة التطور، فإن مناقشة المفاهيم المختلفة والأطروحات المتنوعة التي تنشأ على أرضيته وتعريضها الى حرارة النقاش لتذويب ما كان منها مجرد انتفاخ ورمي هو ضرورة أكثر الحاحا تفرضها بدورها حركة التقدم إذ أن الحركات التي تشكل بالإرتباط مع نحو المجتمع تغيرا في فعاليات الظاهرة الثقافية تزخر - في العادة - بكثير من الأطروحات المتضاربة التي قد يطال بعضها الخلل او الخطأ في حركة البحث الثقافي الصادق والدؤوب عن الحقيقة وعن ثقافة أكثر فعالية وانجازا، لكن الشعر العربي الحديث - كظاهرة جاءت تعبيرا عن مضامين جديدة وليست مجرد

ثورة في الشكل ـ تميّـز في فتراته الأولى «بتغلب المضمون فيه أو باهتمامه بالمعاني رغم قلقـه الـدائم في البحث عن الشكل المتطـور ورغم انتفـاضتـه ضـد الأشكـال الشعرية القديمة حتى إذا ما قاربت القصيدة العربية ان تتفاهم هذا العناق وترقى فيه مرتبة ملحوظة، ظهرت بوادر الانحياز الى الشكل كردة فعل على اهتمام الشعر العـربي بالمضمـون وكانعكـاس للتاثـر بالشعـر الغربي الحديث، وهـذا التشكيل اللغوي هـاجسا ومصـدرا للتنافس والمبهـاة وانحراف في اتجاه التجـريد واحترف الصدفة اللغـوية وغرابـة الصورة، وهو الامـر الذي(10) ـــ وان كان قد بـدا منذ الخمسينات على أيدي مجلات شعـر وحوار ومواقف ـ إلا أنه ترك آثـاره الواضحة على النتاج الشعري لعدد كبير من الشعراء المعروفين مما بدا بدوره يمارس تأثيره على الشعراء المبتدئين حتى اليوم.

في اطار خريطـة التطور هذه برزت تنظيرات متنـوعة لمسالة غـاية في الأهمية، هي مسالة القطيعـة والتواصل مع تـراث الماضي الشعري، محكـومة بفهم منهجي متنـوع لمسائل الـزمان والمكّان وحركـة التقـدم وآليات الابـداع ومفهوم الحريـة، ومدفوعة ـ في مجملها ـ بهاجس خلق طواعيـة تعبيرية جديدة وبالرغبة في انجاز جمالي جديد له سماته الخاصة المتميّـزة وسـوف نتعرض الى مناقشة هذه المسالة من الناحية المنهجيـة، دون أن نناقش تعيينها في نصوص بعينها لئـلا يستغرقنا الحديث التطبيقي المتخصص في أدوات انتاج الشعر مما لا يتسع له المقام هنا.

* * *

○ ثمة مستويان يمتد عليهما تنظير الأطروحـة الشعرية التي ننوي مناقشتها هنـا هما مستوى الفكـر الـذي يحكمها في سيـاق الظـاهـرة الاجتماعية ومستـوى التنظير الفني للنصـوص الشعريـة، بحيث يتـوازى المستويـان ويتكامـلان لخلق منظـومة متكـاملة، فعلى مستـوى الفكر تنطلـق الأطروحـة من القول بان قطيعـة شاملـة مع الماضي الشعري لا بـد من انجازهـا ليصبح ممكنا الـدخول الى مجالات ابداع شعرية جديدة، وان على الشعـر المعاصر أن يفك ارتباطه نهائيا بكل ما يمثل آلية التـذوق الجمالي القديمة أو ما يعبر عنـه البعض «الذائقة التقليديـة» المتمثلة فيما استطعت ان افهم ـــ في شحنـة الدلالات المعتـادة الكـامنة كـذاكـرة تاريخيـة للكلمات، وان «الشعر الاصفى هو الميتافيزياء، ففي كون تنسحب منه الحياةلا كما ينسحب الدم من الـوجه تبقى بعض المجانيـة وحدها ضرورية وتلك هي رسـالة الشعر «وانه» ينبغي على الشاعر المعاصر كي يكون جديدا حقا ان يتخلص من كل شيء مبهم ومن الآراء المشتركة جميعا «وانه» لهذا ـ أي لأن الشعر الجديد غامض، متردد، لا منطقي ـ لا بد من العلـو على الشروط الشكلية لأنه بحاجـة الى مزيد من الحرية، مزيد من السر والنبؤة، فالشكل يمحى امام القصد والهدف(3).

وقبل أن نبدأ في نقاش هذه الأطروحة فكريا وفنيا سنحاول أن نتعرض لمفهوم «القطيعة المعـرفية» كمصطلح نشأ في بيئة تـاريخية معينـة أي في زمانه ومكـانه محدودين لأداء مهمة الضبط المعرفي لواقعة محددة، ولذا فهو يكتب قيمته المعرفية اصطلاحيـا بمدى قـدرته على أداء مهمة التحـديد المعـرفي لتلك المسالة الـواقعة في الزمان والمكـان، انه ليس شيئا صالحا متنقـلاً عبر الزمان والمكان، بـل ان فعاليته تكمن ـ على وجه التحديد ـ في مدى نسبيته وعدم اطلاقه.

تعرض هذا المصطلح لاستخدامات عديدة في عدد وافر من علوم الثقافة كان آخرها استخدام البنيويين له توظيف وتغير العلاقة — الواقعة خلال القرن السادس عشر وما يليه - بين ثقافة المجتمع الاقطاعي المسيطر في أوروبا وبين ثقافة المجتمع الرأسمالي الجديد الذي كان ينمو في رحمه، وذلك في مرحلة محددة من مراحل نمو هذه الثقافة الجديدة، حيث استطاعت - بحكم كونها تعبيرا عن حركة اجتماعية شاملة جديدة - ان تجد في هذه القطيعة المعرفية مع ثقافة الاقطاع شرطا لولادتها في إطار ثورة شاملة والدخول الى مرحلة تغير كيفي جديد في كافة فعاليات الحياة الاجتماعية، مما جعل هذه النتيجة الثقافية تجيء تتويجا لمرحلة طويلة من الصراع التاريخي بين الثقافتين في المجتمع الأوروبي.

اننا لا نريد أن ننجر هنا الى الحديث عن تفاصيل تطور المجتمع الأوروبي ومدى تشابهه أو عدم تشابهه مع مجتمعنا العربي، ولا عن علاقة التبعية التي حكمت منطقتنا العربية وأحدثت بها تغييرات بنيوية نتيجة التطورات اللاحقة للمجتمع الأوروبي ذاته، هذه التبعية التي هي في كثير من وجوهها — وبالأخص الوجه الثقافي — لا تزال قائمة بأشكال مختلفة، ولكننا نريد أن نقول أنه إذا أمكن لنا فهم الظروف التاريخية التي نشأ فيها هذا المصطلح وكانه بالفعل قادرا على أداء مهمته المعرفية آنذاك فليس بالضرورة أن يكون قادرا على انتاج أيّة معرفة في زمن آخر وفي مجتمع آخر يختلف عنه في سياق تطوره، بل أن الضرورة قد تقول بعكس ذلك، فقد يمارس المصطلح تضليلا معرفيا نتيجة لاختلاف الحالة موضوع الضبط، إذ أن الشروط التي توفرت آنذاك للمجتمع الأوروبي لحدوث ثورته الشاملة وبالتالي لاحداث هذه القطيعة لم تتوفر في نحو المجتمع العربي، كما ان الظروف التاريخية التي عاشها المجتمع الأوروبي تختلف نوعيا عن الظروف التي يعيشها المجتمع العربي منذ بدء نهضته وحتى الآن فتداخل الانماط المختلفة للحياة الاجتماعية متجاورة في مجتمعنا، دون غلبة كاملة لاي منها على الآخر مع الاعتراف بتفاوت تأثير هذه الأنماط، هذا التداخل ينعكس أمامنا بوضوح في حياتنا الثقافية بكل ما تحتويه تلك الأنماط من قيم سائدة رجعية وقيم استهلاكية وافدة رجعية أيضا، وقيم تقدمية ممتدة في جذورها التاريخية ومستشرفة آفاق المستقبل.

* * *

آن لنا بعد هذه الملاحظة السريعة حول نسبية المصطلح وتارخيته أن نلج إلى مناقشة الأطروحة التي أوردنا نصوصها من أقوال بعض منظريها، لكي نتبين من جهة استحالتها الفلسفية المتمثلة بالذات في اطلاقيتها، ونتوصل - من جهة أخرى - الى المحصلة الموضوعية التي تقود اليها في نهاية المطاف دون ان نلقى لنوايا اصحابها.

أولى سمات هذا الطرح انه ينطلق من أن الواقع فكر محض أو بالاحرى الفكر المحض هو الواقع، ومن ثمّ يتم تجاهل حقيقة هامّة هي أن القطيعة مع الماضي في الشعر لا يمكن أن تتم بكيفيتها الصحيحة — إلا إذا أصبحت قطيعة فعلية مع انماط الحياة الماضوية وليس مع الماضي من حيث هو ماض، أي أن تتخلق الحياة الجديدة الى ان تصبح بديلا تاريخيا عن السائد القديم، ولذلك - وبسبب هذا

التجاهل - يتميز هذا الطرح بفهم خاص لمسالة الزمن التاريخي ومسالة الحر الابداعية في النصوص الشعرية.

فبالرغم من أن أول ما يواجهك في ظاهر هذه الأطروحة هو الحالة الخارج الرافضة للماضي والقافزة مباشرة نحو المستقبل إلا أن الأمر في حقيقته الداخل ليس كذلك، فالزمن هنا ليس حالة متداخلة تؤمن - بالتجاوز - بعضها بعضا دنيا فيه تتجاوز بدورها مجرد الوصف التبسيطي للقبل بانه ماض قديم والب بانه حاضر حديث، بل أن الزمن في هذا الفهم فاقد - نظريا فقط — لأحد امتدادات أي أن الموقف على أساس هذا الطرح يشكل رفضا تجاهليا للماضي وليس تجاوز له، بخلقه - على مستوى الايديولوجيا - حالة من الفصل التعسفي بين وحدا الزمن المكونة للتاريخ وبالتالي قطع جذور الذات الشعرية الحاضرة والمتكو بدورها تاريخيا انه الموقف العلمي باستلابيته تجاه واقع تاريخي آخر من جه وهو يعني في المحصلة اللاتاسيس بالتاسيس على الفراغ وتوهم حالة الخل الابداعي من لحظة الصفر المطلق، وهو ما عبر عنه أدونيس «بالتخلص من الآر المشتركة جميعا».

ومن جهة أخرى فليس كل هجاء للماضي تجاوزا له وليس كل مديح للمستقب تاسيسا له، ولذا فإذا كان صحيحا أن أهم تقويض لأية أطروحة ثقافية رجعي تسود حياتنا الثقافية يكمن بالضبط في نسف قواعدها الداخلية بابداع يتطلع م الصراع معها على سيادة هذا الواقع احلالا لقيم ثقافية جديدة اقدر على الاستجاب لمتطلبات الواقع ثقافيا، إذا كان هذا صحيحا فإننا سوف نلاحظ ان هذه الأطروح لا تعتبر ذلك مهمة لها، وذلك بهروبها الى الأمام نحو ما تسميه شعر المستقبل وهو هنا مستقبل أثيري لا جذور له، مستقبل لا تاريخي، وهي لهذا السبب بالذا تصب في طاحونة الماضي الذي ترفض سيادته بالتجاهل دون التجاوز، ان الهروب الى وهم المستقبل تحللا من اعباء الحاضر ومهامه لا يعني الا الوقوع في الأزمان، إ ان نقطة التمفصل الصحيحة للتاثير الايجابي الفعلي لنقض سيادة الماضي الرجع على حياتنا الثقافية هي الحاضر ممتدا في مدين، وبدون ذلك يصبح مجرد سقوه في الماضي وتكريس للواقع السائد بالامتناع عن تغييره عبر الانجاز الجمالي شعريا وكما ان عدم الفكر لا يشكل خطرا على الفكر الرجعي، فإن عدم الشعر في نصوص شعرية لا يشكل أي مس بمواقع آليات التذوق الشعري التقليدية السائدة وصفا النيّة هنا ليس مهما على الاطلاق كما أن الهروب الى الأمام هروب لا لبس فيه.

وكما أن هذه الأطروحة لا تصارع الماضي بانجاز فعلي بل تستكين له (وهو ماسوف نلاحظه بوضوح أكثر عند مناقشة التنظير الفني للنصوص الشعري المكتوبة في ضوء هذه الأطروحة فهي كذلك لا تخدم المستقبل كما يبدو ظاهريا أنه تتمنى، ففي الشعر - كما في غيره من الفعاليات الثقافية - ليس مطلوبا من شعراء الحاضر أن ينجزوا فتوحات المستقبل الا بقدر ما يتصل هذا المستقبل بلحظته التاريخية الراهنة، وفي كل الظروف فإن الاعتقاد بامكانية ابداع شعر مستقبل نيابة عن المستقبل وشعرائه ليس الا وهما خالصا ينطلق من تهويم في المطلق بتخليه عن مهمة حقيقية لصالح مهمة وهمية، ولذا فإنه يضر المستقبل الشعري

بالذات اذ انـه يفقده ـ بفقدانه انجـازات الحاضر ـ ما سوف يعد تـراثا له يمكن ـ بجهود شعراء المستقبل وحدهم ـ ان يتجـاوزه بالتاسيس عليه إن المصلحة هنا ـ ودون أي تعسف في التحليل ـ هي فقدان المستقبل طريقه الى التعين الفعلي وبالتالي اغتياله.

لقد أدى هذا الفهم الخاطيء لمسألة الزمن وآليات التقدم الى خلق سلسلة طويلة ومشوشـة من المفاهيم يروجهـا منظرو الصفحـات الثقافيـة في المجلات العـربية تنصب على التحرر من عوائق الابداع المتمثلة في كل ما هو ماض، ووضع الحرية ـ دون أي تحديد لطبيعتها ـ كأساس لابداع فردي متحرر من كل نظام معرفي.

وقد يلبس القـديم ثوب الجديـد دون أن يكون جديـدا ولذا فإن عـوائق الإبداع يجب البحث عنها خارج اتهام النظام المعرفي من حيث هو نظـام معرفي ـ بالوقوف في وجـه الحريـة الابداعيـة، فـالحريـة ــ ان لم تكن وعيا للضرورة التـاريخيـة اجتماعيـا وبالتـالي ثقـافيا ــ تمتـزج امتزاجـا كـاملا بـالاعتبـاط ومن ثم العبث والمجانية كذلك فإن الوقوف موقـف المعارض من كل نظام معرفي باطلاق لا يؤدي إلاّ الى نسف الأسس الداخلية لتماسك المعرفة في منظومة تشكل قوامها الذي تتعين به، ليقـدم بديلا يتمثل في حالـة التبعثر والتفكك في الفكر يتـوازى ـ كتنظير فني ـ مع حالـة تفكك وبعثرة المضمون في النـص الشعري، وفـوق هـذا وذاك فإن الابداع الفردي ليس في الواقع ابداعـا فرديا، انه ابداع لفرد موجـود ـ شاء المبدع ام ابى ـ بدلالات ممتدة في مدى زمني أبعد من ذاته الفردية، فليس هناك من يولد الآن حتى الذي يولد هذه اللحظة لأنه ببساطـة ـ لا يولد ويكتب معارفه في مطلق من الفراغ ان فردية مطلقة لا وجود لها الا في الأوهام داخل مستشفيات المعتوهين.

انني لا أحمّل هـذه الأطـروحـة مـا لا تحمل، بل أقـود نصـوصهـا الـواضحـة والمتكـررة حـول التخلص منه «كل شيء مبهم» أو مشترك في نهايـاتها الحقيقيـة، وكنتيجة فإن القطيعة الكلية مع الماضي ـ فوق انها ليست مجرد مسالة شعرية ـ تعني شعريا ـ القطيعة الكلية مع القاريء الذي يشكل هذا الماضي جزءا من هويته الثقافيـة مثلما يشكل جزءا من هـوية المبدع دون أن يعني شيئـا رفضه الاعتراف بذلك فـلا بدّ من مشترك ما ليصبح القـول قولا شعرا كان أو نثـرا نعم ـ يجب الا نعيـد له انتـاج الماضي في اشكال محسنـة لتكـريس تذوق تقليـدي متدني القـدرة والاستيعاب ويجيد صياغات جامدة لا تتغير، لكن تحرير النص من الفكر ـ سعيا وراء حرية مطلقة غير تاريخية وغير اجتماعية بالتالي ـ هو بالذات ما يعيد انتاج الماضي بتكريس بقـائه وعدم المسـاس بسيادته قفـزا فوق مهمـة تغييره الآتية الى حالة مستقبلية موهومة.

وفوق أن القطيعة التامة هنا تمثل استحالة فلسفية تامة باعتبارها ـ كما أثرت ـ محاولة للخلق من نقطـة الصفر الزمني المطلق الوهمية فهي كـذلك وبذلك فقدان لأهم شروط الابداع الجمالي لأن الابداع لا يصنع الا من موقع الآتي:

محكومـا بضرورتـه التي هي: الآن، وأي اختـلال سـواء في الموقع أو في أدراك الضرورة يـؤدي الى حالـة من أنيميا الابـداع منتشرة على جسد نصـوص ضافـرة يتستر فيها الخواء في بساتين من التشكيل اللفظي المحض.

وبـدون أن نتعرض إلى نقـد تطبيقي لنصوص بعينهـا دعـونا نلق نظـرة على

السمات الأساسية للتنظير الفني الموازي للطرح الفكري الذي سبقت مناق
وسوف نلاحظ أول ما نلاحظ على النصوص المنتجة في ضوء هذا التنظير
بفقدانها الصلة الصحيحة بالماضي كنقيض له يتخلص في رحمه - فقدت د
تماما بالحاضر فهي لا تقول لنا - نحن أهل الحاضر - شعرا نفهمه، وهـ
متعمد يتم التنظير له بالقول بضرورة كسر انتظام السياق وبعثرة المض
وفوضاه لكي يمكنه تحرير اللغة الشعرية من محمولها الدلالي التاريخي ل
احتمالات متعددة ولصالح كشف لغوي شعري يخلق ذهنا حرا من كل
المعنى، ويتم ذلك للإيهام بأنها نصوص ليست لها زاوية رؤية، أي أنها لا
يتمثل مضمونها في تحررها من المضمون وينحصر ابداعها في تشكيلها علاقا
مفردات «لا يحيل بعضها على البعض لغويا او دلاليا» فكل مفردة تقوم بـ
الخاص في خلق(6) صدقها اللغوية، انه «شعر لا يقول، شعر يفتت القول ف
ويعتبر ان كل ما هو قابل للالتقاط من معنى قابل للانتظام في نموذج، و
بطبيعته ضد النموذجية.

ولن نناقش ما إذا كان المعنى ضروريا للنص أم لا فذلك مما لا حاجة ل
لكننا سنناقش القول بأنّ فوضى هذا الشعر هي انعكاس لفوضى الواق
انتجه مما يجعله معبرا صادقا عن حالة قائمة، فهذا القول ينهار تماما ا
يحدث فعلا في هذه النصوص من محاكاة للتصدع والانهيار القائمين في ا
الاجتماعي، والفرق شاسع بين المحاكاة المتمثلة في اعادة انتاج موازية ل
الواقع ونتفه المنفصلة، وبين إعادة خلقه بتقديمه شعريا من موقع وزاوي
تحدد موقفها منه في اطار حركته عبر دلالاتها الخاصة وبتقنيات فنية
ليصبح الواقع هو المادة الخام التي يعاد خلقها بتشكيل فني، لكن الشعر
يحيل على واقع مادي بل يحيل على فوضاه الخاصة به بحجة رفضه الان
نموذج، ان فقدان الحرية الابداعية ليست في الانتظام بحد ذاته بل في الـ
أسر انتظام ما بتكراره رغبة واهمة في تسكين الواقع وتأسيسه، كذلك فإ
عدم الانتظام كصيغة للعمل الفني أقرب الى الوصفة هو انتظام ايضا يد
كما نستطيع ان نلاحظ نصوصا غاية في التشابه والتكرار في سمتها الأسا
تختلف إلاّ في كيفية ترتيب المفردات ليخلق كل منها فوضاه الخاصة.

لقد أشرت في ا لسطور السابقة الى أن هذه الأطروحة تقع مباشرة في م
- داخل حالة ماضوية، ويمكننا ملاحظة ذلك — من باب التدليل - في
بالضبط في أهم مزلق تنتقد فيه الشعرية التقليدية، وهي تهمة التركيز عا
المتمثل هنا في الوزن والثقافة وإهماله خلق حالة شعرية مبدعة، واقتم
اشكال المحسنات البديعية أو أنماط البلاغة التقليدية وانه لا يعمل على خ
يتصل بروح العصر (لا يمكن الرجوع الى كتاب زمن الشعر لأدونيس ص
-) وبسهولة تستطيع ان تلاحظ التناقض الصارخ بين هذا الانتقاد وبين
الأطروحة الذي يؤكد حيوية على ايحائية الشكل كهدف وحيد في ذات
الشعري، فإذا كانت القيمة الشعرية لبعض الشعر العمودي تكمن في
حيث يمكن تحويل الكثير من القصائد الى نثر لمجرد تخليصها من الوزن
والقافية، فان الشكلانية الجديدة المنتحلة تسمية الحداثة ليست مؤها

لتكون بديلا موضوعيا لهذا الماضي، ولهذا فإنها تعيد انتاجه مقلوبا على رأسه من باب التمويه رغم انها تنتقي جهدا كبيرا في هجائه، فمثلا في حالة تشكيل لا تحيل على العالم الواقعي الغني المتحرك، بل على صورة وهمية لواقع ساكن جامد خال من المعنى.

إضافة الى ما سبق،

فهذه النظرة تتصف بداجماتية ذرائعية واضحة، وذلك حين يرد الحديث حول الأهمية الموضوعية للشروط الشكلية للكتابة - أيًا كانت - ، اذ يكشف هذا التصور تناقض داخلي فيه، ففي ذات الوقت الذي يتهم فيه الشعر التقليدي لأنه «غامض متردّد لا منطقي لا بد أن يعلو فوق الشروط الشكلية» «فالشكل يمحى أمام القصد والهدف»، ولذا نلاحظ الدائرة(2) المغلقة التي تجرى الحركة داخلها إن إمحاء الشكل أمام هدف ما — إذا ما قبلنا جدلا به - يترتب عليه وجود هذا الهدف أصلا، الأمر الذي تمّ التنظير لعكسه في القول بكسر العاق ولعدم الوقوع فيما هو قابل للالتقاط من المعنى، مما يعني في نهاية المطاف امحاء الشكل الفني والهدف معا امام العدم واللاشيء.

إن تعليقا على وهم انعدام زاوية الرؤية في أيّ نص، والاعتقاد بأن الشعر الذي لا يقول شيئا لا يهدف الى شيء ضروري جدًا، فالواقع ان شعر الاحتمالات المطلقة دون احالات او رموز وتفكيك بنية النص عمل مهدوف اليه بكل دقة سواء وعَتْ أدواته ذلك ام لم تع، اذا كان صحيحا ان القارئ ليس عليه ان يبحث في النص عن النوايا الحقيقية للكاتب، فليس صحيحا ان يتوهم الكاتب ان نصه دون نوايا. فعدم قول شيء ما أي العبث والمجانية واللامعنى، وعدم خلق رسالة ما - غير الفن — الى القارئ هو في حد ذاته توجه يستهدف تغييب المشكلات الأساسية للمجتمعات العربية وتعبيراتها في الثقافة لصالح ثقافة الضباب.

ان الكتابة في تعبيها لغة هي المحاولة الصادقة لتملك الواقع التاريخي قبضا على الأساس المحتجب فيه وراء طبقات متراكمة من الظاهري، كلما اخترقت الكتابة واحدة اعترضتها اخرى في ملحمة استنباط الأدوات القادرة على ترويض الواقع من خلال لغة همها ان ترى لا ان ترى، كل كتابة إرادة فإما أن تقبل بالمخاطرة فينتصر الفكر في محاولة المعرفة، واما ان تنهزم الى مرئي يتسطع فيها او تزداد ضحالة في ثرثرة هي ضرر اللغة الجوفاء، وبذلك تتخلص على المعرفة في لغة تتستر فيها الفراغات داخل صلة براقة من الشكل ينزلق اليها باسم الذات وحديتها او باسم الابداع، وتاسيسا على ذلك فإن حصر هذه المسالة في اطار الفن لا يعني اكثر من فهم ميكانيكي لحركة التطور على انها حركة خطية صاعدة متصلة، بدل ان تفهم - كما هي عليه - كحركة منعرجة ذات انكسارات وانقطاعات لكنها صاعدة في محصلتها العامة النهائية، وإذا فإن عملية تجاوز الماضي — وليس تجاهله - في إطار الإبداع الشعري لا يتم بعملية انتقال من نظرة الى نظرة أخرى، أي بعملية ذهنية ذاتية، بل بعملية انتقال شاملة من بنية اجتماعية كاملة بشكل الماضي احد عناصرها المكونة لها والممتازة بقابلية للتجدد، الى بنية اجتماعية اخرى لها - بدورها - مضيها المكون لاحد عناصرها، وتصل - عبر تطورها - الى النقلة الكيفية التي تسمح بعملية انقطاع معرفي مع اطروحة الماضي الشعرية واليات تذوقها

كفعالية راهنة مسيطرة، وذلك لافساح المجال امام تخلص اطروحة جمالية جد
تصنع بدورها مع الزمن ـ وفي عملية غاية في التعقيد والتشابه ـ اليات تذ
الفني الخاصة. بهذا الفهم...

يصبح هذا الفهم الشعري المبدع حالة من التداخل العضوي بين الفكر و
تجده شعريا، وتصبح العلاقة بين ما يراد قوله وبين الصياغة الشعرية له ع
ضرورة يغيب فيها الفكر في أعلى درجات حضوره «وتتبخر ذيول(7) الشكل
الفكر لينطق الشكل بكل ابعاد الفكر واحتمالاته» وبهذا يصبح شعرنا هو
الحاضر مفتوحا على الامكان، والمتميّز بإيحائية لا يمكن حصرها في معاد
للمعاني، ولا يقع في فخ النثرية اليومية الفجة سواء كانت تقريرا سطحيا لم
مباشرة في قالب موزون مقفّى، أو كانت سقوطا في التجريد والتهويم والفراغ، و
وجها العملة الواحدة لتصوير الواقع الثري تصويرا هزيلا خاويا، ان ال
الشعرية تستنج في انتاجها للواقع في حقيقته الموضوعية وبشمول لتناقضات
الواقع كما تصوره الايديولوجيا الماضوية سطحا لا عمق له.

حسنا... هل يبدو انني أقف ضد الجديد؟ أو هل أبدو معترضا على حرية
الشاعر الابداعية؟ أو انني أقف مع ما هو جديد حقا في الجديد؟

كل هذه الأسئلة قد يطرحها البعض وقد نوافقه، من أجل خلق نقاش يذ
الثقافة في وطننا العربي وصولا الى تنقية حقلنا الثقافي من أعشاب الخطأ والض
وعدم الوضوح.

ادريس بن الطيب (ليب

الهوامش :

1، 5 6 7 ـ في القول الشعري د. يمني العيد.
ـ 2 ـ رينيه حبش، مجلة شعر ـ عدد 2، 4.
ـ أدونيس ـ في زمن الشعر.



صدر
اخيرا

نحو مشروع ثقافي عربي

سلامة حجاوي (فلسطين)

1. أتيح لنفسي التصرف في عنوان هذا الموضوع الذي أقترح أصلا بصيغة: «المشروع الثقافي العربي: واقع وآفاق»، وذلك انطلاقا من القناعة بأن هذا المشروع غير قائم الآن، بل ان أقصى ما يمكن التحدث عنه في سياق الواقع القائم، هو التحدث عن الثقافة أو الثقافات في المنطقة العربية، وليس عن ثقافة عربية معاصرة، بمعنى ان الشخصية القومية العربية لم تتبلور حتى الان، ان لم تكن قد فقدت الكثير من معالم التناسق التي تشكلت في مراحل المد القومي العربي السابقة. ولا يكفي أن نقول بأن اللغة والدين أو التراث تكفي وحدها لتكوين وحدة ثقافية، ما لم تتم الاستفادة من هذه المقومات من أجل هدف أعلى هو هدف الارتقاء بالانسان والامة، وارسائها على مفاهيم ومنطلقات ونظريات معرفية تمنحها الثقة وتوفر لها منظورا للمستقبل. فنحن حين نتعرف على ثقافة أمة من الامم الراسخة، انما نتعرف على تلك المرتكزات الثقافية التي شدت أجزاءها الى بعضها البعض وجعلت منها أمة واحدة، ولا نكلّف أنفسنا البحث عن مرتكزات عجزت عن شد الامة الى بعضها، ووضعتها في حالة صراع بين أجزائها. فالامة وجود سياسي. ولا وجود لامة بدون وجود سياسي واحد الا في عقول الذين يعتاشون على الماضي، أو الا في عقول الذين يعملون على اعادة بناء الامة منطلقين من الماضي. واذا كان العالم قد أخذ بالاتجاه أكثر فاكثر نحو تجاوز الامم باتجاه وحدة الامم، نحو التكتلات الكبيرة، متجاوزا عصر الامة الدولة الى عصر الدولة الامم، مقربا ما بين ثقافات الامم، مقيما البنى والجسور فيما بينها، فلا بد لنا أن نتساءل عن مقدار تلك الهوة التي أخذت بالاتساع المريع، بين منطقتنا العربية والعالم الاخر، ولا بد لنا من التساؤل: هل نحن خارج التاريخ!

2. لقد ارتبطت الثقافة دائما بالسياسة، بل هي في حقيقتها تعبير سياسي وعملية سياسية، سواء كان مجالها الادب ام العلوم الانسانية أم الثقافة الشعبية. بل صحيح ما يقال بأن أية قصيدة حب مثلا هي فعل سياسي لانها تسعى الى تغيير العلاقات الاجتماعية. ولقد تعاظم الدور السياسي للثقافة في العصر الحديث على

نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ، وذلك مع انبثاق الدولة القومية أو الدولة الامة. فحتى في أوروبا، حيث جرى الحديث في بداية العصر الحديث عن أمم راسخة انشات دولها، كان لابد من تجنيد الثقافة من أجل اعادة صياغة تلك الامم المشاريع على نحو يتطابق مع متطلبات الدولة الامة الحديثة. واذا كانت الدولة بجهازها هي التي تبث الثقافة بفعل ما تتمتع به من سلطة، فتعزز الثقافات الموروثة أو تعمل على دثرها، تكتسب من خارجها ما يتلاءم معها وتنبذ ما لاتريد فان المثقفين بما يتمتعون به من طاقات فكرية وقدرات ابداعية هم الذين يخلقون السياسي المنفذ، ويضعون النظريات، وبالتالي هم الذين يبنون المجتمعات ويقيمون دعائمها. ولا ينطلق المثقفون المفكرون من فراغ، وانما ينطلقون من رصدهم لحركة التاريخ والمجتمعات مستفيدين من قدرتهم على استشفاف المستقبل. فاذا كانت التحولات الاقتصادية ـ والاجتماعية هي الفاعل الاساسي في حركة التاريخ، فان المثقف هو أول من يرصد ويحلل حركتها وتوجهاتها ويقترح توجيهاتها. فليس هناك من سياسي منفذ ليس شخصا عاديا في العادة، بمعنى أنه لا يقتصر في ثقافته على الثقافة الموروثة بكل ما تتمتع به في العادة من جمود وتحجر، فهو يسلح نفسه بما يقدمه المثقفون المتحركون الفاعلون، قد يختار ما يلائمه ولكنه يختار ما هو أكثر فاعلية وتاثيرا، وبالتالي، يكون المثقفون هم المسؤولون أولا وأخيرا عن حركة السياسي. والويل كل الويل لمجتمعات خلت من المثقفين وانطلق الساسة المنفذون فيها من ثقافات موروثة متحجرة.

3- ولم يشهد العالم في تاريخه الطويل عصرا أكثر حراكا وديناميكية من عصرنا الراهن. فهو عصر خطي في مسافات زمنية قياسية من مجتمع العائلة والعشيرة الى مجتمع الامة فما فوق الامة. معنى أنه عصر يستشرف المستقبل، عصر ينظر الى الامام، منطلقا بسرعة فائقة من الماضي نحو الحاضر فالمستقبل وفق نظام. وقد التزم المثقفون بالمجتمعات والدول الراسخة بهذا النظام بشكل عام. فالعقل سيد الاحكام. واذا كان المثقفون هم الذين نظروا لعصر الدولة ــ الامة بحكم معاينتهم لما يحدث على أرض الواقع من تطورات اقتصادية ـ اجتماعية، فان ترسيخ الدول الامم قد تم أيضا على يد المثقفين. هكذا ساد مفهوم الثقافة القومية وانهزمت الثقافات المعاكسة لحركة التاريخ والمجتمعات وفتحت الديمقراطية التي هي نتاج أفكار المثقفين المفكرين، الابواب ازداد الازدهار كلما قلت المعارضة الثقافية ودارت الخلافات الفكرية حول القضايا الثانوية.

4- فالازمة التي تعيشها الثقافة في المنطقة العربية هي أزمة الخروج عن عجلة التاريخ. هي أزمة اللانظام في التطور التاريخي. هي أزمة مفهوم الامة، أزمة الانفصام ما بين ذاكرة كينونة عربية اسلامية تفرض نفسها بالخارج عبر تواصل اللغة والتراث الواحد للجماعة، أمة بنتها العائلة والعشيرة والقبيلة وبين واقع الدول الحديثة المقامة قسرا بدون شرط الحداثة، دول فقدت صلتها بالماضي وبالمستقبل. فهي غير قادرة على الرجوع الى الماضي، الى مفهوم الامة السابق الذي افتقد كل شروطه الاقتصادية ــ الاجتماعية، ولا الى المستقبل لعجزها عن تحقيق شرط الحداثة. هكذا أصبحت الثقافة منقطعة عن شروطها التاريخية. واذ أصبح

الواقع غير قادر على انتاج ثقافته، تحرك السياسي بدون قاعدته الثقافية الموجهة. وصار الواقع الفعلي هو الذي يوجه السياسي بعيدا عن المثقف المفكر ورواه الطالعة من الماضي الى المستقبل.

5. وازاء ذلك، أصبحت الثقافة ليست عملا ابداعيا رؤيويا بل ملحقا لواقع مشوه، عملا تبريريا: فالدول القائمة في المنطقة هي حقيقة قائمة، دول تخلق أممها على النحو الحاصل في كثير من التجارب. واذا كان العالم اخذ بالاتجاه الى عالم فوق الامة، فان التطور سوف يلزم الدول ـ الامم العربية بالاتجاه نحو الوحدة، عاجلا أم اجلا.

6. غير ان الدولة قد فشلت في منطقتنا في تحقيق شرط الدولة الامة الاساس، ذلك هو التحديث. واذا عبر العالم المتقدم من ثورته الصناعية الاولى الى الثانية فالثالثة، فهي قد عجزت كوحدة سياسية في تجاوز عتبة الثورة الصناعية الاولى التي انجبت «الامة»، وازاء فشلها في النهوض باقتصادها وغرقها في الديون الخارجية، فان البنى الاجتماعية فيها قد بقيت على حالها فربة أزمة ماض منحسر وحاضر لا يوفر البديل، واندفعت الجماهير بحثا عن هويتها في السلفية والطائفية والعشائرية والعائلية. هكذا تقف الدول في منطقتنا الان، ليس فقط عاجزة عن تشكيل أممها، وانما قابلة موضوعيا للتحلل الى دويلات طائفية وعشائرية.

7. وفي ظل الاجواء، يبدو واضحا لماذا لم يتمكن المثقفون من الاجابة على ما لا حصر له من المعضلات الثقافية، من الاجابة على تلك المصطلحات التي استوردناها من العالم المتقدم دون أن نستورد الاسس المادية التي أدت الى ظهور تلك المصطلحات الديمقراطية والدينوية وحقوق الانسان وغيرها. ففي عالم أوروبا القديم، عالم ما قبل الدولة الامة وقبل التطور الاقتصادي الاجتماعي الذي انجبها، لم يكن هناك ما يدعو الى تداول هذه المصطلحات. لم تكن موجودة أصلا. انها مصطلحات ومفاهيم ظروف اقتصادية ـ اجتماعية معينة لم تتوفر في مجتمعاتنا.

8. وبالتالي فان التذمر في أوساط المثقفين ازاء غياب الديمقراطية وحقوق الانسان وما يبدو من اتجاه جماهيري متزايد نحو الاصولية الاسلامية ورفض للدينوية، هو ترف ثقافي. فالثقافة الموروثة هي السائدة في مجتمعاتنا. واذ فشلت الدول القائمة في تحقيق التحديث، فهي قد ابقت على البنى القديمة على حالها واذا طلب من الانسان ان ينظر الى ما تحت قدميه بدلا من النظر الى السماء لم يجد تحت قدميه الا الجوع والمهانة، فلماذا لا يحول نظره الى السماء بحثا عن المعجزة، ولماذا يعاب على العقل العربي بانه عقل الاسطورة، طالما ان المثقف ذاته لم يخرج من عالم الاسطورة.

9. ويبدو واضحا ان كل هذه التطورات قد أخذت المثقف العربي على حين غرة. فالمثقف بشكل عام هو الانسان الذي يمتلك المعرفة والرؤية والقدرة على صياغة منظومات فكرية لواقع جديد مطلوب. واذ اقترن الماضي بالتخلف، لم يعد هناك مناص من اللجوء الى بنى فكرية جديدة من الخارج، بعد أن فشل الواقع في انتاج مستقبل منطلق من واقعه. واذ تم تقسيم المنطقة وادراجها في نظام الدول القومية الحديثة قبل ان تتمكن النظرية القومية العربية من صياغة نفسها، أصبح المثقف

موزعـا بين فكرة قوميـة مجهضة ودولة قـومية قطريـة متحققة. وإذ هزم بـ *الافكار التي اعتنقهـا من قوميـة وماركسية وليبراليـة وغيرها*، أصبح مـوزع الخاص والعام، بين الدولة التي ينتمي اليهـا والفكرة القومية التي تمثل بها. الطبيعي ان يتغلب الخاص على العام والدولة على الفكرة. فاصبح الهم الخاص الاسـاس والهم العـام هـوالترف، حيث تقمص العـام شخصية الاخـوة العـر والعـلاقات العـربية ــ العـربية، بينما انهمك الخاص في اعـادة انتاج ذاتـه جدران الدولة.

10ـ فاذ فشلت الـدولة في انجاز عمليـة التحديث، لم يعد أمـام المثقف ما يت الابداع والتغيير. وهي اذ عمـدت بفعل فشلها في انجـاز التحديث، الى ممـارسا وظائفهـا القمعية المرتبطـة بالدولـة المتخلفة، ازداد ارتبـاط المثقف بجهاز الـد لضمان أمنـه المادي والمعنوي. واذ اضطـرت الـدولة الى ممـارسـة مظاهـر بـ وظـائفهـا بفعل انتمائهـا للمجتمع الـدولي، كـالتعليم، ازداد عـدد المثقفين وأش المثقفين. فهاجر من هاجر بحثا عن العمل والكرامة.

11ـ والساحـة الفلسطينية غير مستثناة من هـذا الواقع ان لم يكن واقعهـا حدة. فـرغم ما لمنظمة التحـرير الفسطينية مـن مؤسّسات فهي في الـواقع دول الهواء. والثقافة الفلسطينية هي في الاساس ثقافـة إسلامية، بل إكثر من غيرها المجتمعات العـربية الاخرى بفعل مركـز فلسطين الديني ولم تجد الفكرة القـو رواجا كبيرا لها في الساحـة الثقافية الفسطينية قبل الحرب العـالمية الاولى بل هناك توجسا وخيفة من الفكرة القومية لاقترانها بتدفق اليهود على فلسطين، و التمسك بفكرة السيادة الاسـلامية والثقافة الاسلامية، أشبـه بدرع يحاول اتقاء برز مـن اتجاهات في السـاحة الثقـافية القـومية منـذ أواخر القـرن الماضي باتـ الترحيب بـاليهـود وتشجيع لاستيطـانهم فيهـا ولعل هـذا هـو الـذي يفسر ة الاسهامـات الفكرية الفلسطينيـة انذاك في التنظيرات القـومية التي انطلقت في مـ وسورية ولبنان بشكل خاص غير أن الامـر ما لبث ان اختلف بعد الحرب العا الاولى فـالى جانب التـوجه الاسـلامي العـام للثقافـة الفلسطينية انتعشت الافكـ القومية ولم يكن ذلك ناجما عن حقائق اقتصاديـة اجتماعية، فالفلسطينيون كا يجردون من أسـاسهم المادي بـانتظـام على يـد الحركـة الصهيـونيـة والانتـ البريطـاني وانما للبحث عن ذلك الفضاء الـرحب الفسيح الـذي كانت تنتمي الـ فلسطين بدعة فيما مضى والطرق على جدران نصبت على حين غرة محيلة فلسـ وحيدة في الميدان.

12ـ ما الـذي ينتظر المنطقة؟ يبدو واضحـا ان الازمة قـد بلغت ذروتها ويبـ واضحا كذلك ان ما يحدث اليوم في منطقتنا، الانتفاضة الفلسطينية من جهة وأز الخليج من جهـة أخرى يشكـلان صرختين مدويتين في ضمير هـذه الامة يشكـلا تحدين كبيرين لكل تاريخ هذه المنطقة للامـة المفقودة للأمة التي تصارع من أ ولادة جـديدة فكـافة التطـورات التي شهدهـا العالم في هـذا العقد بـدءا بالثـو الصناعيـة الثالثـة التي قلبت كل المعادلات والموازين فانهت المعسكـر الشرقي بـ منظومته الثقافية وعززت انتصار القيم الرأسمالية الليبرالية وقسمت العالم قسـ

جـديدة: عـالم صناعي متقدم وعـالم متخلف مستهلك، انما يؤكـد ان المنطقة قد أصبحت أمـام خيـارين: خيار الابقـاء على الـوضع الـراهن وتفاقـم أزمات الـدول القطريـة الى مرحلة من التبعيـة التامة والاستعمار المبـاشر، أو الاتحاد والتضامن بتحقيق شكل من الوحدة كفيل بفعل التعامل أن يجنب المنطقة التبعية وينقلها الى درجة من الازدهار، الى عتبة الثورة الصناعية الثانية على الاقل.

13. هكذا تقـف الساحـة الثقافيـة الان أمام تحديـات خطيرة تهز أركان الثقـافة والثقـافـات الســائدة، السلفي منهـا والحداثـوي بل ان مـا تطرحـه الانتفـاضـة الفلسطينيـة من جهة وأزمـة الخليج من جهة اخـرى من تحديات ثقـافية في هـذا الوقت بـالذات انما يؤكد على ضرورة اخضـاع كافة المصطلحات والمفـاهيم المحلية والمستـوردة الى البحث والتفكير فهذان الحدثـان قد طـرحـا تحديـات مثل: مـا هي الشرعية؟ والشرعية الدولية؟ هل للمنطقة العربية شرعية؟. ما الذي يجنيه الحق التاريخي؟ ما هو الاستقلال؟ حق تقرير المصير؟ حق الشعوب في التمتع بثرواتها؟ العدوان؟ الغزو؟ القوة؟ الاستعمار؟ القانون؟ الحرية؟ الوحدة؟ حق تقرير المصير الجريمة والعقاب؟ الاستغلال الحقـوق المشروعة والحقوق غير المشروعة؟ الى غير ذلك ممـا لا حصر له من المفاهيم والمصطلحات. فمنـذ اندلاع أزمـة الخليج بشكل خاص بدا واضحا ان الساحة الثقافية في المنطقة العربية بعيدة عن تعريف أي من هذه المصطلحات التي طالما تداولتهـا الكتابات على نحو فضفاض لا يحمل اي عمق ثقافي في تفسيراته ومعانيه ويجعل الثقافة ضائعة مرتبكة.

14. لا يمكن ان يكون هـذا الا بداية لمشروع يؤسس لثقـافة عربية طـال غيابها، لمشروع ثقافة يعيد لفكرة الوحدة العربية وهجها وعنفوانها، وذلك عبر الاستنباط الامثل لافضل ما في التراث العربي الاسلامي والفكـر الغربي من افكار. انه مشروع اعادة صيـاغة النظرية القومية العربية على قاعدة نظرية معرفية شاملة تعالج كل القضـايـا وتجيب على كل الاسئـلــة التي لا تجد جـوابـا لها حتى الآن. فـدولـة الوحدة، ذلك المشروع، هـي دولة التحديث الشامل التي ستفـرض بحكم تفاعلاتها تطبيق ما ستفرزه السـاحة الثقافية من تعـريفات للديمقراطيـة وحقوق الانسان، وحقوق الاقليات، والقـانون والمواطنية، والفرص، وهي دولـة لن تكون المرأة فيها أقل مساواة بين متساوين في الحقوق والواجبات. فـدولة الوحدة ليست غاية بحد ذاتها انها وسيلة لاسعاد هذه الجماهير التي طـال عذابها. ولسوف يكتب الشعراء اجمل قصائدهم. فأجمل القصائد هي القصائد التي لم تكتب بعد.

سلامة حجازي
(فلسطين)

قصة

العار

ظافر ناجي

كثيرا ما نعضّ الآخر فنكتشف لحظة الألم أنّنا لم ننهش سوى لحمنا

دفع الباب البلّوري الضّخم بكتفه وهو يلتفت إلى الوراء متابعا شابّة تبدو حديثة العهد بعقدها الثّالث.. حرّك رأسه وهو يردّد في أعماقه شعاره المعهود: «لا يغيضني جمال امرأة، لكن يستفزّني أن تكون من نصيب رجل غيري».

قاعة مركز البريد المكيفة تبدو رائحتها عفنة بسبب أعقاب السجائر التي ألقاها عشرات الموظّفين الّذين مرّوا من قبله وأحرقوا سجائرهم حتى الأعقاب وهم ينتظرون أدوارهم لاستلام أجورهم كي يقسموها بالتّساوي بين فواتير الماء والكهرباء ولوازم الأطفال وأصحاب المغازات ونادلي البارات وإدارات الضّرائب..

أخذ مكانه في ذيل الصفّ وهو يعدّ الّذين سبقوه... تسعة فقط... بعض الدّقائق ويكون المال في جيبه ثمّ يمضي إلى موعده مع صديقه صاحب الجلسات التي لا تمحوها خشونة الزمن الرّاكض على عقارب السّاعات والجاثم على جدران الذّاكرة..

موظفة قابعة وراء الحاجز البلّوريّ تكلّم زميلتها وهي تشير إلى بطنها المنتفخ.. أكيد أنّها تقول لها أنّ هذا الجنين جاء في غير وقته وأنّه خطأ في الحساب، أو أنّ فحولة زوجها لا توقفها الحبوب المانعة للحمل...

ـ تفضّل سيّدي... لدينا أعمال أخرى سنقوم بها.. بسرعة رجاء.. التفت إلى الموظف المسؤول على استخلاص الحوّالات في ضعة كأنّما يعتذر له عن

انفلات خياله... مدّ يده إلى جيبه وسحب الورقة.. دفعها من خلال الفتحة الصّغيرة إلى ما وراء الحاجز وظلّ يبحث عن بطاقة تعريفه القوميّة فيما الموظّف يحسب الأوراق الماليّة بطريقة آليّة مقيتة... أمضى على الورقة استلامه للمال المنصوص عليه في الحوّالة ثمّ استرجع بطاقة تعريفه ووضع المال في الجيب الدّاخليّ لسترته...

في الشارع كانت الرّؤوس متراصّة والعيون هائمة كأنّما هي تسير نحو اللاّهدف لكنّ شيئا ما مختف يأمرها بالمسير... الطّقس كان ربيعيّا تزيّنه أشعّة شمس أفريل الدّافئة المنعكسة على وريقات الأشجار التي تمتدّ على طول الرّصيف وكأنّما تسطّر معالم الطّريق.. سار إلى المقهى وهو يمنّي نفسه بليلة من ليالي البلاطات الاندلسيّة...

هكذا هو منذ حلّ بالعاصمة وأصبح طالبا في كليّة الهندسة، يظلّ طيلة عشرين يوم يبحث عمّن يؤمّن له مأكله وما إن تصله الحوّالة البريديّة حتّى يمضي إلى صديقه ليصرفاها في الحانات وعلى النّساء الرّخيصات دون أن يعتبر بما جرى له في الشّهر السابق..

حين وصل إلى مقهى «الجوكوندا» كانت القاعة شبه فارغة ولم يكن صديقه قد حضر بعدُ، فتح الغلاف البلاستكي لعلبة المارلبورو ثمّ مزّق الورقة الفضيّة وسحب سيجارته المفضّلة، قرّبها من عود الثقاب المشتعل وجذب نفسا طويلا نفثه على دفعات خرجت في شكل دوائر صاعدة إلى أعلى.. وأخذته الأفكار بعيدا.. «مسكينة أختي.. منذ توفّي أبي توقّفت عن الدّراسة لتعمل حتى تستطيع توفير مبلغ كاف كي أواصل دراستي العليا، بل إنّ المبلغ الذي تبعثه إليّ أكبر بكثير ممّا كان يوفّره لي أبي... ثمّ هي لا تريد أن تقول لي أين تشتغل... أعرف أنّها خجولة ولا تريد إهانتي بأن تصرّح لي بأنّها تشتغل في المنازل أو أنّها تغسل الصّحون والملاعق في أحد المطاعم الشعبيّة...».

انقطع به حبل التفكير والخيال عندما دقّ صديقه على كتفيه معلنا قدومه بطريقته المعهودة.. كانت عيناه تلتمعان..

ـ لقد وجدت لك ضالّتك.. إنّها لم تتجاوز العشرين بعدُ وهي ـ على حدّ قوله ـ جميلة جدّا، وهي جديدة في «السّوق» لذلك فانّ ثمنها غال نسبيّا..

بقي هناك مأخذ وحيد قد لا يعجبك وهو أنّها ترفض أن تكشف عن وجهها أمام حرفائها، لذلك فهي تفرض عليهم أن يدخلوا غرفتها وهي مطفأة الأنوار.. ما رأيك؟..

لم يفكّر طويلا في الأمر.. المال عنده الآن، وما ضرّ لو أنّها خبّأت وجهها.. سيكتشفها على ضوء خيوط الفجر الأولى وهي نائمة بعد ليلة مرهقة رغم متعتها..

ـ نعم..

هكذا أجاب دون أدنى تردّد.. ابتسم ابتسامته الماكرة وهو يضيف: ومن الآن إلى نزول اللّيل ماذا سنفعل؟

فأجابه صديقه بأكثر مكر:

ـ واضحة.. أوضح من الشّمس...

وقاما بعد أن منحا النّادل ثمن القهوة مع هبة سخيّة جدّا.. اتّخذا ركنا قصيّا في آخر الحانة، طلبا قوارير الجعة واشتريا بعض المقبّلات والفواكه الجافّة من الأطفال الذين جعلت الأقدار الحانات مصدرا لرزقهم ورزق ذويهم في أحيان كثيرة...

شربا بشهيّة مفرطة وبمرح شديد رغم رائحة البول النفّاذة التي تنبعث من المراحيض القريبة من طاولتهما.

شربا ولم تنحدر الشّمس إلاّ والطّاولة لم يبق فيها مكان لوضع قارورة جعة أخرى.. دفعا وعيونهما تلتمع وترقص في محاجرها تحت تأثير الكحول وهيجان الخيال الجامح الذي بدأ يستشرف آفاق أفراح اللّيلة التي لم تبدأ...

ولقتل ما تبقّى من الوقت تسكّعا طويلا في الشارع الرّئيسيّ يسترقان النّظر إلى تلميذات المعاهد الثانويّة وهنّ يلبسن آخر موضة ويتبخترن عائدات إلى منازلهنّ حالمات بفرسان على جياد بيض يردّدون على مسامعهنّ ما قاله شعراء العرب لحبيباتهنّ...

وحين نزل ستار الظّلام على الأحياء العتيقة تحرّكا نحو الرّصيف الأيمن حيث محطّة سيّارات الأجرة واتّجها نحو السيّارة الأولى...

صديقه فقط كان يعرف العنوان... أملاه على السّائق وهو ينزل بلّور النافذة حتى لا يكتشف رائحة الكحول المنبعثة من فمه.. واندفعت السيّارة تشقّ الشّوارع ثمّ الأنهج ثمّ الأزقّة لتتوقّف أمام مقهى شعبيّ يلفّه دخان النّراجيل المنتشرة بين الطّاولات.. دفع ثمن التّعريفة اللّيليّة بصمت ثمّ نزلا.. أشار عليه صديقه بأن ينتظره بعيدا عن باب المقهى ريثما يعود...

لم يلبث طويلا حتى عاد مصحوبا بكهل خشن المظهر يحمل في سلوكه وبين طيّات ملابسه وكلامه بصمات القوّادين التي لا تخفى، تبعهما تاركا

مسافة قصيرة تفصله عنهما... كان يمشيان بصمت وعند أوّل الزّقاق ألقى القوّاد بنظرة أخيرة وراءه ثمّ دقّ الباب ثلاثا قبل أن يفتحه...

كان السقف واطئا والممرّ معتّما، فقط ضوء خافت ينبعث من حجرة في آخر الممرّ وصوت جهاز تسجيل تنبعث منه أغنية شعبية مبتذلة وحزينة.. توقّفا فيما الكهل يتقدّم إلى الحجرة.

حين عاد كان يحمل معه طاولة صغيرة عليها زجاجة نبيذ رخيص وثلاثة كؤوس فارغة.. قرّب الكراسي من الطّاولة وقال في لهجة الآمر:

ـ اجلسا، سنشرب نخب صداقتنا.. ستعودان إلينا، أنا متأكّد من أنّ خدماتنا ترضي الحريف وتريحه.

بعد الانتهاء من الكأس التفت الصّديق إليه وأشار بأنّه بامكانه الذّهاب إلى الغرفة الأخرى أمّا هو فسيبقى يشرب مع ذاك الكهل..

قام.. لأوّل مرّة يشعر بكلّ هذا الخوف رغم أنّه كرّر نفس الفعلة لمرّات يصعب عليه إحصاؤها.

في مدخل الغرفة شعر بركبتيه ترتعشان وهو يسمع تنهيدة قادمة من الزّاوية اليمنى حيث يقبع الفراش كأنّه وحش خرافيّ يتحدّى الزّمان واللّيل في صمت.

كان العرق يندفع بين كلّ ثناياه وهو واقف على حافّة فراشها يتجرّد من ملابسه.. كان عرقا ثلجيا باردا في حجم العار الذي يحسّ به كلّما جرّته رغبته إلى النّوم مع امرأة لا يتذكّر قسمات وجهها ولا يجمعه وإيّاها ذاك الدّفء العارم..

صعد إلى الفراش واستلقى إلى جانبها... كان صدرها فقط يبدو ظلاّ يرتفع وينخفض على وتيرة غير منتظمة لكنّها متتابعة... قرّب يده من شعرها.. التصقت.. كانت دافئة كالحياة حينما تهرب من لحظات القدر المتربّصة بالفرح..

كانت صغيرة حتى إنّه ظلّ يتحسّس جسدها كاملا دون أدنى رغبة.. لقد انطفأت فيه تلك الرّغبة الخبيثة فكأنّما أحسّ أنّه يعرف هذه المرأة رغم أنّه لم يرها ولا حتى سمعها تتكلّم. كان يريد أن يحملها بين ضلوعه.. كان بحاجة إلى صدر امرأة دفء ظلّ يبحث عنه بين النساء على إختلاف ألوانهنّ كامل حياته.. شيء غريب هذا الاحساس الذي جعله يشعر بالرّغبة في البكاء في حضنها.. آه لو رأى حالته صديقه الذي يجلس في الخارج مع القوّاد...

تحرّكت برأسها نحوه ثمّ قالت في صوت خفيض:

ـ ألن تفعلها؟

وعادت إلى صمتها الجنائزيّ الذي يلفّ الغرفة الضيّقة فيغمرها برائحة غريبة..

ضمّـــها إليه، وحين تصـوّرت أنّـه مثل الآخريـن أجهش بالبكـاء وبين دموعه انسكبت كلماته:

ــ نمت مع عشرات النّســاء أبحث عن دفء لم أجده، فكنت أهـرب من نفسي إليهنّ.. أشتري منهنّ لحظـات النّسيـــان.. وأدفع لهنّ من عـرق أختي التي تشتغل من أجلي..

عندما أنهى جملتـه أحسّ بها تهرب بجسدها عن مرمى راحتـه.. كانت ترتعش كرموش النّـخيل ذات صبيحة عاصفة..

جذبها بشيء من القـوّة إلى صدره فاختلطـت دموعهما وأحسّ بالملـوحة تسري مع دمه حتّى قدميه..

لا يدري كم وقتا مضى وهو يحكي لها قصّـته منذ طفولته الأولى.. كان يحكي وهي ترتعش.. يحكي فتبكي.. يحكي فتنوح خانقة صوتها خوفا من القوّاد الذي يجلس في الخارج مترقّبا ثمن نذالته..

كان الظـلام حالكـا، واللّيلة توشك على الانتحـار عند عتبـات فجر غير عاديّ، وكان يواصل حكاية قصّة حياته عندما سمع حركة مريبة في الممرّ.. تـرقّب قليلا متوقّــفا عن الكـلام.. وحين تأكّـد مـن صحّـة مـا سمع أطلّ برأســه من فتحة البـاب.. وعلى خيط النّـور المندفع من الممرّ شاهـد ـ بين دفّتي الباب ـ وجـوها كثيرة كانت تتّجه نحو الغـرفة حيث هو.. ولم تمض غير ثوان إلاّ والشرطة تحاصر كامل المكان.. خرج بينهم يغمره العار.. كانوا يدفعونه إلى الأمام كحمار أحيل على التّقـاعد.. وحين وصل إلى باب السيّارة المصفّـحة هـزّه حنين جارف إليها فأنكر على نفسه أن يؤخـذ إلى السّـجن دون أن يرى حتّـى ملامح وجهها.. فكّــر.. سيبتسم لها ابتسامة تشدّ على قلبها الصغير لأنّــها كانـت رائعة معه.. التفت ليرى وجهها تحت فـانوس الشارع.. رفعت يـديها بسرعة حتى تغطّي ملامحها لكنّ تلك اللّحظـة كانت كافيـة ليسقط كلّ شيء وتتحوّل الـذّاكرة إلى خـراب... انكفأ على وجهه ولم ينم بعدها..

ليلتها لم يفهم شرطيّ واحد أنّـها لمْ تكن سوى أخته...

ظافـــر ناجـــي

شخصية العدد

لمحة عن حياة مصطفى الفارسي

- ولد في 26 ديسمبر 1931 بمدينة صفاقس.
- زاول تعلّمه الابتدائي بمدرسة الشباب القرآنية الى سنة 1945.
- زاول تعلّمه الثّانوي بمعهد الفتيان (الفرع التونسي) إلى جوان 1952.
- زاول تعلّمه العالي بجامعة السوربون بباريس من 1952 إلى 1956.

* أحرز إجازة في اللّغة والآداب العربيّة في جوان 1955.

* أحرز ديبلوم معهد الدراسات الاسلامية العليا في جوان 1956.

- من 1956 إلى 1959 : ملحق بديوان كاتب الدولة للأخبار.
- من 1959 إلى 1962 : رئيس مصلحة العلاقات الخارجيّة وقسم حقوق التاليف بالإذاعة والتلفزة التونسيّة.
- من 1962 إلى 1968 : رئيس مدير عام للشركة التونسية للانتاج والتنمية السينمائية ورئيس تحرير المجلّة المصوّرة الأسبوعية.
- من 1969 إلى 1970 : رئيس مساعد للجنة الثقافة القوميّة وكاهية مدير مصلحة الآداب بوزارة الشؤون الثّقافية.
- من 1970 إلى 1972 : مستشار لدى وزير الاخبار.
- من 1973 إلى 1975 : مسؤول عن مصلحة المسرح بوزارة الشؤون الثقافية.
- من 1975 إلى 1978 : مدير بكتابة الدولة للاعلام مكلف بالانتاج السينمائي وبوسائل الابلاغ السمعية البصرية.
- من 1978 إلى 1987 : مدير فمدير عام الآداب بوزارة الشؤون الثقافية ثم ملحق بديوان وزير الثقافة.

II - جوائز الانتاج الأدبي :

(أ) - احرز جائزة علي البلهوان للرواية بـ «المنعرج» 1965.

(ب) - أحرز جائزة علي البلهوان للمسرحية بـ «والفلين يحترف أيضا» سنة 1970.

(ج) - أحرز جائزة «لوتس» الأدبية لاتحاد كتاب آسيا وافريقيا سنة 1983.

(د) - أحرز الجائزة التقديرية للآداب لسنة 1992 يوم 93/2/6.

III - مؤلفاته :

(1) - «قصر الريح» مجموعة مسرحيات إذاعية نشر الشركة التونسية للتوزيع 1958 (S.N.E.D.).

(2) - «المنعرج» رواية قصصيّة أحرزت جائزة علي البلهوان سنة 1963 ونشرت من قبل دار النشر التونسية في سبع طبعات من 1965 إلى 1988.

(3) - «الفتنة» مسرحية أحرزت جائزة علي البلهوان سنة 1967 ونشرتها المكتبة الشرقية سنة 1969.

(4) - «القنطرة هي الحياة» مجموعة قصصيّة نشرتها الدار التونسية للنشر في ثلاث عشرة طبعة من 1966 الى 1992.

(5) - «سرقت القمر» مجموعة قصصيّة نشرتها الدار التونسية للنشر في اثنتي عشرة طبعة آخرها في سنة 1991.

(6) - «رستم بن زال» مسرحية مستوحاة من شاه نامة الفردوسي كتبها بالإشتراك مع التيجاني زليلة ونشرتها الشركة التونسية للتوزيع سنة 1973.

(7) - «الأخيار» مسرحية كتبها بالإشتراك مع التيجاني زليلة ونشرتها الدار التونسيّة للنشر سنة 1974 وقدّمت في افتتاح مهرجان قرطاج الدولي سنة 1975.

(8) - «حركات» رواية نشرتها الدار التونسيّة للنشر سنة 1978.

(9) - «الطوفان» مسرحية أحرزت جائزة المركز الدولي الثقافي بالحمامات وعرضت به في مهرجان 1969 ومثلت تونس في أول مهرجان ثقافي افريقي بالجزائر سنة 1970.

ونشرت في «سلسلة عيون المعاصرة» كتبها بالاشتراك مع التيجاني زليلة.

(10) - «البيادق» : مسرحية في جزئين (السنابل - الحصاد) طبع الدار التونسية للنشر سنة 1992 كتبها بالإشتراك مع زليلة.

(11) - «...والقلّين يحترق أيضا» مسرحية نشر الدار التونسية للنشر سنة 1976.

(12) - «سور الصين» مسرحية مقتبسة عن «الحصن المنيع» لماكس فريش نشرت في مجلة فضاءات مسرحية سنة 1985.

IV - متفرقـــات :

- متزوّج وله 5 أطفال (4 بنات وابن واحد).
- عضو مؤسس لاتحاد الإذاعات والتلفزات القومية الافريقية URTNA (1960).
- عضو مؤسس لاتحاد الكتاب التونسيّين وعضو بهيئته المديرة من سنة 1970 إلى سنة 1990.
- عضو مؤسّس لجمعية المؤلفين والملحنين التونسيين SODACT .
- عضو لجنة الثقافة والاعلام التابعة للحزب الاشتراكي الدستوري من 1975 إلى 1978.
- رئيس لجنة التفكير في المسالة الثقافية التابعة للتجمع الدستوري الديمقراطي سنة 91/1992.

«أنا أكتب...
لا أكثر ولا أقلّ»

مصطفى الفارسي



إذا كـــان من بين الكتاب مـن يحدث له أن يسائل نفسه عـن هُويته فأنــا ذلك الكـاتب إذ لا أنفكّ أراجـع النفس أسبر غـورهـا منــذ اكثـر من خمسـة وأربعين عـامـا قضيتها معنا فكرا أو بحثا أو نظرا أحـاول ان ارسم مـلامح خَطّتهـا التجارب العديدة وامحت من الذاكرة بسبب تلاحق الأحـداث على مرّ الـزمن. فهي كأطـلال قصـور كـانت فيما مضى شـامخة آهلـة لا تشهد اليـوم بما كـان يجري فيهـا الآ بمقدار.

ها أنـا اليوم وقد نـاهزت الستين من العمر مـا زلت دائم الحيرة من أمر الصبيّ الذي كنـت والشاب الذي كنت والكهـل الذي كنت بالأمـس القريب، كيف نشـأ في بيئـة لم تكن لتؤهّلـه قطعا لممارسـة حرفـة الكتابـة وصناعة الكلام وممـارسة الابـداع لكن أرادت الصدف أن تقذف بـه فيها قـذفا كما دفعته الاقدار من قبل الى الحياة دفعا دون سابق انذار وعن غير اختيار.



وان كل ما كتبته من قصص وروايات ومسرحيات وقصائد شعرية أو مُرسلة ومقالات ودراسات وكذلك كلّ الهوايات التي مارستها في كثير من ضروب الفكر والفنّ معا... كلّ ذلك يعبّر بما فيه الكفاية عن تلك الحيرة التي أنعتها بالفاضلة - تبرّكا وتفاؤلا - والتي انطلقت من ذاك التساؤل الوجودي بالذات، فهي نابعة منه ناتجة عنه في آن... ضرب من السعي الدائب الى استكمال الوجود الذي يظل منقوصا دائما مبتورا الى حين...

وتبرز من حين إلى حين، على جانبَيْ الطريق الطويلة التي سلكتها طفلا ثمّ شابا ثم كهلا وما زلت اسلكها وأسير عليها وقد بلغت من العمر بعضا من العتي، صور وأصوات وايقاعات أحاول ضبط دقائقها في سطور فتتمنّع ولا أصيب منها سوى أشلاء من الذكريات الباهتة كانت عند وقوع الحدث الذي ارتبطت به في الزمان وفي المكان حيّة تهزّ المشاعر هزّا - من السعادة أو من الويل لكنها فقدت اليوم وجهها فلم تعد سوى ظل لنفسها ومجرّد حافز يدعوني الى الحنين أو الاعتبار أو التندّر أو الاستنكار وكأني لم أعشها قط ولم أكن عنصرا فاعلا فيها أو مرمًى استهدف لها في يوم من أيام العمر... من طرف ما وفي مكان ما.

لذلك تراني لا أتورّط في لجاج تنظير المعجبين ولا تتداخلني غرّة المنتحلين كما يقول شيخنا الجاحظ ممن «انتحلوا الحكمة وليسوا من أهلها، فقامت عليهم الحجّة بما نحلوه أنفسهم من اسمها وسلبوه من فهم عظيم

قدرها ومعرفة جليل خطرها ولم يجلُوا الرَّيْنَ عن قلوبهم والصدأ عن اسماعهم بالتنقيب والبحث والتكلّف».

فلا انتمي لمذهب في الكتابة بعينه ولا أعتنق طريقة بذاتها فأقحمَ نفسي في زمرة اعلام الدعوى وحلفاء الجهالة واتباع الخطل وشيع الضلالة باعتبار ان الكاتب الحق يجب أن يَنصبَ في عقله لنفسه اصلا يبني عليه ويعتمد في اعتقاده عليه ويرجع عند الحيرة في اختلاف الآراء اليه.

لذلك ـ وان حُشرت في زمرة الأدباء الواقعين ـ لا استطيب كثيرا ادب «الواقعية الاشتراكية» قراءة او كتابة لاعتقاد راسخ فيّ ان من الواقع ما يخالطه الزيف كما لا أميل إلى الأدب الرومنطيقي الابتداعي الصرف او الأدب الكلاسيكي الاتباعي المحض أو إلى صنف من أصناف الأدب المتمشرق أو المتمغرب إذا كان متمذهبا متبوتقا مشطا في الانتمائية والمذهبية تابعا. إذ الحياة في نظري وبالتالي الواقع المعيش ـ خليط من هذا وذاك لا تنطبق عليه قاعدة مسبّقة ولا يؤطره اطار ولا تقهره أيّة جدانوفية مسلطة عليه من فوق والأدب كالسحر شعوذة او لا يكون.

وما دمت غير مطالب ككاتب بأن أنقل الواقع نقلا فوتوغرافيا أمينا كما يفعل الصحفي الموثّق للأحداث فإني أرخي العنان للخيال يفعل فعله في الواقع ـ الوثيقة والمرجع ـ منطلقا منه منحرفا عن جادته غير متقيد به مُتأطر في حدوده، فهو عندي واقع جديد يمتزج بأخيلة الماضي وبتطلعات المستقبل متأثرا في ذلك بالرموز والاساطير والايماءات والاشارات والكنايات التي يفرضها عليّ فنّ القص أو الرواية او المسرحية منصاعا الى مزاج الساعة مستمعا الى نبضات المناخ المحيط، فليس بين الواقع المعيش وواقعي أنا كفنان الا وجه شبه بعيد.

وليس في نيتي أو في عزمي أن أفرض على الناس رأيا أو قولا ومن باب أولى وأحرى أن ألقّنهم دروسا في السلوك أو أصولا لمبدإ أو مذهب أو منهج، إذ لست نبيّا ولا رسولاً ولا كاهنا ولا منجما وإنما أقْصد من وراء ما اكتسبه الى التعرّف أكثر فأكثر على نفسي وإلى اكتشاف شيء ما أعرف أني أجهله واني باحث عنه ساع اليه طالما حييتُ واني مُفن العمر في التنقيب عنه اذ لا تهمّني حصيلة السعي بقدر ما يهمّني السعيُ في حدّ ذاته.

أنا أكتب... وسواء عندي أأنصفني أو لم ينصفني المعاصرون، لأني أعلم أن التاريخ الأدبي خير المنتقين.

مصطفى الفارسي

أسئلة وخواطر

مع مصطفى الفارسي

○ كيف تقيّم مسيرتك ؟

* في النصف الأول من عمره ترى الإنسان يخترق الحياة اختراقا وفي النصف الثاني من الوجود تراه يجلس على عتبة منزله لينظر إلى الحياة وهي تسير وفي عينيه الواجمتين غم عظيم. الأمل في أن ينصف الزمان ما تقدّم من أعماله وما تاخر لم ينفك يحيّره ويذكي فضوله. هو يعلم علم اليقين أن الزمان هو صاحب القول الفصل في نهاية الأمر إذ هو الذي يقيّم الاعمال يزنها بميزان، لكنه لا ينفك يتساءل عن السبب الذي يجعل الانسان ينتظر إصدار حكم الزمان في مستقبل غير محدّد بينما هو يصدره من الآن، في كل حين؟ يكفي أن نروّض النفس على الكشف عن الاسباب التي بموجبها يستقبل الزمان بعضنا بحفاوة بالغة وإكبار وإكرام بينما نراه يقاوم البعض بشدّة وأحيانا بعنف وقساوة.

○ كيف تقيّم مؤلّفاتك ؟

* لا تسالني عن مؤلفاتي إذ ليس باستطاعتي باي حال من الاحوال أن أصدُقك بشانها لأن الشيء الوحيد الذي أعرفه عنها هو انها أُلفتْ لسبب ما لتعبّر عن مقصدها. اقرأها... حاول أن تسبر أغوارها، الق بها أرضا، افعل بها ما تريد... لكن لا تطلب مني أي تقييم لها.. وما يمكنني أن أقول؟ وهل باستطاعتي أن افسرّ ذاك

الذهول الذي يعتريني بسببها وتلك الحيرة التي لا تنفك تلك المؤلفات تنفثها في صدري؟

ما يمكنني أن أقول؟ إني أشعر أحيانا ان كتبا كثيرة لم تكتب بعد تعمر نفسي وتملأ جوانحي الى العنق. وكنت في البداية أطمئن نفسي واعتبر اني محمّلٌ بأفكار قد يعبرّ عنها غيري ويلقي بها على الورق واقول في نفسي خيرا يفعل هذا الكاتب الذي قد يقدم على تدوين أفكاري فانا لن أكتب سوى تلك الكتب التي لن يُكتب لها أن تنجز بدوني... كنت أقول ذلك دائما إلى أن جاء يوم فهمت فيه أن حياة بشرية عادية الطول لا تكفيني لانجاز مجرّد الافكار التي يقع عليها اختياري من بين العديد من الافكار التي أطرحها من حسابي، ولم يكن لي من سبب يخوّلني حق الأمل في أن اعمّر طويلا ثم لا يجدر بي أن انسى ما يعن لي من الافكار الجديدة التي لا تنفك تتزاحم في رأسي. فانا كمثل الحمار الذي مات جوعا وهو بين كومتين من التبن لا لشيء سوى أنه لم يستطع ان يختار الكومة التي عليه أن يقضمها مع اني لست في واقع الأمر كذلك الحمار تماما لأني في فترات الضيق وفي الأزمات الحادة اكتب نصوصا خفيفة كهذه التي انا بصدد كتابتها والتي من شانها أن تسمح لي بانقاذ شيء ما من أفكاري.

○ ما هو جوهر تجاربك الفنية وابداعك ؟

* اعترف بإني رجل سريع التصديق ميقان لا أمعن نظرا ولا انتظر استدلالا. إذا قال لي أحد أنه عبقري أصدقه ولا أطالبه بحجة وكذلك إذا ادّعى آخر أنه غبي غباء أي حمار فانا أصدقه دون تردد. تلك طبيعة في تأصلت في الذات لا تبرحني... ميقان مدمن إذا شئت... حتى إذا قال لي ثالث أنه عنقاء أو أي طائر خرافي نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل حصان فأنا مجبر على تصديقه والتسليم بانه براق. ولم لا... كل شيء ممكن وليس من سبب يجعلني أشك في صحة ما يقول هذا أو ذاك. بالعكس.. فتصديقي لهم جميعا يساعدني على أن افهمهم أكثر وأقترب منهم أكثر.

وأن موقفي ذاك من الناس جعلني دائم الحيرة من احتراز بعضهم من تجاربي وبحوثي الفنية أو الأدبية وفي ميدان الإبداع عموما. فهؤلاء يعتقدون من دون شك اني أريد أن أظهر بمظهر من يخالف ليُعرف أو من يدّعي في العلم فلسفة ويريد فرض ذكائه وسداد رأيه على الناس أو من يسمح لنفسه بترك العنان لهوسه وخبله ليوهم البشر بانه فنان. بينما الحقيقة غير ذلك تماما. والشكوك التي تحوم حولي لا مبرّر لها ولا تخضع لمنطق إذ ما من أحد يختار عنوة وبكامل المدارك العقلية أن يكون عرضة للشبهات ومثارا للشكوك لا لشيء سوى أن يتزيّى بزي غيره ويقحم نفسه في موضع لا يليق به أو من شانه أن يلحق به الضرر.فتجاربي الفنية واختياراتي الابداعية هي انعكاسات لحالات نفسية معيّنةفهي بمثابة وجهي في المرآة وكثيرا ما تسكنني هواجس التجريب ونبضات الابداع فإذا أنا ألقي بنفسي في المغامرة الابداعية في معترك جماليات كوننا الجميل والمدلهمّ في نفس الوقت، الرائق والمكتنف بالضباب في آن والذي انا نُطفة حقيرة منه وجزيء صغير

من جدليته الفريدة.

لست أدري في الواقع إلى أي نقطة ينتهي بي المطاف...إلى أي نتيجة ساصل وهل ستكلل تجربتي بالنجاح أو تفشل فشلا ذريعا.... وهل اعلم الآن هل استحق فعلا أن أعتبر مبدعا وأحرز من أجل ذلك الشهرة والتكريم والاحترام. هل نجحت فيما قصدت إليه وهل بلغت؟ المهم في حقيقة الامر هو أن الحيرة الفاضلة التي تعتريني بسبب بحثي الدائب عن مطابقة نفسي مع نفسي وتوافق بعضي ببعضي هو ما اخترت من سبيل لما تبقى من عمري إذا كان في العمر بقية وفي الدلو من نطافة.

اليوم وبينما كنت اتفسح في منتزه الحرية ـــ التي كدت أفقد طعمها طوال احقاب متعاقبة ـــ شعرت فجاة ودون سابق إضمار أن أولائك الذين يكيلون لي الشتائم ويرمونني بشتى الأثالب بسبب ما أكتبه من حين لآخر هم أبعد ما يكونون عن الاطلاع على خفايا ما بنفسي من توق إلى تحقيق المستحيل ومن شعور فياض بجدوى المغامرة الابداعية. هم يجهلون ذلك وما ذنب من يجهل؟ لا يحق لي أن أعيبهم بما لا يعرفون بل أنا أشعر نحوهم بالعطف وكثير من التسامح. وذلك مني ـــ في الحقيقة ـــ خير مؤشر على أني أقحمتهم في اتساقي الجمالي مع الكون وإنسياقي الاختياري للكثير من أحكامه وأوامره ونواهيه.

○ موقعك من استعمال العاميّة ومن الشعر الحر ؟

* من قال : إن فضائلنا ليست في أغلب الحالات سوى نقائص متسترّة هو ولا شك على حق وإلاّ كيف نفسرّ نجاح الكثير من الحكم الأخلاقية التي وصلت إلينا عبر الأزمان؟

فيما يتصل بي شخصيا، أقول ان مشاعري نحو الكثير من الناس لا تتصف بإعجاب أو قرف أو تسامح مفرط إلى حد التنازل بل هي من قبيل الفضول اللامتناهي. أما مشاعر الناس نحوي فانا أجهلها إذا لم أقل إني اتجاهلها ولا أقيم لها وزنا قطّ.

افيكون ذلك مني موقفا في الحياة هو ضرب من النقائص المعلنة أو المتسترة؟ ليس لدي من الوقت ما أصرفه من التعمّق في إيجابية أو سلبية هذا الموقف. ذلك أن بعض الناس يعيبونني بان خيّبتُ آمالهم في بسبب سلوكي في الأدب مسالك لا يرضون عنها أو هي لم تجد هوى في أنفسهم. وأنا أفهم موقفهم واقدّر ظروفهم لكن كنت انتظر منهم تفهما مماثلا لموقفي وظروفي خاصة وقد حدث ان فوجئت أنا نفسي من بعض تصرفاتي وخيّبتُ بعض آمالي فما بالك بالآمال التي علقها عليّ بعض زملائي أو أصدقائي.

من المواقف التي يعتبرها بعضهم متحجرة ويعاتبني عليها موقفان صريحان من اللهجة العامية وممّا ينعت بالشعر ولا يخضع للتفعيلة. وإن احترامي للغة العربية وتسليمي بعبقريتها ليمليان عليّ الدفاع عنها كلغة حضارة علينا اغناؤها وتطعيمها عن طريق الاحتكاك بغيرها من اللغات الحية مع وجوب الحفاظ على أصالتها التي لا نعتقد انها تتنافى قطعا مع متطلبات العصر ومقتضيات الحداثة كما يمليان عليّ حمايتها من العبث والسفساف وكل هُجين وهش ودخيل.

وفي اعتقادي أن الشعر العربي الذي هو ديوان العرب وبمثابة الفرس الأصيل في الأدب العربي لا يتحمّل كما يتحمّل الشعر الفرنسي أو الانكليزي التخلي عن التفعيلة أيا كانت خليليّة أو محدثة مبتكرة، يكفي أن تعتمد الوزن والإيقاع. أما دون ذلك فلنسمّه قصيدة نثرية أو نثرا شعريا لكن لا يجدر بنا أن نطلق عليه نعت الشعر لا لشيء سوى اننا نحاذي فيه غربا ما انفككنا نمقته ونقدّسه في آن. ولنعلم أن لكل لغة عبقريتها وأن من فقد لغته فقد بعضا من ذاته وأن هوية العربي في لغته بالأساس. فاللغة الفرنسية مثلا هي اليوم غير اللغة التي كتب فيها «كرستيان دي تروا» في القرن الحادي عشر روايته المشهورة «إيراك واينيد» (Erec et Enide) أما المعلقات فلم تزل تردّد في عصرنا كما نطق بها أصحابها دون تحريف أو تخفيف أو اختزال رغم تعاقب القرون وتصرفات الزمان.

هذا بالنسبة إلى الشعر أما ما يتعلق باستعمال اللهجات الدارجة في أدبنا العربي المعاصر وخاصة في المسرح عملا بالمقولة المفتعلة التي لا تعتمد أية حجة أو برهان «خاطب الناس بما يفهمون» فانا اعتبر ان الدعوة الملحاحة الى الكلام الدارج تنبني على مغالطة ذكّاها في نفوسنا المستعمرون في فترة أولى ليفرّقوا بيننا ويسودوا كما ساندها بعض الجامعيين ممن دعوا إلى الماركسية في فترة لاحقة وفي مطلع استقلال اقطارنا بعنوان الفكر الاممي الذي يعادي القومية والوحدة العربية بالأساس مما فتح الباب على مصراعيه لشبابنا الذي لم يتمكن بعد من أدواته التعبيرية الفصيحة والبليغة والفاعلة فظل يخبط في ما سمّاه بالشعر الحرّ خبط عشواء دون أن يظفر منه باي طائل. لأن موقفه مغلوط من الأساس ولأن الحرية التي يعتقد أنها تسمح له بخوض غمار فن من اعسر فنون التعبير ممارسة على الإطلاق كالشعر ليست سوى فوضى لا تسمن ولا تغني من جوع، كلام كلام كالامواج المتلاطمة لا ينجو من ويلها غريق. وكم غرق في يمّها من مغرور!!

○ كيف ترى الخلود الأدبي ؟

* هناك من خاض غمار الأدب بمجموعة من الآثار كتبت له الشهرة حيّا والخلود بعد مماته. وهناك من عرف بكتاب واحد فريد من نوعه أو حتى بمجرّد أقصوصة أو بمجرّد قصيد أو حكمة واحدة.. لكن غياب من غابوا عن ساحة الإبداع هو الغياب بكل ما في هذه الكلمة من معنى...

○ أنت والجائزة التقديرية ؟

* الكاتب الضعيف كثيرا ما يشعر بالغيرة من النجاح الذي يتوّج أعمال غيره من الكتاب والكاتب الصناع ذو الموهبة والمقدرة كثيرا ما يتميّز شعوره بالحسد أما العبقري الأصيل فإنه يحيي ذلك النجاح ويستقبله بكامل الغبطة والارتياح. هذه حقائق نسلم بها جميعا لكن هل ساعدنا ذلك على التخلص نهائيا من داء الحقد.. والعياذ باش؟ لكن دعنا نطمئن النفس على كل حال بالقول المأثور، الحسود لا يسود ابدا. وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

○ ما هو دور الكاتب في المجتمع؟

* إن ما يميز المبدع المتمكن من فنه هما شرطان اساسيان : النبوغ والشخصية الفذّة فبهما بامكانه أن يرسم ملامح ابطاله ويرسم في نفس الوقت ملامحه بالذات من خلال موقفه من مجتمعه ومن عصره ومن خلال اختياراته الاخلاقية التي تملي عليه طرح مشكلية ما أو غض البصر عنها وحتى من خلال نظرته الخاصة الى فن القص. من ذلك تبرز تساؤلاته عن وجوب الخضوع الى الاعتبارات العرضية الظرفية أو الامتثال الى منطق المنّة الإلاهية، أو عن نجاعة الاكتشافات الفنية التي تحصل له بالرغم عن الضحالة المنظمة والرتابة السائدة في عصره، أو عن جدوى الوقوف في وجه القوى الظلامية التي قد تطحنه وترديه باسم القدر أو المقدسات أو المحرمات. والضرورات كما نعلم تبيح المحضورات لذلك نرى الكاتب يتابع مساره ممزقا بين متناقضات الحياة المعيشة ونمط الحياة الذي يبتكره هو فيرضي بمواقفه البعض ويجلب سخط الآخرين وهو في كل الحالات يظل لغزا بالنسّبة إلى الجمهور الواسع عسير السبر بعيد الغور عرضة للشك والاتهام.

هكذا يبدع الكاتب مصنّفاته لبنة لبنة على مرأى ومسمع من الناس فينجح أو يفشل وقد تجود قريحته بالعديد من المؤلفات وقد يقتصر على تاليف كتاب واحد يجمع فيه خلاصة أفكاره ولله في المبدعين شؤون.

المهمّ أن نعلم ان الخطر لا يكمن في أن بعض الافكار قد تظل غائبة من حقائق الاشياء وملابسات الحياة بل أننا لا نشعر بضرورة أن نعرضها ونتبسّط فيها مع العلم بأن الديون الفكرية لا تسدّد أقساطا ولا تقبل تخفيضا أو إسقاط أي قسم منها.

○ الفن والإبداع والبعد الإنساني ؟

* أرض الله واسعة فلاها، تلك حقيقة لا بدّ من الاعتراف بها وتذكّرها من حين لآخر إذ من العار أن نعلم أن مليارات البشر يتساكنون على كوكبنا الأرضي العريض دون أن يعرف بعضهم البعض وأن يتعاطف بعضهم مع بعض.

كثيرا ما تقلع بي الطائرة من موسكو أو برلين أو صوفيا في اتجاه الشرق الاقصى فإذا بي بعد ساعات معدودات أحلق في أجواء أطل من عليائها على أراض قصية لا تخترقها سكّة حديدية أو طريق معبدة. صحار شاسعة جرداء تبرز على سطحها هنا وهناك «كباقي الوشم في ظاهر اليد» كما يقول الشاعر وواحات خضراء يعمرها بشر لا نعلم عنهم شيئا وقد لا نجد لمقامهم نقطة سوداء على الخارطة. في أيام الصحو يطيب لبعض ربابين السفن الطائرة أن يمتّعوا انظار المسافرين بمشاهد الطبيعة المترامية الأطراف تحت «أقدامهم» — إذا سمح لنا أن نتحدث هنا عن أقدام - فتهبط بهم الطائرة قليلا ليتمكنوا من الإشراف على مدينة ما أو قرية جبلية أو خيام منصوبة على ضفة نهر أو بحيرة أو حتى بركة ماء. نحن نحلق الآن على مقربة من «خاباروفسك» بسيبيريا أو على بعد مائة كيلومتر من «شيتا» الصينية. أو فوق سباسب «كيرغيزيا» أو مزارع قطن «أوزبيكستان»

وإذا بنا في سماء قرية اجتمع متساكنوها في ساحة تبدو بيضاء كأنهم سرب من النمل في قصعة صغيرة، أو هم تشتتوا هناك نتفا نتفا في حقول الرز وأرجلهم في الماء أو سيقانهم حتى الركب في الوحل في انهماك شديد. ويمكنك أن ترى الشيوخ وهم يتشمسون أمام أكواخ الخص مختلفة الاشكال والاحجام أو الاطفال وهم يتسابقون مع الكلاب أو يتراكضون فوق الجياد. هم جميعا شيبا وشبابا رجالا ونساء منشغلون منصرفون الى شؤونهم وهمومهم اليومية وكأنهم في غفلة تامة عما يجري في العالم من أحداث لاعتقادهم انهم كبد الارض وان الارض في قبضة أيديهم. لم يكن باستطاعتي — بطبيعة الحال — ان اطّلع عن كثب على ما يجول بخاطرهم أو على ما يقولون ويفعلون بالضبط إذ لم أكن سوى عابر سبيل يمر كحمام الزاجل فوق رؤوس البشر في سرعة لا تسمح له بامعان النظر لكن ما كنت أشاهده لم يكن من قبيل التخمين أو من صنع الخيال ولست أقول في هؤلاء الناس قولتي بالحدس ومجرّد الظن، اذ لا شيء يحدث بمجرد الامنية التي تقع في النفس لذلك ربطت ما كنت أرقبه من شرفتي بذكريات طفولتي في مركز «كعنيش» بضاحية صغيرة جدا من ضواحي مدينة صفاقس وفي فترة من فترات الحرب العالمية الثانية سنة 1943 على وجه التحديد، عندما هجرنا المدينة لسنة كاملة والتحقنا بالاجنّة المحيطة بها لا نلوي على شيء أو على أحد. كان الناس في «مركزنا» ذاك منهمكين في البحث عن لقمة العيش لا يفكرون في شيء سوى ما يتصل بهم مباشرة وبحياتهم اليومية لا غير. كانوا منطوين على انفسهم منزوين في عالمهم.. كانوا فعلا شرّة الدنيا باسرها. لم يتبدل شيء في واقع الامر.. الشمس هي الشمس والبشر البشر. القدماء كانوا يختلفون عنا بعض الشيء وبمقدار بسيط إذ لا بدّ من التسليم بانهم كانوا على شبه كبير بنا في أكثر من مجال وأكثر من حال إذا لم نقل أننا نحن الذين نماثلهم وما أشبه اللاحق بالسابق كما يقول المثل. في الأمر تطابق وتوافق على كل حال.

كنت غارقا في مثل هذه التأملات وأنا انظر من كوّتي الى الأرض تحتي عندما ابتعدت الطائرة بي عن تلك القرية الصينية القصية المنسية على صفحة الخارطة الارضية والغائبة تماما عن ذاكرة الآلهة جميعا، قرية لم البث أن محوتها أنا نفسي من ذاكرتي محو الريح سحابة الصيف.

لكن ها هي الذكرى تعود بي الى هذه القرية المنسية وإلى أهلها الطيبين فاكتشف في ذعر شديد إني ما زلت جاهلا بخفايا الكون مذنبا في حق الانسانية واكتشف بالخصوص حقيقة سرمدية أشار إليها «ليون تولستوي» وهي تتمثل في أن الفن إذا كان له معنى ففي توقه الدائب إلى توحيد البشر. ولا يضحكن مني القارىء إذا أنا جزمت أن هذا الراي وجد لديّ تجسيدا وحجّة دامغة في ملاحظاتي المتصلة بحياة الأثر الابداعي شعرا كان أو نثرا.

ذلك أن القصيدة مثلا بحسب الموقع الذي انشئت فيه تبرز في أشكال عدة أقانيم. فهي في البداية مسودة ثم تصبح مخطوطة واضحة الملامح ثم هي إذا طبعت تتخذ شكل مسودة طبع ثم مسودة مبيّضة قابلة للسحب والاستنساخ وبعد ذلك تصبح كتابا يطلع على الناس ويقرأ. فهي في كل هذه المراحل تتخذ أشكالا مختلفة وعندما تصل إلى المرحلة الأخيرة، مرحلة الكتاب المطبوع، تفقد في

نظري بعضا من ذاتها. كذلك عندما تُقرأ على العموم بصوت عال لا تكون هي القصيدة التي تهمس همسا من قبل قارىء متمهل ذوّاق فإن ذاك القارىء الذي كان اسم معنى وضربا من التجريد يعطيها وجها يختاره لها فإذا هي تعيش حياتها الخاصة بمعزل عن مبدعها الذي لا بدّ أن يسلّم في النهاية بأن افكاره كابنائه تماما هم من نفس طينته ومعدن تكوينه، لهم ما له من حقوق وبذلك يقترب منهم أكثر ويصبح يحبهم أكثر.

وليعلمن المبدع أن كتبه إذا طبعت أو راجت آثاره الابداعية بين الناس يكون سبق السيف العذل وليس من مجال للتلافي والتدارك. ويصبح الأثر ملكا مشاعا بين الناس ولم يعد بامكان صاحبه سوى أن يمتنّ لذلك ويسعد به.

○ عودة إلى الشعر.... إلى أين يقصد الشعر العربي المعاصر؟ وهل لا بدّ للشعر أن يكون معقدا ويغرب في الغموض والابهام. أو هل يحسن به أن يكون سهل التناول قريبا من عامة الناس؟ اسئلة كهذه تطرح اليوم على الساحة الأدبية وتجدر الإجابة عنها بكل وضوح.

* في رأيي - ولا يمكن أن يكون إلا ذاتيا لأنه رأي قارىء لا ناقد مختص - إني كمتلق غير مطالب بالبحث عما كان يجدر أن يكون عليه القصيد لو نجح صاحبه في صياغته بما يتطابق مع مشروعه الذي كان سببا في بعثه ومحاولة عرض الاسباب التي حالت دون بلوغ تلك الغاية. هذا النوع من الاكتشاف هو من اختصاص الناقد وهو مبعث لزهوه وسعادته. أما القارىء فله حسّ مباشر إذا لم نقل لذّة مباشرة بالقصيد هي أشبه ما تكون بلذة الشاعر وأقرب ما تكون إلى حسه في لحظة خلق القصيد، المبدع والقارىء يلتقيان فعلا دون وساطة عندما يكون الشعر في متناول الناس واضحا وسهلا ولا يمنع ذلك من أن يثير الشعر عوالم من المشاعر ومن الافكار التي لا تخلو من تعقيد.

هذان القوسان سيسمحان لي ان اعرض لما يبرر موقفي من بعض الشعر العربي الحديث.

الشعر الذي نقرأه في أيامنا «أدبي» إلى حد الافراط «جمالي» إلى حد الهوس، الافكار فيه على جانب كبير من البساطة بينما وسائل التعبير عنها مغربة في التعقيد والتعجيز. وفي رأيي أن اللغة الشعرية المعبّرة والطيّعة في آن لا تتوفر سوى للشعراء الذين تجاوزوا عقبة النضوج واكتمال النموّ وباتوا يحيون فترة ثانية من الشباب تتمثل في اقنوم جديد. وقد تكون تآليفهم الاولى جذابة وعذبة وسلسة لكنهم لا يبلغون الكمال الفني الا في غسق الحياة. عندها فقط تكتسب فكرة القصيد عمقا خاصا ورونقا فريدا. ذاك هو ما عبّر عنه قدماء اللغويين بالسهل الممتنع وهو لا يحصل الا بعد سنوات طويلة ومضنية من المجهود المتواصل المهيء لبزوغ شموس الفرح ولألاء أقمار السعادة التي لا مثيل لها الا في لحظات الابداع والحلول. وقليل مما نقرأ اليوم من الشعر ما يذكّر بحلول ماء الورد في الورد أو تغليب اللاهوت على الناسوت أو ذوبان الاجسام في الاحياز أو

حتى بحلول الماء في الكوز. ذلك اننا بين متطفل على الشعر غير قادر على ربط كلمة بكلمة بكل بساطة أو تلقائية أو عفوية وبين من لا تسكنه الرغبة في تعقيد العبارة الشعرية خدمة لغرض شعري ما لا مناص من إبرازه... كثير هم من حشروا أنفسهم في الصنف الأول وقليل من ينتمون عن جدارة إلى الصنف الثاني من الشعراء.

ونعلم أن الشعر عسير المرتقى، من زلت به القدم وهو على سلّمه هلك. ذلك أن للشعر لغته الخاصة به واللائقة بمنزلته بين الفنون التعبيرية الأخرى. وفي اعتقادي أن اللغة الفلسفية في الشعر لم تكن قط لغة خاصة أو بليغة، لكن هذا لا يمنع من تطعيم الشعر بالفكر الفلسفي إذا نحن تحاشينا استعمال الكلمات العلمية والتعابير الفلسفية الجافة فللكلام وظيفة وله معان قد تختلف عن التصور الذهني الكامن في داخله، لذلك وجب ان نحتاط في استعمال الكلمات المناسبة للدلالات التي نريد أن نعبرّ عنها في القصيدة لأن الشعر هو فنّ تنضيد الكلمات بطريقة تجعل بعضها تشعّ بمجرّد تقريبها أو إبعادها عن الكلمات الأخرى. ولا يكفي قطعا إن نكوّم الصور بعضها فوق بعض أو نقحم الاصطلاحات الفلسفية أو العلمية أو المهنية في رتابة مضنية ثم ندّعي في الشعر ابتكارا أو تجديدا أو مسايرة للحداثة.

إذ لا يجدر بنا أن ننسى ان الشاعر الخالد «بوشكين» ساوى بين الشاعر والنبي وان الشابي أيضا نعت نفسه بالنبي المجهول. وذاك في نظري ما يحمّل الشاعر الحق مسؤولية تاريخية لا بدّ أن يكون جديرا بتحملها بكامل القدرة والكفاءة لا بالارتجال والهوس وتضليل الناس وركوب المطايا الطيعة الذليلة.

ـ المسار ـ



« البدويّة في العين » : لوحة لمصطفى الفارسي

مصطفى الفارسي :

بيبليوغرافيا*

إعداد : جلول عزّونة

المحتـــوى :

(1)استجوابات وبعض التسجيلات الإذاعيّة وحوارات وحفلات تكريم اقيمت له
(2) مقالات متنوعة للفارسي.
(3) استجوابات قام بها الفارسي وبعض آرائه في بعض الأعلام.
(4) بعض آرائه وأقواله.
(5) الجوائز التي تحصّل عليها.
(6) أشعاره.
(7) المؤلّفات المسرحيّة.
(8) الانتاج القصصي والروائي.
(9) بعض آراء النقاد فيه.
(10) مراجع عامّة عنه.

> «الكتابة ولادة بعد مخاض... ومن لم يعش عذاب الكتابة لا يمكن أن يكون كاتبا».
>
> مصطفى الفارسي

* هذه البيبليوغرافيا ليست كاملة، ويمكن إغناؤها، خصوصًا ومصطفى الفارسي يواصل العطاء والكتابة.

استجوابات وبعض التسجيلات الإذاعية وحوارات

(1) رجل ورسالة، مع القصّاص مصطفى الفارسي، أجرى الحوار أحمد القديدي. العمل الثقافي، الجمعة 23 أفريل 1971، ص 4 (مع صورة).
(أنظر كـذلك العمل 23 أوت 1971)؟ وقصص 19 أفـريل 1971، ص 63 إلى 75 وL'Action 26/8/72.
(2) فنجـان شاي مع الفـارسي، عبـد القادر نصر يسال، بـلادي الثقـافية: عـدد 1 جانفي 1977، ص 26 و27 (مع صورتين).
(3) «عتاب مغـربنا على مشرقنـا» الفارسي يتحـدّث عن تجنّي المشارقـة على أدباء المغرب، مجلّة الدوحة (قطر) سبتمبر 1978، أجرى المقابلة محمد جابر الأنصاري.
(4) Dialogue N° 196 - 3 Juin 1978.
(5) استجواب بمناسبـة عيد ميلاده الخمسين، أجراه كمال العـريف، مجلّة الإذاعة والتلفزة التونسيّة عدد 516، السبت 26 ديسمبر 1981.
(6) «La littérature tunisienne commence à briller sous d'autres cieux» - Propos recueillis par Ridha Kéfi (Fersi, lauréat du Pris Lotus International) - Le Temps, 1983, P. 9.
(7) «دور الأديب فعّـال في الـدفاع عن السـلام العـالمي» (بعـد عودتـه من رحلـة طويلة) ـ الصباح، سبتمبر 1983.
(8) «الجائزة إنّما أسنـدت في الـواقع إلى كلّ الكتّـاب التـونسيّين»، أجـرى الحديث محمـد الفـريقي ـ ملحـق العمل الثقافي ــ الاثنين 24 أكتوبـر 1983، ص 6 و7 [في نفس العدد مقال بقلم يحيى محمّد عن: مؤتمر اتحاد كتّاب آسيا وافريقيا، ص 2].
(9) الكاتب إمّـا أن يكون حرًا أو لا يكون، حـاوره محمد بن رجب، جريـدة المدينة (السعودية) 11ذو القعدة 1014 (1983).
(10) «الفارسي سرق القمـر ونال جائزة اللـوتس» حوار خيرة الشيباني، جـريدة الفجر (الملحق الثقافي، الإمارات العربيّة المتحدة)، 1983.
(11) «طمـوحـاتي كـالأحلام تتجـاوز الممكن والمستحيل» حـوار عبـد اللّـه مـالك القاسمي، جريدة الأخبار، السبت 29 مارس 1986، ص 14.
(12) بدون تكلّف، مع مصطفى الفارسي: الصباح 1 مارس 1986، ص 9.
(13) Rencontre avec Fersi: L'exemple de la grenouille, par H.H. La Presse, 1er Février 1987.
(14) «غياب حـريّة التعبير أسـاس غربتنـا» حوار عمـر ألاراج، مجلّة الـدستور، الاثنين 19 أكتوبر 1987، من ص 43 إلى ص 45 (مع صور ثلاث).
(15) «لم أكتب للأطفال ولكن الطفل ساكن في كـلّ ما كتبت» حوار محمد بن رجب الصباح، فيفري 1987.
(16) «في داخل بيت الفـارسي، يلتقي خطّ الإستواء بالقطـب الشمالي» تحقيق آمال بن مختار، مجلـة الإذاعة والتلفـزة التونسيـة، عدد 691و الأحد 6 مارس 1988 (صورة على الغلاف وصور داخلية عديد، من ص 25 الى ص 28).
(17) «اللغـة عنصر مهمّ في الوحـدة العربيّـة» حوار مجدي أحمد حسنين، مجلّـة

الموقف (السوريّة)، عدد 370ـ س 9ـ الاثنين 15 ماي 1989 ص 52 و53.

(18) Portrait sans retouches. Le Renouveau, Vendredi 27 Septembre 1991. P. 16.

(19) «مـا كتبته عـن كوريـا ينتمي الى أدب الـرحلـة» الشروق، الخميس 8 مـاي 1992.

(20) «أزمتنـا أزمة فكـر في الأساس» حـوار محمد الـزين ميلاس، جـريدة المسـاء الجزائرية، الاربعاء 12 أوت 1992.

(21) حوار معه : الصباح 19 فيفري 1993.

(22) «خسرت منصب سفير بسبب كتـاب» الأنوار (التونسيـة)، الأحد 21 فيفري 1993.

(23) الأدب والشعـر والمسرح في السبعينات: مجلّـة حقائق عـدد 386، 12 فيفـري 1993، ص 18 و19.

(24) «الكتابة تحطيم وهي نتاج الحيرة الفاضلة»، إعداد السعداوي، مجلة الإذاعة والتلفزة التونسية ـ عدد 810ـ 27 مارس 1993، ص 28 و29.

(25) ... استجواب عديـدة أخرى بـ La Presse ـ والشروق... الـخ واسجواب أخير لجريدة الشرق الأوسط...

(26) تسجيلات إذاعيّة :

(أ) : 28 أوت 1962 : نحبّ الحياة وما في الحياة.

(ب) 10 أفريل 1962 : الأقصّة في الأدب القصصي الحديث.

(ج) 15 أفريل 1962 : موعد مع شاعـر وأديب وصحفي متقاعد، ردّ على محمّد بن حسين، بمناسبة احراز سان جون بارس جائزة نوبل... الخ.

(27) محاورة مع الفارسي في المركز الثقافي لمدينة تونس: تغطية حسن بن عثمان ـ الرأي ـ عدد 384 ـ الجمعة 13 فيفري 1987 «السلطة، الكتابة، هذه ازدواجيتي».

(28) مصطفى الفارسي في حوار أدبي بصفاقس: لقاء مع المبدعين: 2 أوت 1987.

(29) الفـارسي في حوار أدبي بصفـاقس: السبت 6 أفـريل 1991ـ الصبـاح بنفس للتاريخ.

(30) تكريـم الفارسي، ضمن فعـاليّات مهـرجان صفاقـس الدولي العـاشر يوم 17 جويلية 1988، وقد قدّمه بدراسة عنه، جلول عزّونة في المركز الثقافي: الحرية، 19 فيفري 1993.

(31) تكريمه من طرف اتحاد الكتّاب التونسيين يوم الجمعة 19 مار س 1993.

مقالات له

[هذه عيّنة أولى في انتظار نشر مقالاته مجموعة وهو ما يكوّن عددا من المجلّدات].

I - سلسلة مقالات تحت عنوان : منّي إليك، هذه بعضها :

1 ـ صناعة الفنون والآداب، بلادي 7 فيفري 1977، ص 20.

2 ـ في الـذكرى العـاشرة لـوفـاة سيدي مصطفـى خريّف، بـلادي أفـريل 1977. (الصفحة الثقافية، العدد الرابع)، (مع كاريكاتور للفارسي بريشة المكّي التوزري).

3 ـ حول مقدّمة وردت في مؤخّرة كتاب: زمن الزخارف ـ بلادي 5 سبتمبر 1977.

4 ـ الفنّ والأدب من أجل استكمال الذات ـ بلادي 7 نوفمبر 1977، ص 30.
5 ـ الحقيقة بين الواقعيّة والخيال ـ الصباح، الخميس 1978/12/28.
6 ـ لا السرج ولا اللجام، الصباح، 20 جانفي 1985؟
7 ـ «ماما سمكة»، الصباح، 5 فيفري 1985.
8 ـ قرطاج لن تموت، الصباح، 12 فيفري 1985.
9 ـ ... وهل يطمس الشمس القَمَرُ، الصباح 7 جانفي 1987.
10 ـ ميهاي أمينسعو (الشاعر الروماني الكبير)، الخميس 29 جوان 1989، ص 6، الخ...
11 ـ مورافيا : رجل الصراحة والعفوية وطلاقة اللسان، الصباح 23 أكتوبر 1990، الخ.

II - مقالات مختلفة :

1 ـ حول شريط جحا، الفكر، س 3، عدد 10، ص 967 (جويلية 1958).
2 ـ القصّة في الشريط السينمائي، الفكر، س 4، عدد 7 و9، ص 689 وص 839 (أفريل 1959 من ص 77 إلى ص 81).
3 ـ أرباب الفكر عندنا والحرية والثقافة، الفكر، جانفي 1961، ص 311.
4 ـ خواطر ابن خلدون، العمل، 2 أفريل 1961، مجلة التجديد، أفريل 1961.
5 ـ المسرح والحياة، الفكر، جويلية 1961، ص 10.
6 ـ مجاهرة : لذا لم نجد مختلاً: الفكر، أكتوبر 1961، ص 2.
7 ـ من يدري ربّما، الفكر، فيفري 1962، ص 412.
8 ـ ينسحبون ولا يموتون (حول وفاة محمد فريد غازي)، الفكر، أفريل 1962، ص 645.
9 ـ النفحة الشافيّة: الفكر، أكتوبر 1962، ص 21.
10 ـ اللأحصّة ثورة في الأدب، الفكر، ديسمبر 1962، ص 205.
11 ـ القصصي الحديث: الفكر، جانفي 1963، ص 338.
12 ـ القصّة كامنة: الفكر، مارس 1963، ص 718. القصّة كامنة فينا شارك بها ضمن ندوة حول القصّة المغربية عوائقها وإمكانياتها نظّمت بتونس (دار الجمعيات الثقافية، من 18 إلى 20 ماي 1960).
13 ـ شهادة على جيل، الفكر، مارس 1963، ص 619.
14 ـ رسالة الى صديق، الفكر، جانفي 1964، ص 320.
15 ـ الأدب والإشتراكية، الفكر، أفريل 1965، ص 612.
16 ـ Encourageons le film documentaire, L'Action, 3 avril 1965.
17 ـ القصّة من الشريط السينمائي: الفكر، أكتوبر 1965، ص 125.
18 ـ الحريّة الباطنة، العمل، 1965/10/22.
19 ـ الفنّ بين الواقعيّة والحقيقة: الفكر، نوفمبر 1965، ص 237.
20 ـ بين العبث الوجودي والفعل الإشتراكي، الفكر، جانفي 1966، ص 436.
21 ـ وظيفة القصّة: مقال ضمن أعمال ملتقى القصّاصين المغاربة، الحمامات، ديسمبر 1968، من ص 145 إلى ص 153.
22 ـ لغة المجدّدين، العمل، الجمعة 16 ماي 1969.

23 ـ الثقافة جدّ، العمل، 1969.
24 ـ مشاكل الخلق المسرحي في مجتمعاتنا التي تتطوّر، العمل، الجمعة 26 جوان 1970، ص 5 و8.
25 ـ تحيّة إلى مورياك، الفكر، أكتوبر 1970، ص 2.
26 ـ محاضرة عن لغة المسرح (القيروان)، العمل الثقافي، الجمعة 17 مارس 1972، ص 5.
27 ـ L'exception est la règle, L'Action, 10 Juin 1972 .
28 ـ البلاد العربيّة وحقوق التاليف، الفكر، جويلية 1972، ص 347 (هذا المقال ألقي في مؤتمر دمشق للكتّاب العرب) ونشرته كذلك مجلّة الهلال.
29 ـ وذكّر الإنسان بانسانيته، الفكر، أفريل 1973، ص 686 (ألقي هذا المقال في مؤتمر أدباء العرب بتونس، مارس 1973). ونشرت كذلك بجريدة الرياض (السعودية) 12رجب 1403 (1982).
30 ـ أزمة خلق وإبداع، أم ماذا؟ الصباح، 10 أوت 1973.
31 ـ إنّ شانئك هو الأبتر، الفكر، مارس 1974، ص 596.
32 ـ الفراشة والتمثال، الفكر، جانفي 1976، ص 410.
33 ـ وحدّث عن الحضارة، الفكر، أكتوبر 1976، ص 15.
34 ـ نعيش ونربيّ الريش، الفكر، مارس 1977، ص 589.
35 ـ الفنّ والأدب من أجل استكمال الذات، بلادي، 7 نوفمبر 1977.
36 ـ رابع الأمناء (حول تسمية السيد الشاذلي القليبي أمينًا عامًا للجامعة العربيّة)، الصباح، 29 جوان 1979.
37 ـ حول أدب القصّة والرواية بتونس، الصباح، الخميس 4 أكتوبر 1979.
38 ـ الزمان هو الغربال، مجلّة الإذاعة والتلفزة التونسية، عدد 488، س 22 ـ 16 ماي 1981.
39 ـ الصين تلك القارّة المجهولة، بلادي، أكتوبر 1981 (وهي سلسلة من المقالات طيلة أسابيع تكوّن ملفًا).
40 ـ مذكّرات من الشرق الأوسط، الفكر، ديسمبر 1981، ص 292.
41 ـ إفلاس الإيديولوجيات، جريدة الرياض، الثلاثاء 30 مارس 1982.
42 ـ ذكرى آخر لقاء مع الشاعر الألماني بول فينس، العمل، 3 ماي 1982.
43 ـ الفنّ بين الأسطورة والتراث، جريدة الرياض، (السعودية)،. الخميس 13 رمضان 1403 ـ عدد 5485 (1982).
44 ـ من وحي الساعة، الفكر، فيفري 1983، ص 610.
45 ـ الإعلام والحرب، الرياض، (السعودية)، 15 أفريل 1983، ص 55.
46 ـ عمل غريب (اليابان)، الفكر، جانفي 1984، ص 467.
47 ـ لا ينشأ الفكر ويعطي إلاّ في محيط حرّ، الرأي، عدد 307، الجمعة 8 فيفري 1985.
48 ـ من هو وول صوينكا، الصباح، 7 جانفي 1987.
49 ـ لنتحرّك، الصحافة، 16 فيفري 1993.
50 ـ ثقافة التغيير، الحريّة، 18 فيفري 1993.

51 ـ «L'Ecriture est ma raison d'être», Le Renouveau, Vendre-di 19 Février1993.

52 ـ La parole est espoir et l'espoir est paix. La Presse 7 avril 1993, etc... (حول البوسنة والهرسك).

ملاحظة : لا نذكر هنا السيناريوهات للسينما التي وضعها الفارسي، وكذلك ما ساهم به حول المسرح من عشرات الحصص الإذاعيّة... وكتب عن أدب نتيلة التباينيّة بمجلة قصص وكذلك حول كتابات نعيمة الصيد (قصص: عدد 37، جويلية 1977 من ص 72 إلى ص 75 تحت عنوان: السندباد والقيشا). وكتب الفارسي مقدّمة كتاب عبد القادر بالحاج نصر: صلعاء يا حبيبتي، ونقدا بالفكر لكتاب د. صالح المهدي: الموسيقى العربية...

ونشر مقتطفات من دراسته عن القرامطة تحت عنوان: Le Qurmatisme, révolte des esclaves contre les maîtres, IBLA, 1960, 1, P; 7-50.

أنظر كذلك ما كتبه عن Saint John Perse والشعر المعاصر، وعن أبي القاسم الشابي: الفكر، أفريل 1959، وماي 1963، الخ...

استجواباتٍ قام بها وبعض آرائه في أعلام

1 ـ استجواب وول صوينكا، المحرز على جائزة نوبل للآداب سنة 1986، العمل الأدبي، الخميس 13 أوت 1987، ص 3.

2 ـ آراء حول :

(أ) صالح القرمادي: مجلة الإذاعة والتلفزة التونسية، 1982، تحت عنوان: رسالة عتاب.

(ب) حول حصول عبد العزيز المقالح على جائزة لوتس سنة 1985، انظر، الصباح، أكتوبر 1985.

(ج) حول معرض الرسّام العراقي: علي المندلاوي، الرأي العام، الإربعاء 24 فيفري 1993، «المعرض يجمع الرمز والأسطورة والواقع»، الخ...

بعض آرائه وأقواله

(1) «لا وجود للغة ثالثة بين سماء الفصحى وأرض الدارجة... والفصاحة إفصاح». مجلة قصص، عدد 44 أفريل 1971.

(2) «ألا إنّ من الثورات العادلة ما يقلب بعض التقاليد الموروثة رأسًا على عقب، فتولَدُ العادات الجديدة وبها تستمرّ الحياة حسب أنماط من العيش وطقوس ونواميس تبلى بدورها في يوم من الأيّام، فتنادي بثورة تجدّدها. وهكذا دواليك، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها».

إهداء مصرحية : والفلين يحترق أيضًا.

(3) «أنا صاحب كلام، أذكّر الإنسان بإنسانيته، لأنّ خلاص الإنسانيّة يكون بالحلم،

أنا حيوان معبّر، والكتابة عندي هواية في الأصل وأصبحت الآن هُويّة... أكتب

وأنا في شبه جنون... أغلب ما كتبته، كُتب وكنت أنا في حالة غير طبيعيّة... انفصل عن منزلي وعن الأكل والشرب...
والأدب شعوذة أي نوع مـن الشطحات العجيبة «وهذه الوقفات من شرفات الألم والأمل».
من مذكّرات مخطوطة، ممّا قـاله الفارسي عنـد لقائه بالجمهور، بصفـاقس يوم 2 أوت 1987.
(4) «صادقتُ Prévert وCamus ولازمتُ هذا الأخير مـدّة... ولقد لحق بي ضيم كبير ولا يعرف هذا إلاّ القليل وذلك نتيجة بعض إنتاجي مثل: قصّة: حمراء مثورة الأسد، وقصّـة ربطة العنق، ومسرحيّتيْ الطوفـان والبيادق ورواية حـركات التي تسبّبت في سحب تسميتي سفيرًا للجامعة العربيةببون... ولهذا أنا ضدّ الرقابة...
هناك أدبـاء في بلدي أجرموا لأنهّم ينـادون باللغة الـدّارجة ويريدون إقبـار اللغة العربيّة»..
«أنا صوت من لا صوت له، أنا حلم من لاحلم له».
«من سهرة تكريمه في اتّـحاد الكتّاب التونسيين، يوم 19 مارس 1993».

الجوائز التي تحصّل عليها

I - جائزة لوتس :
1 ـ جريدة L'Eclair السوفياتيّة ـ طشقند ـ عدد 221 ـ 1983، ص 2.
2 ـ مقال : جوائز (بالحبر البارز) بقلم مصطفى عطيّة، العمل الأدبي، 19 فيفري 1987، ص 12.
3 ـ Lotus, 17 ans d'existence, M. Zakaria Ben Mustapha reçoit le comité de rédaction de la revue «Lotus». L'Action, 19 Juin 1987.

II - الجائزة التقديريّة للآداب لسنة 1992
1 ـ مصطفى الفارسي يتسلّم مـن الرئيس جـائزة الآداب لسنة 1992، الحريّة، 7 فيفري 1993، ص 3.
2 ـ Le Chef de l'Etat remet le prix de Littérature 1992 à M. Mustapha Fersi, Le Renouveau, Dimanche 7 Février 1993, P. 3.
3 ـ مبروك... سي مصطفى، م.ب.ر.، الصباح، 10 فيفري 1993،
4 ـ في المركز الثقافي لمدينة تونس: حوار مع الكاتب مصطفى الفارسي، الصباح، 19 فيفري 1993، ص 14.
5ـ أسبوع مصطفى الفارسي، الصدى، الثلاثاء 23فيفري 1993، ص 14، الخ...

III - المنعـرج : جائزة بلدية تـونس للرواية 1963، والفلين يحترق أيضا جائزة علي البلهوان للتاليف المسرحي سنة 1978.
1 ـ تحصّل على جائزة لوتس ثمانيّة أدباء عرب وهم: طه حسين، توفيق الحكيم، يوسف إدريس، معين بسيسو، كاتب ياسين، مولود معمّري، مصطفى الفارسي، عبد العزيز المقالح.

2 ـ سبق الفارسي في الحصول على هذه الجائزة كلّ من العروسي المطوي، أبو القاسم كرّو، محيي الدين خريّف... الخ.

الأشعار (بعض العيّنات فقط)

(1) أشعار بالعربيّة :
أ ـ قرطاجنّة في لظى الشمس (تعريب رؤوف الإمام)، العمل، الجمعة 5 نوفمبر 1965، (مع رسم كاريكاتوري للفارسي) الحرية، هناك رسم كاريكاتوري للفارسي بريشة علي عبيد وتعريف موجز بالكاتب.

ب ـ غضب بيروت، مجلّة لوتس، 1982.
(قيل هذا القصيد بمدينة هوشي منه، وترجم إلى أكثر من 17 لغة.

(2) باللغة الفرنسيّة :
(أ) **Ici-haut... Ici-bas, (Poème dédié à Ali Ben Ayed le jour de sa mort) le 17/2/1972, L'Action 20 Février 1972(2).**
لقد رثى الفارسي كذلك صديقه : حمّادي الصيد، أنظر جريدة الحريّة...
(ب)- **O'Puberté des prophètes. L'Action (Supplément CultuSamedi 13 Mai 1972.**
(ج) **Hier... Demain. Les Nouvelles littéraires, Paris, 20 Mai 1974 (Poème traduit en hongrois).**

(د) **Poème : Discontinuité avec interview : «L'Ecrivain maghrébin marginal malgré lui» Les Nouvelles littéraires, Paris, 27 Janvier 1975.**

(3) أشعار مترجمة :
(أ) أشعار ترجمت إلى اللغة التشيكيّة سنة 1980 (أفريل).
(ب) لأنّ الأطفال يولدون شعراء، مترجم الى اللغة السلوفاكيّة، جوان 1982، الخ...

(ج) دراسة عن شاعريّة مصطفى الفارسي في المجلّة الأدبية الألبانيّة: جيهونا الصادرة بصكوبجي، بقلم (1990) Djubisa M. Stejanovic .

المؤلّفات المسرحيّة(1)

(1) الطوفان : 1969 (مع التيجاني زليلة، نشرت في عيون المعاصرة، 1984)، 80 صفحة، تقديم عبد الفتاح ابراهم.

أ ـ ليلى مامي : الطوفان، بركة مقدّسة جديدة عند المحدثين، العمل 6 جويلية1969، ص 9.

ب ـ Hédi Grioui : Attoufan: Un «2 + 2 = 5» théâtral, La Presse, 6 Juillet 1969.

ج ـ Festival Cultural panafricain d'Alger : succès Spectaculaire de la pièce «Attoufan». L'Action, 24 Juillet 1969, P. 1 et 4.

د ـ مصطفى العبيسي : المسرح الإفريقي من خلال مهرجان الجزائر ـ جريدة العلم المغربيّة، س 1 ـ عدد 28 ـ الجمعة 15 أوت 1969، ص 3.

هـ ـ م. عرفة : مهرجان الحمّامات يفتتح بمسرحيّة: الطوفان، الصباح، 6 جويلية 1969، صفحة فكر وفنّ.

و ـ «Attoufan» à l'ouverture du Festival de Hammamet, L'Action, 5 Juillet 1969.

ز ـ Analyse de al-Tufân, Culture N° 2, hiver 1970 par Jean Fontaine, P. 49-56.

(2) الأخيار :

[أسطورة في 13 لوحة]، 122 صفحة، 1973، الدار التونسية للنشر.

أ ـ الأخيار تفصل الحكمة الحقّ عن الحكمة الباطلة: العمل 13 أوت 1973، أجرى الحوار أحمد القديدي.

ب ـ الأخيار في قرطاج، الصباح، 14 أوت 1973.

ج ـ Snoussi, La Presse, 28 Mars 1979; Le Temps 5/1/1979 - Dialogue N° 254 - Juillet 1979.

(3) الفتنة : 1971 ـ دار الكتب الشرقيّة ـ 175 صفحة.

○ أسبوع المسرح بصفاقس، (الفتنة قدّمتها الفرقة القارّة بصفاقس) ـ بلادي، 19 نوفمبر 1979.

(4) السنابل :

أ ـ «Les Epis de la Troupe de Sfax par Hassouna El Fouzi», La Presse, 20 Mars 1979.

ب ـ M. L. Snoussi : «Les Epis» ou les limites d'un texte rigide» La Presse, 28 Mars 1979.

ج ـ De l'Energie (1er Festival de théâtre tunisien) La Presse, 1er Avril 1979.

د ـ ع. بوديدح : حول مهرجان المسرح التونسي: مسرحيّة «السنابل»، بلادي، أفريل 1979.

هـ ـ Le Temps, 5 Janvier 1979.

و ـ Dialogue, N° 254, 16 Juillet 1979.

---

(1) انظر قائمة مؤلّفات الفارسي المسرحيّة ضمن فقرة: المؤلّفات.

(5) والفلّين يحترق أيضـا : 1981، 93 ص، الـدار التـونسيـة للنشر، [معارضة Fugue تاليف : Paul Guth].

أ ـ د. محمد حسين فنطر : خواطر حول «والفلّين يحترق أيضًا»، العمل، الجمعة 4 سبتمبر 1981، ص 7.

ب ـ مسرحيّة جديدة لمصطفى الفارسي: «والفلّين يحترق أيضًا»، بلادي، 4 ماي 1981.

[أحرزت هذه المسرحيّة جائزة التاليف المسرحي علي بلهوان لسنة 1978].

(6) قصر الريح (تمثيليّات إذاعيّة)، تونس ـ SNED 1961 ـ 159 ص.

(7) رستم بن زال : 1972 (مستوحاة من شاهنامة الفردوسي).

[ألفها مع التيجاني زليلة، 147 ص، الشركة التونسية التوزيع].

أ ـ الفصل الأوّل : نشر بالفكر، أكتوبر 1971، ص 108.

ب ـ فصل آخر، الفكر، جويلية 1972، ص 1072 الى 1088. بقلم جعفر ماجر (ص 83 ـ 91).

(8) البيـادق [مع زليلة، كتبت في 6 مارس 1970، 128 ص، ونشرت سنة 1992، الدار التونسية للنشر].

الإنتاج القصصي والروائي

I - القصص :

بعض القصص القصيرة :

أ ـ تطهير الفتاتيش، مجلّة التجديد، أكتوبر 1961، وقد ترجمها الأب Michel Lelong بمجلة IBLA (عدد 104، 1963، العدد الرابع)، تحت عنوان: Le Chant du coq ـ من ص 8 إلى ص 13).

ب ـ الكوثر ـ العمل (صفحة أدب وثقافة) ـ 1966.

[نقدها محمد المختار جنّات: «هو مريّة الكوثر، العمل، الجمعة 13 ماي 1996].

ج ـ سلسلة من ذهب، ترجمت الى اللغة العربيّة، من طرف Ladislav Drozdik ـ سنة 1978، ونشرت سنة 1989 (8 سبتمبر بمجلة Nedel'na Pravda ـ (مع رسم).

[هي صارت شريطًا سينمائيًا فيما بعد].

د ـ ظلّ الماضي، ترجمت إلى الصينيّة من طرف: قرى يون تشانغ، في ماي 1985، (مع رسم).

هـ ـ 2 x 2 = 5، الفكر، فيفري 1966، ص 553.

و ـ ربطة العنق، الفكر، نوفمبر 1968، ص 115.

ز ـ حمراء مثورة الأسد، الفكر، جوان 1970، ص 853 (ثمّ نشرت ضمن مجموعة: القنطرة في الخيام).

ح ـ يوم عيد : الفكر، مارس، ص 525، ترجمها إلى الفرنسية محمد فريد غازي.

II - المجموعة القصصيّة :

(1) القنطرة هي الحيـاة : (مصدّرة بكلمة بعنـوان : القصّة كامنـة فينا)، 1968، الدار التونسية للنشر، طبعت 12 مرّة.

أ ـ Le Port, c'est la vie «Treize nouveaux contes et récits. La Presse : 20 Février 1969, P. 4.

ب ـ M. Moumen : Le Pont, c'est la vie, La Presse, 2 Juin 1979

(حول الطبعة الرابعة)، وقد ترجم المستشرق الروسي: فلاديمير شاغال. قصّة: القنطرة هي الحياة إلى الروسيّة ونشرها ضمن مجموعة قصص تونسيّة وليبيّة ومغربيّة مترجمة، بموسكو سنة 1967 (ماي) تحت عنوان: أراضينا الحبيبة.

ج ـ محمد صالح الجابري : القنطرة هي الحياة، مقال بمجلّة الإذاعة والتلفزة التونسية.

د ـ قصص : عدد 45 ؟ أفريل 1979 من ص 56 إلى ص 59 بقلم علي العريبي.

هـ ـ Tawfik Baccar et Salah Garmadi : Ecrivains de Tunisie - Sindbad - Paris - (P. 105 à 114) 1981.

(2) سرقت القمر : ط . 2، 1972، 125 ص، الدار التونسية للنشر.

أ ـ محمد صالح الجابري : كتب : سرقت القمر، مجلة الإذاعة والتلفزة التونسيّة، عدد 306، س 14، الإثنين 1 جانفي 1973.

ب ـ وقد ترجم فلاديمير شاغال قصّة: سرقت القمر إلى اللغة الروسيّة.

ج ـ عبد الوهاب الزواري: تحليل محتوى القصّة ضمن: دراسات أدبيّة، نشر المعهد القومي للعلوم والتربية، نشر دار بوسلامة، (85 صفحة)، 1972.

[الفارسي يقول : «هذا الكتاب أحسن ما كتبت»].

III - الروايـــات :

(1) المنعرج : 1966، 221 ص، الدار التونسيّة للنشر، طبع 11 مرّة.

أ ـ المنعرج : الفكر، فيفري، 1965، ص 425.

ب ـ المنعرج (عبد العزيز قاسم)، الفكر، أكتوبر 1964، ص 85.

ج ـ أحمد الهرقام : الجائزة والمنعرج، العمل، الجمعة 19 ماي 1967، ص 3 و6.

د ـ Abdel Kadel Ben Hadj Nasr : Quelques aspects du roman tunisien, M.T.E., 1981.

(2) حركات : 1978، 127 ص، الدار التونسية للنشر.

أ ـ حركات، الفكر، ديسمبر 1974، ص 226.

ب ـ «Harakat», «Voyelles», article de Abderrazak Dridi, L'Action, 20 Mai 1978.

ج ـ محمد بن رجب : مصطفى الفارسي عند تقديم كتابه الجديد: من يفقد لغته يفقد ذاته، الصباح، الثلاثاء 23 ماي 1973.

د ـ مقال عن نفس التقديم بدار الثقافة بباب العسل: كتب جديدة، بلادي، ماي 1978.

هـ ـ Ahmed Touili : Mouvements, Dialogue N° 196, du 3 Juin 1978

و ـ Chroniques de Jean Fontaine - IBLA - 1978

ز ـ Mustapha Fersi et ses voyelles, La Presse Soir, 27 Juillet 1988, P. 17 etc...

ح - جلول عزّونة : رواية حركات والتبشير بعهد جديد للأدب (بحث ألقي في مؤتمر أدباء العرب الـ 17 بتونس، 1990، ونشر فيما بعد في مجلّة: الكاتب العربي (ليبيا) ومجلّة قصص.

مراجع عامّة عن مصطفى الفارسي

(1) ملفّات اتحاد الكتّاب التونسيين.
(2)ظهر غلاف مسرحيّة الفتنة للفارسي.
(3) ظهر غلاف رواية : المنعرج للفارسي.
(4) ملتقى القصّاصين المغاربة، الحمّامات، ديسمبر 1968، ص 153.
(5) نجيبة دربال ومحمّد الحبيب السلامي: ساعة صفاء، من ص 99 إلى 104.
(6) جان فونتـان : فهرس تاريخي للمؤلّفات التونسيّة، بيت الحكمة، 1986، ص 188، و189.
(7) عمر بن سالم : القانون الأساسي وتراجع الأعضاء، اتحاد الكتّاب التونسيين، تونس 1989، من ص 414 إلى 417.
(8) أحاديث مع مصطفى الفارسي وملفّات تسلّمتها منه مباشرة.
(9) أبو زيّان السعدي :
(أ) مقال : منطلقات، الصورة التي لم تكتمل، الصباح، 12 أفريل 1979، ص 12.
(ب) مراحل، الصباح، 7 فيفري 1979.
(10) نور الدين العيّاري: الفارسي والحيرة الفاضلة، الرأي، الجمعة 27 مارس و3 أفريل 1981.
(11) علي العريبي : البطل في قصص الفارسي (كتيب).
Jean Fontaine : Promenade à travers le roman tunisien, (12) L'Action, 28 Février 1983.
Taoufik Baccar : La littérature tunisienne contemporaine, (13) de la rhétorique médiévale à l'écriture moderne, un prodigieux trajet. Les Nouvelles littéraires, 20 Mai 1974, P.11.
Introduction à la littératura Araba Moderna : publiée par (14) l'Instituto Ispano arabe de Cultura, voir P. 239 - 267 et P. 420.
Panorama : Revue Tchécoslovaque, N° 4, 1980, (Un dos- (15) sier sur Fersi, 10 pages).
Jean Fontaine : Aspects de la littérature tunisienne, voir (16) .(1975 - 1983) surtout P. 75 et 119.
(17) توفيق بكّار (وغيرهُ) : مختارات من الأدب التونسي المعاصر، الجزء الثاني، الدار التونسيّة للنشر 1985.
(18) عمر بن سالم : مختارات قصصيّة لكتّاب تونسيين، الدار العربيّة للكتاب، 1990، (من ص 473 إلى ص 492)، سرقت القمر).
(19) محمود طرشونة: مباحث في الأدب التونسي المعاصر، تونس 1989، مقوّمات

قراءة شموليّة للأدب العربي: حركات، نموذجامن ص.63 الى ص 83 [نشر من قبل ضمن أعمال ندوة كليّة الآداب: القراءة والكتابة، المطبعة الرسميّة 1988، من ص 37 إلى ص 64) وألقاه كبحث في أعمال مؤتمر أدباء العرب باليمن، سنة 1984].

(20) Jean Fontaine : 20 ans de Littérature Tunisienne, (P. 24-25).

(21) Taoufik Baccar et Salah Garmadi: Ecrivains de Tunisie, Sindbad, Paris, 1981, P. 105 - 114 et P. (224 - 225).

(22) عبد المجيد بن جدّو : الفكر، أفريل 1964، من ص 31 إلى ص 50.

(23) مجلة الإذاعة والتلفزة التونسية، عدد 224، 1969/2/15.

(24) مجلة الحياة الثقافية، 21 ماي 1982 ص 85.

(25) جريدةالعمل،7 و 31كتوبر 1969و 23أفريل 1971و7 و 14و 15أوت 1973و 3 أفريل 1981.

(26) الحفناوي الماجري: أزمة المثقّف... 1981...

(27) أنظر Anthologie = Norin et Confluent 47-49 - 1965 P. 150 à 153. (من ص 209 إلى ص 210).

(28) J. Fontaine : IBLA, 1980, P. 342 - 343 et Annuaire de l'Afrique du Nord, 1981 P. 1198.

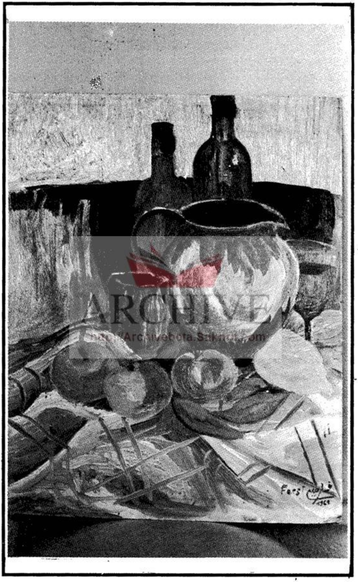
(29) Journal La Presse 20 Février 1969 - 12 Août 1972 - 21 Juillet 1973 et 20 Mars 1981 (Moumen).

(30) L'Action 13 Avril et 11 Mai 1960 - et 14 Août 1973, etc. Dictionnaire Larousse.

ـ «يفجّر (الفارسي) في حركات ـ المعاني ويحطّم حدود الأشكال، وينشىء كتابة «جمعًا» ثائرة على قدر تعقّد الواقع وضراوته».

ـ «استوحى أكثر قصصه من حركة التبدّل الإجتماعي غداة الإستقلال، هو نزّاع رغم حساسيته الإجتماعية والسياسية إلى التأمّل الوجودي ومن سلالة المسعدي الأدبيّة، متأثر بمنهجه في التفكير والعبارة».

توفيق بكّار


Farsi

قصــة

الرسائل تصلنا دائما

محب آيت ميهوب

- 1 -

جميع أهل القرية يعـرفون قصته... وفي الحقيقة، ان هذه الفكـرة لا تزيد شيئا ذا بـال فنحن في قريتنا يعلم الـواحد منـا كل شيء يخص الاخر ولكن بالنسبة الى حارس المحطة فالامر يختلف قليلا...

أنتم الـذين تمرون بقـريتنـا ولا تمرون ربما زرتمونـا من وراء نـوافـذ القطار وربما خاطبتم في سركم شجرنا وجبلنـا ولكنكم أبدا لم تعرفوا كيف نؤرخ لموتانا واي الامطار نصطفيها مرضعات لصبياننا. وكلما يتوقف بكم القطار عنـد قريتنا ترون شيخـا قصيرا يجرى على رصيف المحطة ويحاول ان يبدو صارما فيبالغ في زجر المارة وابعاد الاطفال عن طريق القطار انتم ترونه فـلا تعيرونه اهتماما ونظراتكم القليلـة اليه من نوافـذ القطار نظرات صامتة ومحايدة امـا نحن فاننا لا نستطيع التاكد من بلـوغنا القرية الا اذا رأيناه أقصى مـا قد تعبرون به عن شعـوركم بوجـود ذلك الحارس هو ان تبتسمــوا مشفقين عليـه من زيــه الـرسمي المضحك بسراوليــه القصيرة ومعطفه الذى لالون له امـا نحن فعندما نراه في تلك الملابس نفرح ونطمئن الى ان لا شيء قد تغير... لن تستطيعوا ان تعرفوا اي حيـاة توجد في قريتنا تلك التي طالما رايتموهـا وانتم في العربات صامتـة وكئيبة لانكم تمرون بنا مسرعين فماذا لو تـوقفتم ونزلتـم علينا ضيوفـا.! نحن دائما نسافـر اليكم اطفالا نأتيكم شبانا نرحل اليكم وشيـوخا نزوركم وكثير منا يسافرون ولا يعودون الا بعد شهـور طوال... ما أسهل السفر عنـدنا! فجأة ودون تفكير طويل يقـرر الواحد منا السفـر فيستقل القطار ويوم السفر يستيقظ بـاكرا ويحاول قدر استطاعته ان لا يلتفت في سيره الى القريـة فهناك أشياء عزيزة

عليه ربما نادته فيستدرجه الحنين اليهـا ولكنه مهما قسا على نفسه فلا بد ان يلتفت مودعـا ذكريـات تركهـا محفورة على الشجـر او ناظـرا الى امرأة تشيعه من وراء شباك بسمتها...

وعندما يأخذ المسافر مقعده من القطار يدون اخر انسان يراه من القرية هو ذلك الحارس العم صادق فيشعـر حينذاك كانما ترك كل القـرية وديعة بين يديه...

ـ 2 ـ

لم يكن العم صادق حـارس المحطة مسنا ولا شيخـا بين الشيوخ. ورغم ما أضاف اليه الناس من سنوات فانه لا يزيد عن الخامسة والخمسين واذا تذكر المرء حركيته الدائبة وقفزه من هنا وهناك كانه الخذروف فقد لا يبالغ كثيرا اذا قـال: انه شـاب ومع ذلك فـالجميع يتحـدثون عنـه كأنـه الشيخ الاسن... كل الحكـايات القـديمة اليه تنتسـب وكل مفاخـرنا له سبـب فيها فسكة القطـار هو الـذي بناهـا! ومركز البريـد الحقير ما كـان ليوجـد لولا الرسالـة التي ينتظرها منذ ثـلاثين عاما! والشيوخ الـذين رأوا العلم قبله لا يستطيعون التأريخ لحادثة الا وهو منارتهم...

قليلا ما كـان يغادر غرفة الحراسـة فهو لا يتركها الا عند اقتراب مـوعد مرور أحـد القطارات اذا كـان يسبقه بـربع ساعـة فيحذر الـرعاة المنتشرة مواشيهم على حافتي السكة ويطرد الصبيان اللاهين وينبه المسافرين وحين يصل القطار ينقلب جـذوة تشتعل نشاطـا فها هو يجري بعيـدا عن السكة بـامتـار ليصيح بشيخ ظن انـه سيمـر امـام القطـار ولكن فجأة يلتفت الى المحطة ويعن له ان يلعن احـدى المسافرات لسبب قد يجهله هـو نفسه! وقد يخطر لـه ان يطرد صبيا يغري المسـافرين بابتيياع بيضـه في نفس الوقت الذي يبادل فيه السائق التحية وربما سأل احـد المسافرين عن شيء ما لكنه قبل ان يسمع الاجابـة ينصرف جاريا ليبعد شاة اقتربت مـن القطار... عبثا يحاول المرء في تلك اللحظـات التحـدث اليـه او ضبطـه في مكـان مـا وحتى قسمات وجهه يلحقها الاضطراب ايضـا فتطأ في الان نفسه عشرات المشاعر المتناقضـة ولا يهدأ حتى يـواصل القطار سيره فيتـابعه بعينيـه الى ان تلفه الطريق ثم يعود الى الغرفة...

كانت الغرفة مستطيلة لا تحوى مـن الاثاث الا ما كان ضروريا لشخص يعيش وحيـدا: سرير ومـوقد غـازي وخزانـة وسجاد وعلى البـلاط حصير يجدد كل شتاء وقد كـان شكل الغرفة وخواؤها منـاسبين لكي تكون نادى القـريـة أو مقهاهـا الذي فيـه يلتقي الجميع ومنـه تـذاع الاخبـار وتـرى

الاشاعات البكر نور الحياة وكان دخـول هذه الغرفة هو الفيصل بين الصبا والرجولة...

منـذ صلاة الفجـر الى ان يـؤذن للعشـاء والحركة لا تنقطع عـن غرفـة الحراسة: هنا في الزاوية اليمنى شيـوخ يمتحنون ذكرياتهم عن الحرب وما مـر أمامهم من صقيع وهنـاك حلقة واسعـة تسيرها أوراق اللعب وهتـاف العيون وبعيدا مجموعة من الطلبة يتحاورون عن الشرق والغرب وفي أماكن متفرقـة أجسـاد سـافـرت تخاطب وحـدتها بين دمـوع الشـاى وانتحـار السيجارة...

وبين هؤلاء وأولئك كان حارس المحطة ينوس هادئا لا يزيد على ان يحمل الى ذاك كأس شاى او يلتقط من الارض كأسا فـارغة او يبيع أحدهم بعض السجائر... وكان يقوم بكل ذلك في صمت غير معتاد عنـدنا فهو يكاد يوزع الشاى والسجائر مستعينا بالاشارة والنظر فقط.

ولقد اعتـاد الناس ذلك ووجـدوا تفسيره فيما شاع عنـه من ان جنية لا يراها غيره سحرته وسلبت لبّـه. ولكن ما لم يستطع الناس اطفاء فضولهم حياله هو انصراف العمّ صادق أحيانا الى تصفح كتب صفراء اللّون يخفيها عن أعين الجميع ولا يسمح لأحد بـالاقتراب منه وهي بين يديه. لقـد فسرّنا وجـود هـذه الكتب تفسيرات شتّى. فقـال البعض انها سبيلـه الى مخاطبـة الجنّيـة وقال آخـرون انهّا أشياء ورثهـا عن أحد الأولياء بينما قلّل الـذين يتهمونه بالجنون من شأنها وقالوا: ما هي الاّ أحاديث الجنون...

الذين يسـافرون الى المدينة وحدهم، كـانوا يحظون بالتحدث اليه. هؤلاء كـان يسعى اليهم كسعي العصفور الى غـدير أمـه فيمنحهم في غرفتـه من المكانـة ما لا يحلم به الآخـرون. وعلى مرّ السنـوات، أصبح كلّ من عاد الى القريـة يستعدّ لسماع أسئلـة الحارس عن المدينة والمرأة التي ينتظرها هي ورسالتهـا. وكان كلّ واحد منهم يجهد نفسه في نسج إجابـات ترضي العمّ صادق وترحل به بعيدا...

ما أن يشعـر بأحدهـم قد عاد مـن المدينة حتّى يستحثـه على القدوم الى الغرفة وهنـاك يدنيه اليه على السرير وبعـد أن يجيد ملء كأس الشاي التي يقدمها في ثلث الحالات مجانا، يأخـذ في التلّصص الى حديثه عن المرأة فيبدأ بالسؤال عن أشياء عامّة:

هيه ! كيف حالك؟ يبدو أنّك أصبحت هزيلا، لقد أرسلناك الى المدينة أحمر الوجه فما الّـذي جعله شاحبا... ليكن الله في عـونك ثمّ يطيل في السؤال عن المدينة:

ــ كيف حـال المدينـة لا بـدّ أنهّا اتّسعت عن ذي قبل..: كلّ سنـة أقـول

سأنزل ثمّ لا تحين الفرصة... ماذا أفعل ذاك هو عمل الحراسة... من سأترك هنا.

وبعد أن يستمع في انتباه متصنع الى حديث الآخر، يصمت بعض الوقت، ثمّ فجأة وكمن تذكر شيئا لا أهمية له، يسأل عن تلك المرأة محاولا أن يكون حديثه عنها عرضا حتّى يتوهم سامعه أنها مجرّد ذكرى باهتة. ولكن الآخرين الذين ربّما خضع الواحد منهم الى هذه الأسئلة مرّات لا تعدّ، كانوا يعرفون هذه الحيلة فيتظاهرون بالانخداع ويشاركونه اللعبة...

ـ كدت أنسى، هل مررت «بحي الربيع»؟

وكانت الإجابة واحدة : نعم، ولكن لماذا يا عمّ صادق؟

ـ لا، لا شيء... ولكن منذ مدّة ثلاثين سنة أتت هنا سيّدة محترمة جدّا وجمالها لم نر مثله وقد أعجبت بالقرية وشاء القدر أن تبيت هنا وفي الصباح حينما أوصلتها الى القطار وعدتني بأن تراسلني وأن تكرّم أبناء القرية حين تراهم في المدينة... عجبا كيف لم ترها؟ وامعانا في السخرية يتظاهر الآخر بأنّه لا يعرف حتّى اسمها:

ـ وما اسم هذه المرأة يا عمّ صادق؟

ـ اسمها نعيمة... نعم نعيمة، أتذكر ذلك جيّدا...

لقد كنّا نعرف قصّة هذه المرأة معرفة جعلتنا نشعر كأنّها واحدة منّا رأيناها وحدثناها... الصبايا كنّ يتهامسن بذكرها مني خلين الى أنفسهن والشباب كانوا يذكرونها أحاديث كلّها ألغاز وإشارات أمّا الكهول فقد كانوا يتخذونها مزاحا يتذاكرونه حينا بعد حين وإذا أرادت امرأة مساعدة من العم صادق جعلت تلك المرأة شفيعا لها عنده فتبدأ طلبها قائلة. «اكراما لعيون نعيمة أرجوك»، فيبتسم المسكين ويذعن لطلبها...

والذين ينفون وجودها كانوا أكثر من المشككين والمشككون أكثر من المثبتين: من كان يستطيع أن يصدّق أنّ امرأة سليمة العقل والحوّاس يمكن ان تقع في حبّ رجل لا يتذكر أحد أنّه رآه يغتسل، تحيط به هلوسة وأسرار ابتداء من عكوفه على كتب غريبة الى انصرافه الى التمتمة طول الليل بين الظلام وصمت الجدران؟... حقا، لقد كان ذلك صعبا على عقولنا البسيطة...

وقد فسرّ أصدقاء الحارس الأوائل الذين هم آباؤنا قصّة هذه المرأة تفسيرا أقرب الى الحقيقة وعنهم أخذناه تلقينا تحذيرا. لقد قالوا ما تلك المرأة الاّ جنّية مثّلها له ظلام الغرفة وبردها القاسي فاتنة بهيّة. وما أكّد للناس هذا التفسير هو أن اسم «نعيمة» اسم لخواص الجنّ. وقد بقي هذا التفسير لسنوات طويلة الأوحد. وايمانا بصوابه، كان الرجال يتحاشون البقاء في الظلمة خشية أن تتمثل لهم الجنّية!، وخوفا ممّا حدث لعمّ صادق،

كان الآبـاء يسارعون بتـزويج أبنائهم حـال بلوغهم سنّ الرشـد.وبعد ذلك بسنوات، حين بـدا للناس ما عليه حـارس المحطّة من صلاح وتقـوى، ظهر تفسير آخر يـرى في تلك المرأة حوريّـة وعده بها الله فـزارته ليلـة ثمّ عادت والرسالة التي وعدته بها هي التقاؤهما في الجنان.

وهنـاك آخرون يتهمـون حارس المحطّـة بالجنـون ويقولـون: ربّما رأى مسافرة في القطار فجنّ بجمالها وقد يكون حدثّها فـوعدته ساخرة برسالة ويوما فيوما تحوّل انتظاره جنونا وعتها...

ولم يكن حارس المحطّة غـافلا عن سخرية الناس فقد كـان شديد الحذر معهم لا يكلمهم الاّ اقتصادا.

ولكنّه مع من يعملون في المدينة تهرب حيطته وتنطلي عليه خدعهم:

ـ وهل صحيح يا عمّ صادق أنّك بسببها لم تتزّوج؟

ـ نعيمة.

ـ وكيف أتزوّج وقد طلبت منّي أن أنتظرها؟

ـ وهل حقّا وعدتك بالزواج؟

ـ نعم وهل أكذب في مثل هذه الأمور؟

ـ لا يا عمّ صادق، لا أصدق.

ـ والله وعدتني !.

ـ طيّب، قل لي كيف ذلك.

ـ 3 ـ

كانت ليلـة شتاء كافـرة، تذكرت فيهـا العجوز كلّ أيتامهـا فراحت تبكي بكاء غزيـرا باردا ينهمر على أكواخنـا كاندفاع السـؤال أو فرح الانتقام ولّما سمعتها الريح أخذت نـايها واسترسلت تعوي بين الفجاج ودواميس الحفر كما الذىب يعوي أو كخطو صديق بـلا صديق. وطال تجاوب الريح والمطر حتّى خلناها القيامة أو هي نداء الطوفان...

بعد أن مـرّ آخر قطار، أغلقت الغـرفة وجعلت سريـري وسطها حتّى لا يقتاته الماء المتقاطر من زاويـة في السقف ثمّ أكلت شيئا ونمت تاركا السراج مضاء كصومعة للطمأنينة.

وفي ذلك الوقت كنت شابّا تستهـويني الغيبة وألحن الشرود وكان نومي حياة تغازلني فيها أحلام وأسفـار. فما أن يداعب الكرى أجفاني حتّى أحلق وأرحل بعيـدا بعيدا. وفي تلك اللّيلـة، رأيت أنني راع وحوالي شيـاه حملان. كان المكان سفح الجبـل وكان الزمان أصيلا بين ربيع وخـريف... استندت الى شجرة ورحت أنظـر الى السماء البعيدة... بقيت كـذلك برهـة ولّما حانت

التفاته منّي الى الأرض، نظرت فما وجدت غنمي. انتفضت قائما فرأيتها تجري الى قمّة الجبل، أخذت أهتف بها ولم تلتفت ولو واحدة. فمسكت عصاي وتعقبت أثرها. كانت القمّة عالية صعبا صعودها ومع ذلك فقد تحاملت على نفسي وحاولت الجري كي ألحق بالشياه قبل أن تنحدر الى واد تحت الجبل. وظلّت تركض بكل اندفاع وخفّة وأنا من ورائها أجري وأصيح. ثمّ فجأة، توقفت فاسترددت أنفاسي وأملت أن تعود ولكنها بقيت جامدة ثم استدارت حلقة وجلست اطمأننت قليلا وعاودت العدو. وما كدت أتقدم اليها بعض الأمتار، حتى توقفت مشدوها... لم أدر كم لبثت على تلك الحال... لا تكون الاّ بعض ثوان ولكنّها ذابت فيّ أنهرا من الكلام وغيمة للصور... وسط الحلقة كانت تجلس امرأة لا أدري من أين أتت. فلعلها عصفور استعاد صورته الأولى أو بركان صعدت روحه الى رأس الجبل...

كانت ترتدي فستانا أحمر وشعرها الأصفر ينساب فيغطّي وجهها وقدميها كأنّه حجاب أو رداء... خطوت نحوها على مهل وشفتاي المنفرجتان تسبقاني وبدا لي أنّ الشمس تسير الى جانبي فلا تجول بعينيها الاّ في الحلقة... وصلت الحلقة فانتصبت قائمة ومعها انتصبت الأغنام. ازاحت خصلات الشعر عن وجهها فرأيته ورديا كالبلّور وكان كلّ سطر فيه يبتسم ويضحك ولمّا تطلعت الى بعينيها، رأيت الشمس تضحك في زرقتهما فأحسستني خفيفا ومحلّقا ولم أشعر كيف دخلت الحلقة واقتربت منها... أخذت الأغنام تثغو وتقترب منّا فضاقت الحلقة وغرقت بلا كفن في سماء عينيها... رأيت في الضباب يديها تمتدان اليّ فمددت يدي وتشابكت أصابعنا... ماذا المس. لم يطل انتظاري وعرفت أنني أقبّل تمثالا من المرمر صحت بكلّ قواي وسقطت على الأرض...

استيقظت مذعورا ووجدتني أصرح كما في الحلم. وفجأة، استمعت بصعوبة الى صوت رقيق خافت:

ـ اطمئن ! ما بك ؟ اطمئن !

انقطعت عن الصراخ، سمعت الصوت ثانية، كنت الى الاغفاء أقرب منّي الى اليقظة، فتحت عينّي وأرخيت الغطاء فرأيت شبحا يجلس ف طرف السرير، خلت الحلم ما زال يجري فقمت حذرا.

ـ أرجوك لا تنزعج!

وجدت السراج قد انطفأ وكان الصوت حقيقيّا...

ـ من أنت ؟!

ـ انهّا قصّة طويلة. أرجوك لا تنزعج وعد الى النوم وسأحكي لك كلّ شيء في الصباح...

جذبت علبة الوقيد، أشعلت عودا فـرأيت شعرا أصفر ووجه امرأة يبتسم مرتجفا. وانطفأ العود.

ـ من أنت؟

أشعلت عـودا ثانيا. بحثت عـن الشمعة تحت السرير. انتفضـت وابتعدت عن السرير. أشعلت الشمعة وحاولت طمأنتها:

ـ لا تخافي! اجلسي على السرير... من أنت؟

جلست على السرير واقتربت منها، ارتبكت وقامت...

ـ اجلسي ولا تخافي ! أنت في أمان.

جلست متردّدة، ابتعدت قليلا حتى تشعر بالثقـة ثمّ وجهت نحوها ضوء الشمعة... كانت تشبه تلك التي رأيتها في المنـام شبها غريبا ودون أن أشعر سألتها:

ـ هل أنت التي رأيتك؟

ـ نعم ؟!

كانـت لها نفس ملامح الأخـرى: وجهها وردي مثلهـا والعينان كـوكبان زرقاوان، الفارق الوحيد هو أن هذه ترتدي معطفا صوفيا أزرق وتضع على رأسهـا قبعـة سـوداء... وعـرفت أنها ليسـت من القـريـة... رأيت دمعتين تتسللان بهدوء من حدقتيهـا فتلمعان فوق الخدين، أحزنني شجـوهاوكدت أبكي...

ـ ما الذي يبكيك، لماذا أنت صامتة وفطنت الى انها كانت ترتجف بردا ولا أدري كيف لم أشعـر بـذلك منذ البـدايـة. فأخـذت أهم غطـائي دثرتها بـه والباقي رميته عليّ.

ـ شكرا !، ما كان يجب أن تنزعج...

ـ لا شكّ أنك جائعة...

أخذت الشمعة وخطوت الى مكان الطعام ولكّنني لم أجد شيئا.

ـ ما رأيك في كأس شاي ساخن؟

وبينما كنت في آخر الغرفة أحضر الشاي أخذ صوتها يرتفع شيئا فشيئا:

ـ لا أدري أيّ لعنة حلت بي هذا المسـاء... في القطار كدت أختنق وبحثت عن مهرب منّي فلم أجد الى الغثيان سبيلا. وما ان توقف القطار عند قريتكم حتّى رأيت القفص يشرع بـابه وحسبـت الوقفـة طويلـة ففكـرت بالتّجـول لبعض الوقت ولم أبتعد عن المحطة الاّ خطوة ـ أو كذلك بدا لي ـ حتّى اندفع القطـار كاللص الهارب، جـريت وراءه وصيـاح يجري وكنّ هتافي التهمتـه الريح ولم تنقطع عجـلات القطار عن دويهّا السـاخر. ولّما أعيـاني الركض، كنت قد ابتعـدت عن المحطّة مسافـة طويلة. لم يكن هناك أحـد، وحدي بين

الأشجار والظلمة الآتية ممثلة خلا المسرح من دونها... ما الذي أفعل؟ كنت أخشى أسرار الكلاب وأنياب العتمة ولم يبق لي أمل في قطار أو محطّة فأخذت أجري في الطريق الذي أمامي علّني أقع على راع أو كوخ أو مسجد وأفلح الأمل في أن يدفعني بعض الأمتار وكدت أطمع في سبق الظلام ولكن غضب المطر يذكرني... لم أشعر يوما أن المطر بكلّمني الاّ هذا المساء. ووقفت الى شجرة رجوت أعصانها ان تكون لي بيتا فما استطاعت، لم يكن المطر يقصد غيري، كنت أرى سيوله تندفع في الفضاء تبحث عني بعيون حمراء حتّى اذا رأتني نزلت عليّ جمرا كالثلج... وحلّ اللّيل... فكرت في أن انتظر ضحو المرآة ثمّ وجدت الانتظار أكثر قسوة وأضيئت شمعة أمل جديد فأخذت أجري الى المحطّة. لا أدري أي الدروب سلكت ولا كم مرّة سقطت متعثرة، كنت غايبة عنّي حتّى لوحت لي هذه الغرفة منادية فدفعت الباب ودخلت وساعتها فقط استعدت ذاكرتي...

وضعت اناء الشاي قرب الفراش زادا للسمر...

ـ ولماذا غادرت القطار.

ـ لو لم أنزل لكنت اختنقت...

ـ الحمد لله أنك اهتديت الى المحطة والآ...

ـ الصدفة وحدها قادتني وها أنني أزعجك معي...

انصرفنا نحكي ونشرب الشاي... بدا كأنّنا صديقان منذ زمن بعيد... سمعت في عينيها صورا ألفتها ورأيت في صوتها صدى أعرفه تحدثنا عن كلّ شيء وكان الحديث يأخذنا الينا في تدفق وترفق وكان ايقاع المطر على قرميد الغرفة نغما يحضننا... ببساطة قلت لها: اسمي صادق وقالت: أنا نعيمة، قرأت لها كلّ أوراق ميلادي وعرفت عنها كلّ شيء، كانت تعمل مدرسة لا تطلب من الدنيا الاّ ان تريها بسمة صادقة من شفتي صبي صغير وما كان يقلقها في تلك اللّيلة إلاّ خوفها من أن تصل في الغد الى تلاميذها في غير موعدها وطال بنا الحديث وأخذت في سماء الغرفة تزقزق بعض الأحلام، ثمّ رنّ جرس السّاعة... كانت الخامسة صباحا الاّ ربعا، بعد نصف ساعة سيمرّ أوّل قطار...

ـ سأخرج لأستقبل القطار، ابقي أنت هنا ولك أن تنامي...

ـ أنام ماذا تقول يا صادق وتلاميذي الذين ينتظرون.

أجبت مستغربا.

ـ ألم نتفق على الزواج.

ـ نعم، ولكن ليس اليوم.

ـ إذا متى؟

ـ سآتي في العطلة...
ـ إذا، فأنا الذي سأذهب معك اليوم.
ـ لا، ابق هنا وسأبعث لك في كلّ يوم رسالة ثمّ آتيك نهائيا.
ـ ان بقيت هنا يا نعيمة فسيقتلني ركام أحلامنا...
ـ اطمئنّ سأبعث لك رسائل بلا عدّ...

ثمّ قامت الى الباب وشفت بسمتها غضبي... وقفت أمام الغرفة كنت أتقدم الى المحطّة، نادتني، وجدتها تنظر الى الأرض متأمّلة:

ـ ماذا هناك؟
ـ أجابتني دون أن ترفع باصريها: ما أعبق رائحة المطر عندكم.
ـ وهل للمطر رائحة؟
ـ نعم ألم تشمّها؟

في المحطّة لفّنا الصمت ومع ذلك فقد أتى القطار بسرعة، صحت في محاولة أخيرة:

ـ لن أبقى هنا، سأذهب معك...
ـ لا يا صادق، سآتي بعد أيّام وفي كلّ يوم ستصلك رسالة...

وأخذها منّي القطار، لوّحت بيديّ مودعا وفي القلب تقرع أجراس الانتظار... ولم تأت الرسالة...

-4-

وكذلك صبر العمّ صادق ينتظر ثلاثين سنة ولم ينس ولو ليوم واحد الذهاب الى مركز البريد والاستفسار عن الرسالة. وكان استفساره يشوبه رجاء واستعطاف وكان الجواب دائما بلا جواب...

ومع الأيّام، صارت القرية كلها تنتظر رسالة نعيمة، فكلّما طرق ساعي البريد باب أحدنا ـ وكان ذلك قليلا جدّا ـ سأله عنها، وعندما يقصد أحدنا العمّ صادق ليكتب له رسالة أو يقرأ له أخرى، يرى في عينيه حزنا فيواسيه سائلا عن نعيمة ورسالتها فيطمئنه العمّ صادق بأنها ستصل وسيقيم لها الأفراح...

وظلّت قصّة الرسالة تتعقبه فهي ما يفضلّه المراهقون حين به يستهزؤون وهي سباب الكبار وشماتتهم إذا عليه حنقوا...

وأخذ العمر يتقدم بالعمّ صادق ولم نعرف له امرأة ولم نر الرسالة بين يديه...

- 5 -

منذ شهرين توفي حارس المحطّة. لقد مات كما يموت أكثر الناس: مرض أيّاما ثمّ رحل...

ويوم الجنازة كان المساء حزينا كشخص يعيش وحيدا: مطر خافت وريح ساكنة. ولم يبك حارس المحطّة أحد فلم تكن له امرأة تودعه بعويلها ولا ابن يتقبل عزاء فيه... ردمناه ثمّ لم يعد يذكر اسمه أحد فقد قام حارس محطّة جديد...

وبينما كنّا آخذين في نسيانه، حدث ما جعلنا نذكره أيّاما أخرى. فذات صباح وردت على مركز البريد رسالة الى العمّ صادق لا تحمل عنوان باعثها. اجتمع كبار القرية وغضّوا الطرف فوجدوا ورقة صفراء كتبت بقلم رصاص:

«حبيبي صادق،

أعرف أنّك انتظرتني طويلا، أنا أيضا انتظرتك وها أنّي ما زلت عذراء الى لقياك، لقد حاولت أن آتيك ولكنّ أسبابا حالت دوني وذاك، لم أرسل لك رسالة ولكنّي كنت كلّ ليلة أكتب الرسالة في سرّي وأكيد أنها كانت تصلك ليلة فليلة...

صادق، لقد حان للحلم أن يخضرّ وأنا عند وعدي لك وسآتيك في الأسبوع القادم. أبلغ سلامي لأهل القرية.

نعيمة»

ألجمت الرسالة ألسنة كبار القرية وراح من كانوا يتخذون العمّ صادق هزؤا يكفّرون عن ذنبهم ويردّدون: «لقد صدقت يا حارس المحطّة وكذبت سنون الانتظار...». وفي ذلك اليوم فقط، بكت النساء العمّ صادق وردّدن: ما ضرّ الموت لو انتظر بعض يوم؟! ولمّا زال عن الناس فعل المفاجأة، اجتمعوا على أن تبقى الرسالة عند موزع البريد وأخذوا يستعدّون لاستقبال الضيفة العزيزة. ولكن قبل ان ينتهي الأسبوع ويحلّ الموعد المنتظر، اكتشف ساعي البريد أنّ الرسالة كانت بخطّ العمّ صادق، حارس المحطّة...

بنزرت في 27 جانفي 1991

قصّة قصيرة

التفكّك

عبد المجيد النغزي

الرصيف من تحته يبعث إليه بوخزات باردة تنفذ إلى خلايا النخاع. والجدار من ورائه لزج والعالم انْحَصَرَ في معيّن منير هو فتحة طربوش الكشابية السوداء. في عمق ذلك المعيّن جانب من الطوار وجزء من المعبد وفي المركز مستنقع صغير من الماء الآسن، وعلى الضلع الأيسر مقدّمة حذائه الرابض الى جانبه «باسطا ذراعيه». قال في نفسه «هو جديد ولكن....». سمع نقرا لخطو سريع آتيا من جهة الشمال، وما لبث المعيّن أن امتلأ بساقين جميلتين في جوربين بلون الخبز وحذا بلون التراب. حرّر سبّابته المنغرزة في راحة يده... دفع الساعد إلى الأمام قليلا... بسط الذراع في زاوية منفرجة... شهر السبابة من فتحة الكشابية بدرجة انزواء قدّر أنها تلتقي بمستوى وجه الماشية أو صدرها... خلّص لسانه من صمغ الريف بحركة مؤلمة... سنّ ذَوْلَقَهُ وسدّده إلى الحنك وهتف بجملته التي حفظها عنه أهل البلد :

- الله ينجّيك وبعّد الداء عليك.

بدأ النقر يبتعد قليلا قليلا [لماذا خلا الطريق المؤدي إلى المخبزة في هذه الساعة المبكرة؟]. ترك لسانُه الحنَكَ وانبسط في تقعيرة الفم وارتدت الذراع دافعة الساعد إلى الخلف، فارتطم المنكب بالجدار، وعادت السبابة تخبىءُ رأسها الحادّة الوسخة في راحة الكف.

... الساقان الجميلتان تشبهان ساقي أمّه.... شهيتان في جوربين بلون الخبْز أو بلون التراب وسقط بصره على مقدمة الحذاء.... «هو جديد ولكن ....».

امتدت يمناه إلى جيبه تفتّشه ثم عادت يسراه بموسى صغيرة صدئة.... شهر نصلها وجلس القرفصاء... سمع طقطقلا بعض المفاصل الصدئة ونتأت ركبته حتى لامست ذقنه... أظافر الرجل طويلة... وعلى القدم قشور يابسة مشققة..

... نظر إلى الحذاء وأوشك يبتسم ... اجتمع في كفّه كدس من الأظافر

المسودّة وقشور الجلد الميتة.... كأنها لحاء الشجر... امتدت اليد إلى الأمام في حركة مباغتة... امتدّ مداها إلى قلب المستنقع... وانقلبت الكف في حركة نصف دائرية... دفع بجذعه إلى الأمام قليلا، حتى جعل وجهه على السمتنقع.... طفت الأظافر، وتشرّبت القشور الماء فرسبت وتفكّكت.

... كذلك شاهد جسدها لما جاءت سيارات كثيرة ومآزر بيض وقبّعات لامعة وأسلحة... كان يقيل هناك تحت سور الجبّانة غير بعيد عن القبر .. خال الامر في الداية يتعلق بدفين جديد.

... لكن شاهد الحشد يتوجه نحوها... نحو قبرها وشاهد الفؤوس في الكلس والتراب... اقترب يريد أن يسألهم... كانت وجوههم باسمة وجباههم مسترخية.... وهو يشرئب بعنقه داخل القبر ويتسلل بين السوق يريد أن يرى جسدها عاريا كما رآها في حضن زوجها الجديد قبل أن يطرده فاحترف التسوّل... في ذلك اليوم أحبّ أمّه كثيرا... [كيف يمضي كل هذا الزمن وأنا لا أعرف ذلك الجسد الذي بلون الخبز أو بلون التراب؟] وعندما قيل له إن أمه تحدّثْ منه الجولان وخرجت فأرداها العسكرُ شرب من مستنقعات المدينة العكرة وجرى في أسواقها عاريا وسبّ سادَتَها وسوقتها وأقام في البطحاء مأتما ما فُرجة وحديثا.

... عندما أطل رآها ممدّدة... رأى بعض الجسد منتشرا يتشرّب الماء ويتفكّك ... ضغط بمرفقيه على الركبتين ودفع بجذعه إلى الخلف فارتطم بالجدار اللزج واستقر عليه وسمع نقر الخطو السريع آتيا من ناحية اليمين وغمرت المعيّنَ الساقان الجميلتان في جوربين بلون الخبز أو بلون التراب تحركت السبابة في مخبئها... وقفز اللسان إلى الحنك :

ـ الله ينجّيك وبلعّد الداء عليك...

ورأى من الزاوية العليا سَنَّ رغيف يصوّب نحو قلبه... أحسّ لحظة برعْب يغمره ثم امتدت أصابعهَ تلتقط الرغيف ونقر الحذاء يبتعد... وجلاً المستنقع... بإمكانه الآن أن يمصرف. وضع الرغيفَ مقاطعا لفخذيه... هل يمكنه الآن أن يجرّب الحذاء بلا ألم؟ تقدّم بجذعه قليلا ثم دفع له إلى الوراء فارتطم بالجدار والاتدّ إلى الأمام بعنف فوجه نفسه قائما على ركبتهيه .

... في تلك الحركة تدحرج الرغيف واستقرّ في المستنقع... بقي قائما يحدق فيه.... ثنى ركبتيه فجلس على قدميه وجعل وجهه على الرغيف الغارق يتشرّب الماء وينتثر...

... حشر قدمه السليمة ـــ في الحذاء بألم ومشى وئيدا يجرّ الساق الضامرة باتجاه المقبرة.

بنزرت ـ في 1989/1/19

شعـــــــــــــــر

كليم نفسه...

كاظم الثليجاني

يستنير بك الشّعاع
وبغيرك
لا يعوي الصّباح
فلا تبتئس يا صديقي،
رتّل عليّ
ما أستشهد من عذارى النّجوم
رضع على أفواه البطاح
أكمّة
كي أراك...

للدّمع أعياد
تحتفي باحتساء أبصارك
فيبكي البرّ بلا مطر
وتستعر، بلا وفاة،

ألسنة الماء،،
ولك سحنة الهواء
حين ينقبض
وسلوك ما دبّ على أديم هذه القصيدة
من خلائق
وشقائق
وأشياء
فلا تتبخّر يا صديقي
أنظر بعينين من خمر
تجدني مسفوحا
على جلبة الأيّام
ولا تنهزم
فكلّ الأمصار
أعملت فيك فطر الهزائم
وفرّت كمن يفنى
ولم يبق في المكان
مكان
لمكان قد يفد فجأة
من تبرّم الغد العصيّ
غير هذه اللّعنة المتوثّبة
من ملامح اللّغات
وغير انحناءات هذا الخلاء الكسول
فاحزم دمعتك
أخمدها بعيدًا عن مسامعي
ودع الآلام المتخفيّة خلفَ الآلام
تفترس البوّابات المتعلّقة
بتلابيب ال خشية
وتدحر جثوّ النّخل المصطفّ
لتلميع الشوارع...

تمامًا،
كزرقة تعنّفها ٱلغيوم
ولا ينبت حيالها العشب،،
تماما،
كمرج أنانيّ
لا يقرؤك القرنفل العائم
في منتصف الأصيل،
فاتتك وهلة بزوغي
وفاتك أنيّ المدنّس
بأبتهالات الياسمين،
المشتقّ من تعاظم الأغبرة،
البارّ بما شاب من ٱلطّلع
وتماما،
كمن ساح في مزالق زنبقة
وما عاد،
أغدو أحيانا موجة
تلقّن البحر تعاليم الطوفان
أو عرارا طفيفا
يعلّم البدو
مكارم السّباسب،،،
فنقّب في جذاذات العناق
وفي مفترق الأرحام
عن ماتاي
ولا تلمني
إنْ ٱستحوذت
على جلّ حبّات الحليب المرّ
وتحدّرت
شلْوًا ،

شلوًا
علَى حمق البنايات،،،
هب انّك
جفّت بك الأرض
وانقضّ عليك سقف النّهار،
هب انّ المدينة
مرّت في كفن،
هب انّ الضّجيج
مرّ في صمت
وتدنّت من فرط الخريف
أخلاق الثّمار،،
اغمض مخاوفك،
واصل التجديف
بكاسين من سغب الأعناب
وتوغّل في لوثة الدّهشة القرمزيّة
تلفيني أقصّ عليك
كيف ليلة هاجمتني الأعوام
وتناصرت كي تبيدني،
فتحت نار القلب
على كيد النّفايات
وأهلكت بضحكة عصفور مقفر
أسباب المداخن...

(4)

لحصيف مدّك
ورع محار الضّوء،
مآثر الورد العليّ
وقباب القرى العصيبة
فلا تنتظر شروح الشتاء

كي تمتعض أكثر
من دويّ القبور
ولا تتشظّى ككوكب أعشى،
على أسوار اللّه،،
تـمـنّ فقط
أن تعيش ألف حرف مديد
عساك
حين تعبر مسالك الموت،
تكون قد خلّصت الغيب
من نبوءاتك
وسكنت
إلى فراديس جحيم رؤاك...

كاظم الثليجان
(1992)

دراسة

من دلالات رواية «القمر والأسوار» لعبد الرحمان مجيد الربيعي*

. محمود الهميسي

● ثنائيّة الصمت والكلام:

تربط بالتمرّد والاستبداد ثنائية الصمت والكلام لكانها جزء منها بين خصومها وأعوانها فمن لزم الصمت فهو معها ومن تكلم فهو غريمها، ولذات الغرض نشرت «آذانها» في كل مكان وصارت «الكلمة» مرادفة للسّجن وصار المواطن العراقي يخشى على نفسه وعلى ذويه من «داء الكلمة»، وكما يحرص المهادنون على السكوت، تحرص السلطة على ضمان دوام الصمت وإخماد الكلمة، لأنهّا آمنت أنّ في الصمت بقاءها ودوامها، تقول زوجة الشيخ علي لابنها وقد تحدث عن السياسة: «اسكت واكفنا الشر، إذا سمعك أحد تتحدث بمثل هذا الحديث سيكون مصيرك السّجن» (ص. 86)، وهي إذ تقول ذلك لا تعترض على الكلام من حيث هو كلام بل لأن القائل لا يامن - في العراق - شرّ السامع، ولذلك استحال قول الحق الى ثرثرة غير مامونة العواقب: «(لماذا تثرثر بمثل هذه الاقوال وللحيطان آذان؟» (ص. 87)، وإذا تكلم احدهم، فلكانه حاز سلاحا فهو على اخفائه احرص، فمحسن الحلاق لا يستطيع ان يتحدث الى الشيخ علي الا إذا تظاهر بالحلاقة: «دعني أتلهى بحلاقة شعرك، أخاف عليك من عيون المخبرين...» (ص. 151) والواقع ان الخوف من آذان المخبرين أشد من الخوف من عيونهم لأنهم «يندسون بين الناس... حتى يتصيدوا النّاس في أقوالهم وأفعالهم (ص. 117). ويحضرون حفل تدشين الجسر الجديد «بحثا عن كلمة ضجر قد يطلقها احد الافواه» (ص. 271)، أمّا سبب القطيعة بين هادي الفراش وأهل الزقاق والتلاميذ فيرجع إلى أنه كان اذنا للسلطة تسمع ولسانا يعبرّ فضلا عن كونه عينا ترى... وكما كان الحديث بين شخصين «بضاعة مهربة»، صارت الصلاة كذلك وقراءة القرآن، ولذلك اقيمت الفاتحة عند مقتل «عبد» في منزل «الشيخ علي»، «فمنصور الراضي» يقتل فعلا وقولا يقتل الانسان ويخنق الكلمة، وما قتله «لعبد» سوى واد للكلمة قبل ان تنتشر. لأن «عبد» كان، «على الرغم من صغر سنّه صاحب الكلمة المسموعة في القرية» (ص.

28)، وكما اقترن الكلام بـالسجن، ارتبط الصمت بالمهادنة والاستسلام والاقرار بالعجز، فصمت الشيخ حسن عن قضية المبغى الجديد علامة على عجزه ولجوئه الى مهادنة السلطة فلما علم بالأمر «لم يقل شيئا» (ص. 182)، وقد أصيب الشيخ علي أيضا بالعجز عن الكلام وهو المتحدّث اللبق لأن العجز عن الكلام عنوان العجز عن الفعل: «ماذا أفعل بشان هاتف؟ أرشدني الى طريق؛ قال الشيخ علي وكانه يريد أن يحسم الحديث: لقد تكلمت معه قبلك وكان مصرّا.

- وما العمل إذن؟

- السّكوت (ص 205).

، أما «حميد» فيقول صراحة: «الرعب يكمّ أفواهنا» (ص. 199)، فمن يتكلم في الرواية؟ إن السلطة هي التي تتكلم ولا تنتظر جوابا فالمتصرف يخطب في مجموعة صامتة (ص. 271)، والمامور يجمع الحراس ليطرح الاسئلة ويشتم ويتوعد فيقابله «الوجوم الاخرس» (ص. 190) فيغضب لانه يريد كلاما، فاذا تكلم احدهم نهره بقوله: «اخرس انتم حمير» (ص. 191) أو رفع صوته «صارخا» (ص. 191، لأنّ لا صوت يعلو على صوت السلطة، فهي التي تتكلم ولا تريد ان تسمع بل لا تسمع الا ما تريد... لـذلك نجدها تقبل الكلام إذا كان لا يمسّ السلطة بسوء، وتباركه إذا كان يخدمها. وقد لا حظنا ان الكلام الوحيد الذي يكثر في الرواية ولا يثير حفيظة السلطة هو الدعاء لها بطول العمر او الزغاريد التي ترددها النسوة كلما اقدمت الحكومة على «إصلاح» جديد كالماء والجسر والكهرباء وترحيل العواهر وزيارة الملك، ولعل «جبار» ان يكون الشخص الوحيد الذي يجهر بشتم الحكومة ويلفت من العقاب لانه لا يفعل ذلك الا عندما يفقد عقله إذ «يسكر ويشتم الحكومة» (ص. 41). وردّا على سياسة الكلام من طرف واحد — وهي سياسة سطرها «أهل القمة» - وسياسة الصمت التي التزمها الآباء، ظهر الجيل الجديد جيلا «متكلما» مؤمنا بان المواجهة تبدأ بكلمة تصدع جدار الخوف وتجعل النور المبدّد للظلام يتسرّب الى داخل الأسوار، وكان المعلمون أوّل من بدأ تلك المواجهة حين أخذوا «يحدّثون تلاميذهم عن فلسطين وكونها أرضا عربية.» (ص. 76) وتبعهم الجنود العائدون من الجبهة (ص. 79) فالتلاميذ. فهذا عزيز يتكلم عن السرقة والرشوة فتنبهر أمّه سائلة: «ومن علمك مثل هذا الكلام؟» (ص. 86) ثم لا تلبث ان تحس «بالفخر من كلمات ابنها التي تدلّل على رجولة مبكرة» (ص. 87)، أما هادي فقد استغرب سلوك «تلاميذ الثانوية المشاكسين وكيف يشتمون الحكومة باعلى أصواتهم دون أن يخافوا من شيء» (ص. 121)، وقد شخص هاتف الوضع فبدا له أن التغيير ينطلق من توعية الناس وان التوعية تبدأ «بالتحدث مع الناس» (ص. 207) فتصدى للنازحين الجدد يقنعهم بالعودة الى الأرض عن طريق الكلمة: «أتكلم معهم، استحثّهم إن يعودوا الى ارضهم حتى لا يضيعوا وتبتلعهم المدينة» (ص. 210) لقد قطع الجيل الجديد كل صلة بالصمت واعتنق الكلام مذهبا وطريقة لأن الصمت عنده صار مرادفا للهوان: «»لا أستطيع ان أسكت، إنني أحسّ بكل شيء ولا أريد ان تتكرر حياة الذّل والهوان على أبنائي...» (ص. 209)، - ومن ثم صارت للكلمة منزلة تضاهي منزلة الفعل، واصبحت «الاصوات تتعالى كاشفة كواليس السياسة وما يدور فيها» (ص. 211) فتضاعف الاستبداد دون جدوى،

لأن الكلمة انتشرت و «أصبح الناس يلاحقون ما يجري ويتهامسون حوله...» (ص. 212)، ثم انتقلوا من الهمس الى إظهار الفرح عندما انتفضت القاهرة سنة 1952، ثم الى المناداة بسقوط الملك العراقي فيصل الثاني: «ليلحق فيصل بفاروق» (ص. 278). وتنتهي الرواية وقد انقلبت الاوضاع فصار المتكلم صامتا (السلطة) والصامت متكلما (الشعب) فقد «علا صوت الاحتجاج» عند زيارة الملك وآلت الكلمة الى الشعب في حين «ابتلع رجال السلطة وعبد الاله(1) نصل الهتاف» (ص. 328).

● **ثنائية العلم والجهل:**

تنقسم الاطراف المتنازعة في عالم «القمر والاسوار» الى معسكرين يفرق بينهما الحرف المكتوب، فاذا هما معسكر للجهل وآخر للعلم ويظهر ان عداء الحكومة للحرف حين يكتب لا يقل عنّ عداوتها للكلمة حين تنطق، لانهما معا شكلان من أشكال التمرد، فموقفها من التلاميذ واعتبارهم لصوصا اولى بالمراقبة من سواهم، يبرره امتلاك التلاميذ القدرة على الكتابة، فهم «يكتبون على الحيطان شاتمين الحكومة والبعض يوزع أورقا يسمونها منشورات يكتبون فيها ضدّ الحكومة...» (ص. 99)، والحرف المكتوب هو الذي عجّل برجولة «عزيز» وهو الذي جعل من «كامل» معارضا يدعو الى إعادة نظام الخلافة، كما كانت القراءات التاريخية سبب انبهار «عزيز» بمجد الامة العربية وانتمائه السياسي، كما اعتنق هاتف مبدأ الكتابة على الجدران ـــ الى جانب الكلمة ـ منهجا في التحريض السياسي (ص. 207)، وتستمد معاداة السلطة للعلم جذورها من أن العلم يناقض السياسة إذ ينشر الوعي: «إن خوفهم من التلاميذ كبير فاغلبهم يعملون في السياسة» (ص. 193) وقد اشتد الصراع عندما كثرت المنشورات السرية ولمست السلطة اقبال الناس عليها فصارت ترد على الحرف بالحرف أحيانا (ص. 228) وبالقمع غالبا، اذ تبادر الى اعتقال كل من يقرأ منشورا (ص. 266) وتبدأ بمنع الصحف من الصدور (ص. 277) ويصبح كل من يحمل اوراقا متهما حتى تثبت براءته،: يقول احد التلامذة لعزيز: «مجلاّتك هذه هي أصل البلاء، وهي كالدّبق الذي يجذب الذباب» (ص. 261) ويؤكد الربيعي على ان الطرف المقابل للجيل الجديد هو جيل الجهل، فالمخبرون لا يعرفون كتابة اسمائهم (ص. 260) ورؤساء العشائر «نواب وطامعون بذلك على الرغم من ان قسما كبيرا منهم لا يعرفون حتى كتابة اسمائهم...» (ص. 322)، ولعل ذلك يرجع الى ايمان الربيعي بجدوى الكلمة ودورها الايجابي في تغيير الاوضاع اذ يقول: «للكلمة ايحاؤها الآخر، هي كالسّهم موتورا الى القوس يمضي الى الهدف رأسا كالموت...» (2).

إن علاقة السلطة بالحرف المكتوب والكلمة المنطوقة ترجع اساسا الى انهما مجتمعين ينيران الطريق ويبثان الوعي ويهددان السلطة في ما هي عليه حريصة البقاء.

● **القراءة الاجتماعية:**

تغلب على هذا البعد ما تحاول الرواية إبرازه من مظاهر التحول الطارىء على

المجتمع في العلاقات الرابطة بين فئاته وبداية تفتّت هذه العلاقات، ففي جانب التمرّد السياسي ياتي تمرد الشخصيات على مجموعة من القيم يرونها من خصائص المجتمع التقليدي الذي اليه ينتمون، الا ان هذا التغيير يبدو هادئا دون قطيعة شاملا لبنى المجتمع الاخلاقية والروحية والاقتصادية، فإذا «القمر والاسوار يصبحان حاملين لدلالة اجتماعية غير دلالتهما السياسية، هي «الصراع» بين القديم والحديث وبداية التحول من نمط مجتمعي الى نمط آخر:

● **السلطة الدينية:**

تتجسم هذه السلطة في مجموعة من المواصفات تشد اهل الزقاق الى بعضهم البعض، ويمثلها «صنمان» احدهما داخلي (الشيخ علي) والثاني خارجي (الشيخ حسن)، فاذا هما يتفقان ولا يتنافران ويؤيد كل طرف الطرف الاخر ويكمله وان بدا احيانا ان الشيخ علي قد انحنى امام «سطوة» «الشيخ حسن» العلمية فمؤقتا لانه اتخذه صديقا وما حاول احدهما ان يهيمن على الاخر بل صارا يعملان من اجل تحقيق هدف واحد هو مسك «الاعنّة الروحية للزقاق حتى اكتسب كل منهما صفة رسول الخير «ووكيل الله في أمر عباده في الارض» (3)، فالله هو الذي ارسل الشيخ علي إلى الزقاق: «ليطرد الشرور» (ص. 32) أما «الشيخ حسن» فقد جاء ليعيد للدين نضارته الاولى ويعيد ترتيب الامور بطرد العواهر من المحلة: (انت كريم يارب، كانت هذه الفتنة وسط بيوت الاشراف واهل الله) (ص. 69) ثم بناء مسجد مكان المبغى، (شيّد هذا المسجد الشريف ليطهّر المكان، الله ينصر الشيخ حسن (ص. 181). وتنتصب السلطة الدينية في الزقاق مثلا اعلى فالشيخ علي «يحظى باحترام نادر وعندما يمر يفسح العابرون له [كذا] الطريق» (ص. 31) وله مجلس خاص، من انتمى اليه ولو خادما (شان هاتف) فقد نال الرضى، أما الشيخ حسن فتظهر هيمنته في كثرة مريديه الذين لم يكونوا الا أدوات في يده «يباركون كل كلمة يقولها» (ص. 78). ان السلطة الدينية بممارستها وعلمها الغيب، تقف حائلا بين الخير والشر لئلا يمتزجا، تدفع الثاني وتجلب الاول (: تقول زكية للشيخ علي: «آتية الى بيتك، ليس لي ملاذ غيره») (ص. 38) كما تكتب التعويذة المهدئة وتحلّل وتحرم: «عمي علي يقول انها (اي السينما) حرام» (ص. 62) وتبارك الزواج (ص. 33) وتقنع حين تتكلم لانها تنطق صوابا وحكمة: « أفكارك عظيمة دوما يا أبا عزيز» (ص. 291) ولانها كذلك فقد استحقت ما احيطت به من تقديس يكاد يبلغ مرتبة الاسطورة «ويؤكد صفة الشيخ علي الكلي الوجود، الكلي العلم في بنية اجتماعية منهارة لعالم منهار» (4)، كما تتضامن هذه القوة الروحية «المتحركة» مع قوى اخرى من جنسها «ساكنة»، هي القبور والاضرحة «والمراقد المقدسة» (ص. 267) لتعطل «قوى التفكير» في المجتمع وتجعلها تنتظم حولها كحبّات المسبحة التي يعلقها الشيخ علي في «مخبره» (ص. 30)، الا أنّ هذه الحبّات تبدأ بالانفراط التدريجي فاذا «مظهر» يتزوج رغم نبوّة الشيخ (ص. 73) بينما يحلل «ياسر» لنفسه الذهاب الى السينما (ص. 62) ويتمرد «هاتف» على ممثل السلطة الروحية فيشتغل بالسياسة دون علمه - وهو الذي يعلم الغيب وما يخفي - يقول الشيخ علي للمخبر: «لكني لم اسمعه يتكلم بالسياسة لا من

قريب ولا من بعيد» (ص. 118)، فيحاول الشيخ تحذيره لكنه ينحدر خائبا: «لا أدري هل املك الحق في عتابي لك... لا تؤاخذني ان كانت في حديثي هفوة» وص. 128)، فتتملكه الدهشة والحيرة من تسرب الوعي السياسي الى عالمه عنوة (ص. 153) فيحاول مغالبة الموج، ويسبق الاحداث عند معتقل «عبد»، بدعوته الى «الانتقام المؤجّل» فيحوز اعجاب الجيل الجديد ويثير حماسهم، فيعيد «عزيز» و«هاتف» الى مسبحته لكنه لا يلبث ان يفقدهما عندما يقر بعجزه عن مجاراة التيار: « لاطاقة لي، الكبر لعنة الله باغتني» (ص. 159) فيستسلم «أنا وانت (يقصد حميد) عجوزان لا نقوى على شيء فدع الشباب يفعلون» (ص. 203)8

إن هذا الاقرار بالعجز، لا يعني الاستسلام المطلق لان هذه السلطة تعمد الى تعويض كل حبة تنفرط من العقد بحبة اخرى لتظل المسبحة تامة، وكذا شانها مع كل حبة «فاسدة»، تطردها من جنتها وتحرمها حمايتها فلم تزل «بجبار» حتى اعادته الى «الصراط المستقيم»، وصار انسانا سويا: «ترك الخمرة لا يكفي نريده ان يصلي معنا في جامع الشيخ حسن» (ص. 97)، اما «يا سين» وتمرده على الشرّع «فامر جلل لا بد أن يتولاه الشيخ بنفسه»: اترك هذه المسألة لي» (ص. 231)، وبعد مدة يخرج «ياسين» من «الجنةو الى حيث لا يعلم احد (ص. 231) دليلا على ان السلطة توصلت الى ان ترأب المتسرب الى عالمها الروحي، لكنها بدأت بعد ذلك في التخلي عن بعض مواقفها عندما احست ببداية نهاية السلطة السياسية حليفتها السابقة، فاذا الشيخ علي ينطق بما لا يخطر على بال اتباعه فيحتج على القبض على صديقه «محسن» (ص. 266)، ويهدّد السلطة السياسية بسوء العاقبة: «الدنيا لا تدوم لأحد، ألم يرتدعوا من مصير الملك فاروق؟ «(ص. 267)، ويلجا الى السلوك اللاشرعي ليحقق منافع ذاتية، فيدفع رشوة مقابل الحصول على شهادة حسن السلوك وهو يقول: «الفلوس مفتاح كل شيء» (ص. 269) ويظل حريصا على مصالحة يرعاها ولا يهادن في ذلك فيرافق ابنه الى بغداد (ص. 270) ويرغمه على تركها (ص. 278) ويظل حائرا مضطربا لا يغمض له جفن حتى يرقى: «والله يا جماعة الخير كلّما اسمع خبر مظاهرة اضع يدي على قلبي ولا اهدأ الا بوصول رسالة منه» (أي عزيز) (ص. 303) وتنتهي الرواية وقد تخلت السلطة الروحية عن الكثير من هيمنتها مكرهة ونقصت حبات مسبحتها المقدسة ولئن انطلقت الاحداث والسلطة الروحية في علاقة حميمة مع السلطة، فان هذه العلاقة ستظل متارجحة بين التعاضد المباشر (استجابة السلطة لطلبات الشيخ مقابل حفظه «النظام» في الزقاق» والمهادنة الحذرة، ثم تنتهي بشبه قطيعة أفضى اليها تعاطف «الشيخ علي» التدريجي مع «قوى التمرّد»، لأن السلطة السياسية مسته ببعض الضر (اعتقال كامل مرتين، اعتقال محسن عدة مرات واخيرا قتل عبد) ولم تترك له مجالا للدفاع عنها او حتى مهادنتها فصار يقول فيها من الكلام ما خشي الكبار ان يسمعه الصغار؛ «أبا عزيز لا تجعل أولادنا يسمعون مثل هذا الحديث ارجوك» (ص. 267)، ويتخذ السلطة مصدرا للهزء والضحك (ص. 321) ولا يتردد في تشجيع غرمائها والانضمام اليهم اذ يقول لعباس: «انت تلميذ في الثانوية ونحن نتعلم نك» (ص. 303) ويقول لحميد معاتبا: «دعه يتكلم ولا تزجره. فهذا يحطم معنوياته ويضعف شخصيته» (ص. 304).

● البنية الاخلاقية:

لقد وردت هذه البنيـة لصيقة بالسلطتين الدينية والسياسية لانها شكلت احد محاور الصراع بينهما، وصـارت كل سلطـة تحاول ان تشيع اخـلاق طبقتهـا وان تجعلها الطاغية لانها عنوان حضورها ووجودهـا، لكنا نجد في المقابل جيلا جديدا يحاول مع تمرده على السلطتين وما ترمزان اليه، ان يختـط لنفسه منهجا اخلاقيا خـاصـا، ليس جـديـدا كل الجدة، ولكنــه مـزيـج من السـائد المتعـارف والجديـد المستحدث.

إن عالم الشيخين ومن تبعهما، عـالم منسجم مع ذاته من النـاحية الاخـلاقية، لانه يقـوم اساسـا على ثنائيـة متصلة بـالسلطة الـدينية التي يـرمزان اليهـا هي «الحلال والحرام»، فبهـذا المعيـار وحـده تقـاس الاعمال ويثمن الاشخـاص، ففي مستوى العـلاقات بين الجنسين لا يعترف الا بـالعـلاقة الحلال في اطـارها الشرعي (الزواج) ومـا عداهـا فممنوع ومحرم، وليس للرجل ان يتعلق بـامرأة ولـو كانت مجرد صـورة فقد «كـان حميد يمنع اولاده من تعليق ايـة صورة لامـرأة من تلك التي تحفل بها المجلات الملونة» (ص. 12). ولذات السبـب كان استياء اهل الزقاق من وجود الماخـور شديدا، وكانت الفرحـة عارمة واليوم «مشهـودا» لَمّا تمّ ترحيل العـواهـر، فهن الحرام الـــذي يهدد الحلال وهن الفتنـة تسري في الجسم الشريف فتفسـده»: «أنت كريم يـارب. كـانت هـذه الفتنة داخل بيـوت الاشراف واهل الله؟ص. 69) وهن أصل البـلاء، «أفسـدن» الشباب: (أخبرني» يـا سر أنـه رأى ابني عـزيزا يـدخل هـذه البيوت») ص 68 وأفقدن الرجـال عقولهم وسلبنهـم اموالَهم: («جبار يذهب الى بيوتهن ايضا، كانت لديه صاحبة صرف عليها كل فلوسه» (ص. 68). لـذلـك وجب تطهير المكـان من هـذه «الارواح الشريـرة»، «فـالبنـت عـورة ومسؤولية» (ص. 33) ـوان استقامت ـ فاذا فجرت اهدر دمها وصار ذبحها ثوابا يتسابـق اهل العشيرة لكسبه، وبترا لعضو فـاسد في جسم سليم («قتلـت واحدة، ذبحها اخوها بخنجر ولم يتقدم احـد لنجدتها، الكل كانوا يرددون تستحق الموت» (ص. 69)، ويكـاد الذكـر ان يستوي مع الانثى في قـانون الاخـلاق الصارم، لانـه يسيء الى اهل الله اذا اقام عـلاقة محرمـة ولهذا السبب اخرج «يـاسين» من «جنة» الزقـاق ولم تشفع لـه طيبته وحسن معـاملته للناس فقد ارتكب اثما اول هـزُّبه مشاعـر اهل الزقاق لما اغلق بـاب دكانه على «نساء غـريبات» (ص. 228) ثم اتى جرمـا ثانيا لو قتل بـه ما كان امرا عجيبـا: («يقرص «نهلة» من يدهـا... لو سمع هـادي بذلك لقتله» (ص. 229)، أما «جبار» فقد اتى عيبـا حين حاول الاعتداء على زكية، فهـو «الزنـديق» و«السافل» الذي لـولا شفاعـة من طيبة زوجتـه «لرميت اغـراضه في الشارع ولما استطاعت قـدماه ان تدوسا ارض الـزقاق» (ص. 43) فلا شيء يبرر العيب ولو كان انقطاع الـرزق ولا تسامح من يتجاوز جسد الشرف «الا من تاب وآمن وعمل صـالحـا» (5) وتقيـد بقيود اهل الشرف: «اننـا ناس شرفـاء، نصـوم ونصلي ونذكـر الله وليس بيننـا من يشرب العـرق» (ص. 41)، ومن هـذا المفهوم للشرف كـانت إدانة العريـف «مظهر» لانه «يـركض وراء النسوان» (ص. 72)، وكان قمع اول قصة حب شهدها الـزقاق بين عباس ونهلة («اذا تكلمت معها

كلمة واحدة، سانبحك وأشرب من دمك» (ص. 170). لان مجرد الحديث بين ذكر وانثى «قلة شرف» (ص. 243) لانه لامكان في هذا العالم الشريف لغير الشرفاء يصبح قتل المجرم اكثر الاحداث اثارة، اذ يبعث على التشفي ويشيع الطمانينة في النفوس، وينصر الحلال على الحرام، فالظاهر ان حادث قتل المجرم «عبد نقرة» كان عملا فرديا اذ «طعنه احدهم» ولكنه في الواقع جريمة جماعية ساهم فيها كل من حضر فقد «ظل يتضرج بدمه النازف قرابة الساعة دون ان يجرؤ احد على الاقتراب منه وتنفست المدينة الصعداء بعد ذلك» (ص. 48).

أما السلطة السياسية فلا يظهر موقعها من هذه البنية الاخلاقية الا نادرا، واذا ظهر فليخالف ما تواضع عليه اتباع السلطة الروحية، فاذا كان «جبار» يسكر تاسيا وخوفا من انقطاع رزقة، فيهدد بالطرد من عالم الشرفاء فان «كل الموظفين يشربون العرق بالنادي» (410) ويعربدون في الشوارع (ص. 309) ومع ذلك «يذهبون الى بيوتهم وكانهم لم يفعلوا شيئا» (ص. 41). اما اللصوصية فمسكوت عنها ما دامت لا تهدد كيان السلطة لان اللصوص «ياتون الى بيوت الفقراء ويتركون بيوت الاغنياء» (ص. 50) ثم ان للصوصية عند السلطة السياسية مفهوما اخر مختلفا تماما عن معناها في «عالم الشرفاء»، فالتلميذ الذي يقرأ ورقة لص، والذي يكتب على الجدار لص، وحامل مجلة شعرية لص، والحلاق لص والجالس في المقهى لص وقارىء الجريدة لص، وكل من تسعى به قدم لص الى ان يصبح «مخبرا»، ولان هؤلاء «سراق نفوذ» فانهم يستحقون الشنق حتى يغمض المخبرون عيونهم مرتاحين (ص. 213) ويتنفسوا الصعداء كما تنفست المدينة يوم قتل المجرم «عبد نقره»، وإذا كانت العواهر قد لفظهن عالم الشرفاء، فانهن وجدن لدى السلطة الرسمية من الحماية ما أعجز الشيخ حسن واتباعه وجعلهم يعترفون بوجودهن (انهن طاعون لا شفاء منه» ؟ص. 181).

«اذا كان» كل شيء يتبدل كما يقول الشيخ علي، فان للجيل الجديد تصورا اخر للاخلاق يختلف عن التصورين السابقين فعباس، ونهلة بحبهما الطفولي وعزيز وماجدة «بعلاقتهما العذرية يجسمون بعدهم عن «العهر الرسمي» الذي تشجعه السلطة، واختلافهم مع عالم الشرفاء الذي تسوده فكرة ما اجتمع رجل وامراة الا كان الشيطان ثالثهما، ويقف الجيل الجديد في منزلة بين المنزلتين، لا يقر القطيعة التامة ولا الالتحام الكامل، فاذا عزيز يرتاد المواخير سرا ويكتب القصائد الغزلية في ذات اللحظة، اما عباس فتتراوح عواطفه نحو نهلة بين الرغبة الجامحة والشوق واذا هما يعبران بسلوكهما عن توق هذا الجيل الى التحلل من الاطواق القديمة حول الحب والجنس وبناء عالم اخلاقي جديد تكون فيه العلاقة بين الجنس وبناء عالم اخلاقي جديد تكون فيه العلاقة بين الجنسين مزيجا من المادة والروح والفكر في آن معا، كما جسمها المشهد الذي اسر كامل عندما جلس في نادي كلية الاداب ببغداد، اذ «شاهد لاول مرة فتيات سافرات يجلسن مع الرجال ويناقشهم في مواضيع عديدة: الدروس والسياسة والنظام» (ص. 284)، انه الصراع بين القديم والحديث بدأ يطرح الثمر.

● البنية الاقتصادية:

ترتبط البنية الاقتصادية بسابقتيها السياسية والاجتماعية ارتباطا يكاد يكون عضويـا، اذ تتفاعل البنية الاقتصـادية التي يصـورها عالم «القمـر والاسوار» مع مجموع البنى الاخلاقية الروحية والسياسية فتؤثر فيها وتتاثر بها... وترتكز هذه البنية الاقتصادية على قيمة واحدة هي: سلطة المال.

* سلطة المـــال: يمثّـل المال مقارنة ببقية السلطات، قمـة الهرم في عالم «القمر والاسوار». فوسط هـذا العالم من الشخصيات والاماكن والسلـط المتصارعة يقف المال سلطة عليا مسيطرة على ما سواها، ، منها تنطلق المواقف السياسية والدينية واليهـا تعـود، وبها تفسر، وعلى اسـاسها تتحـدد، لقـد انقسم عـالـم الشخصيـات بمقيـاس المال الى مجموعتين: فقـراء واغنيـاء، فقـراء مسالمين مستسلمين واغنيـاء مسيطريـن. وقد اقتسمت المجمـوعتان حتى الحيـز المكاني، فكانـت الاحياء الفقيرة ذات البيوت الطينيـة الواطئة تقـابلها «بيوت الاغنيـاء... والقصور الكبيرة» (ص. 104) أما في الاريـاف فقد تجاور الاقطـاعي الذي يملك حتى ارواح النـاس ومن لا يملك سوى ساعده. ثم تقف السلطة لتمنع الهواء من ان يتسرب الى الزقاق ولتكبح غضبة الفـلاح ان عضب وحـاول ان يغير البنية القائمـة. وبينما تتواصـل سطوة الاغنياء بمبـاركة من السلطـة السياسيـة، تظل الطبقات المسلـوبة المال، مسلـوبة الارادة، عاجزة عـن الفعل، تمارس وجودها باشتهاء وقنـاعة عجيبين، («وضعت (حسنة) الطعام امام زوجها فحمل الصحن وسكب البيضة المقلية في رغيف الخبز ثم لفه واخذ يقضمـه بسرعـة واشتهاء») (ص. 11) وذلك بمباركة صـامتة (صور الحسن والحسين) او ناطقة (الشيخ علي والشيخ حسن) من السلطـة الدينية التي تكفلت بطرد الشرور والمصائب عـن طريق قراءة البخت وكتابـة الادعية والاكثار من الصـلاة وزيارة الاضرحـة والمراقد المقدسـة. كما تستمد هـذه المجموعـة من وضعهـا الاقتصادي ووجـودها في اسفل هـرم مبررا من مبررات اخـلاقها المتسمة بالوداعة والمسالمة: («يا ولدي، لا تنفعل، نحن ناس بسطاء وعلى قد رحالنا) (ص. 21) وسلوكهـا السياسي القائم على الخـوف والاقـرار بالعجـز «اننا لا نستطيع ان نقـف بوجه احد، علينا ان نشبـع بطوننا أولاً (ص. 209)، وان قدر لها ان تتجرأ على خلخلة هـذا النظام السرمـدي القائم على فكـرة: «ان الله خلقنا أغنيـاء وفقراء» (ص. 206) فلا تتجاوز احلام اليقظة والبحث عن الخلاص الفردي بعيدا عن الحل الجماعي؛ يقول حميد متأملا ابنيه «عباس» و «كامل»: « لا اصدق بانهما سيكبران ويصبحان موظفين وارتاح من الحراسة والسهر» (ص. 18).

وقد لاحظت سلطة المال (الاقطاع خاصة) ان قوتها تقاس بمدى هيمنتها على ما سواها واذ اطمانت الى ان امعانها في «البطش» تقابله الطبقات المسحوقة بمزيد من الانكفـاء والخـوف، صارت تصعـد الموقف من جهة واحـدة فبنت سجونـا وازهقت اروحا، الم تقل خيريـة عن «منصور الراضي» «هو الاقطـاعي وبيده كل شيء حتى ارواح الناس» (ص. 145). ليس معنى هـذا ان الطبقة المسحـوقة تتحمل وحـدها مسؤولية استشراء الاقطاع لان علاقات الانتاج كانت اكثر تعقدا من ذلك، فالاقطاع نظـاما اقتصـاديـا صنـو للملوكيـة نظـاما سيـاسيـا وكـلاهما يعضد الآخـر لان

مصـالحهما - وان تنـوعت ــ واحدة، ويـؤكـد ذلك مـوقف السلطة من «منصـور الراضي» عند مقتل «عبد» اذ «لم تسارع السلطة لاعتقاله او احالته الى المحاكمة على الاقل بل سجلت الحادثـة قضاء وقـدرا» (ص. 158). كما يتجلى عمق الـرابط بين النظامين في تخلي السلطة السياسية عن بعض ادوارها لفائدة «السلطة الاقطاعية»، فهـؤلاء الاقطـاعيـون يملكـون حتى سجونهم، يبـدلـون المتصرفين والقـائمقـامين والحكام ومديري الشرطة ان لم يعجبهم تصرفهم» (ص. 210)، انها السلطة داخل السلطة فهل ان الاقطاع والملوكية يمثلان قمة هذا الهرم «الاستغلالي»؟

تجيبنا الرواية بالنفي، ذلك ان لهذا التحـالف الاقتصادي السياسي ضد الطبقات المسحوقـة سيدا آخـر اشد سطـورة وبأسا وحـرصا على مصـالحـه وعلى البقاء في صـورة الـه مختف ينزل مـن اعلى كالقضـاء الـذي لاراد لـه: «فلسطين باعـوهـا، والعراق يريدون بيعـه، وسيفعلون كل ما يريده اسيادهم (ص. 152) هكذا يقول «محسن» الحلاق، اما الشيخ علي، فلم يـر في اسياد العراق الا عبيدا لمن هـو اقوى: «انها لعبـة الانكليز.. نـوري السعيـد او صـالـح جبر او غيرهما، ارادوا بديـلا عن نوري السعيد عندما يعجز عن تنفيذ سياستهم فجاؤوا بصالح جبر وهكذا» (ص. 127).

إن النظامين الاقطـاعي والملوكي يردان بـولائهما للانقليـز بعضا من دين كبير، ففي افريل 1941 قام رشيـد عالي الكيلاني ؟6) بانقـلاب في العراق وتم عزل الامير عبـد الاله الـوصي على العرش بعـد فراره مع العـائلـة المالكة وعـدد من الوجـوه السياسيـة في العراق مـن بينها نوري السعيـد لكن القوات البريطـانية الاتيـة من الهند وشرق الاردن، اسقطت نظام الكيـلاني في نهاية ماي 1941، وأعـادت العائلة المالكة الى العراق. (7)

في حين تـزداد قـوى الانتاج المسيطـرة، قـوة بتحـالفهـا مع القوى السيـاسيـة الداخلية منها والخارجية، وتنقـزم الفئـات الشعبيـة الاكثر انسحاقا وتسلم بان ما أخطاها مـا كان ليصيبهـا، وما أصابها مـا كان ليخطئها وتـرتفع الاسوار عـالية مهيبة، تلوح في الافق بشائر نورآت، تتمثل في الجيـل الجديد الذي بدأ يعي وضعه ويزداد «وقاحة» على حد عبـارة «الشيخ علي» فاذا هو لا يلتجيء الى السلطة لتعيد اليه حقا مهضوما، بل يثار لنفسه بنفسه، فهذا «عباس» يضرب من يضربه لعلمه بأنـه لا يتعرض للعقـاب لأن والـده غني» (ص. 20)، امـا «هاتـف» فلا يـرى في الاغنياء سوى «لصوص يسمنون من دمائنا... يسلكون أحقر السبل، خدم للانكليز وعملائهم، إقطـاعيون وتجار ومهربون، وكلهم يحميهم القـانون» (207) ولم يبق هذا الادراك في مستـوى الاحساس بالحيث، بل تجاوزه الى الفعل، فـانضم كامل الى مجموعة دينيـة تدعو الى خلع الملك واعادة نظـام الخلافة بينما انتمى «هاتف» الى المعارضـة السياسية الفاعلـة وبرر ذلك تبريرا اقتصاديـا اذ قال: «لأنني لا أرتضي لعائلتي ان تعيش الكفاف عملت في السياسة» (ص. 127)، ومن ثم صار يفسر كل شيء تفسيرا يعتمد مبدأ الطبقية والموقع الاقتصادي، فصالح جبرليس مجرد وزير فاشل، بل هـو خائن لطبقتـه (8): «صـالح جبر هذا ابن نجـار فقير من مدينتنـا، يخون طبقتـه وانتماءه» (ص. 128). ان العمل السيـاسي اذن احتجـاج على وضع اقتصادي ومحاولة لتغيير بنيته لذلك قال الشيخ علي:

«إن محيطنا فقير، وابناؤنا عانوا من كل المصائب وهم مهياون للعمل في السياسة (ص. 203)».

وقد جاء مقتل «عبد»، نتيجة لصراعه مع نظام اقتصادي يجد ذاته في التوسع والهيمنة واذ قتل «عبد»، اخذ «هاتف» مكانه وصار يحث الناس على «العودة» لان اصل الداء في القطاع المتمركز في الارياف، وقد تبنت نفس الموقف بعض الاحزاب السياسية المعارضة ونادت بضرورة الغاء الاقطاع (ص. 267 ـ 268).

ولئن انتهت الرواية ولم تغير القوى الفاعلة من مواقفها شيئا يذكر، فانه قد تم تجاوز أسلوب المهادنة، او انتظار وقوع الظلم لرد الفعل، الى فكرة اشد عمقا «هي مسالة نظام يجب ان يجتث كله، أن يهدم من أساسه» كما يقول عزيز (ص. 285)، ولعله من المبالغة ان نقول ان القمر بقي مفقودا، لان طبيعة المرحلة التي تتناولها الرواية هي مرحلة ما قبل القمر، فالجيل الجديد لم يغير من الواقع المعطي شيئا ولكنه ادرك حقيقة الوضع، ومن ثم آمن بضرورة التغيير وحدد موقعه من حلبة الصراع فقال: «إننا في معركة معهم وعلينا ان نخوضها الى النهاية (ص. 333) وظل يمشي... (ص. 334) فاذا نهاية الرواية ايذان ببدء المعركة.

الواقع ان هذه المعركة التي تشير اليها نهاية الاحداث قد لاحت بوادرها منذ بداية الرواية على مستويين اولهما ما ادخل على الزقاق من «اصلاحات» وثانيهما بداية القطيعة بين الجيل القديم والجيل الجديد.

لقد حدثت تغيرات كبيرة في مستوى البنية التحتية للزقاق صحبتها تحولات فكرية دلت على هذا المجتمع المتحول الذي «تصوّره» الرواية فكانت تلك الاصلاحات التي نفذتها الحكومة «تحوّلات كبيرة في دلالتها ورمزيتها مقارنة بالوضع الذي كان عليه الزقاق قبل حدوثها ويمكن حصر اهم هذه الاصلاحات التحتية في «الماء والكهرباء والجسر والتوسيع وبناء الواجهات فلقد كان اهل الزقاق، قبل ذلك يشربون اماء الوسخ الآتي من النهر ولم يكن على دوده وطينه متوفرا الا بالقدر الذي تسمح به حالة زكية الصحية وقدرتها المحدودة، كما كان السكان «مثل الدجاج» ينامون بمجرد حلول الليل، فالبيوت تغطس في ظلمة دامسة «وليس هناك من يجرؤ على الخروج» (ص. 36). كما كان الزقاق معزولا عن الجهة الاخرى لان الجسر الذي يربطه بها خاضع للهواء إذا اشتد انقطع، ويضاف الى هذا الحصار ما كان يعانيه اهل الزقاق من ضيق داخلي وخارجي ووطاة يجعلان مظهره قبيحا، كما قال رئيس البلدية. ولقد كان جلب الماء الى الزقاق اول مظاهر التحول الحادث في الزقاق، اذ توافق مع دبيب الحركة في هذا «الفضاء» الساكن، ثم تلته تغيرات اخرى تمثلت في انتصاب اعمدة الكهرباء التي احالت الليل الى ضياء وحركة، ثم ارتفاع الجسر، وتوسيع الزقاق وبناء واجهات المنازل بالطابوق، فعوّض الارتواء العطش، وحل النور محل الظلام والاتصال مكان العزلة، والاتساع موضع الضيق، وصار القبح جمالا واكتسب الزقاق هيئته الجديدة... «وبدا مشرعا امام الشمس والهواء» (ص. 193)، ويبدو ظاهرا، ان هذه الاصلاحات ليست سوى مجموعة مرافق جلبت الى «حي شعبي»، لكن الواقع ان ما تنطق به الرواية يتجاوز ذلك ليشير الى ان ما حدث ليس امرا هينا. وان بدا كذلك فاذا نظرنا في العلاقة التي كانت قائمة بين الزقاق والمدينة وجدنا عالمين مختلفين

لا يربطهما رابط، فالزقـاق طفيلي منبت كاهله الذين تركوا قـراهم وقصدوا المدينة يطلبون ودها، فبقوا على مشارفها، اذ مـا عادوا قادرين على العودة الى الريف، وما رضيت المدينة ان ينتموا اليهـا.. ثم جاءت هذه الاصلاحات لتضعهم في مدار المدينة وتضع حدا لحافة اللاّ انتماء التي كانـوا يعيشونها، فاذا هم الجسم المشوه الجامد يكتسب صفات الحياة، فبعـد ان كان بلا شرايين، امتدت فيـه المواسير وتدفق الدم ؟الماء) كما حلت البركة بحلول الكهـرباء فصارت للزقاق حياة اخـرى «كان الظلام يغطيها» (ص. 241)، وصـار هذا الجسم مبصرا بعـد عمَى. امـا الجسر الحديدي، ففيه قوة هـذا الجسم «المريض»، وقدرته على الحركة، ولم يكن هـذا الزحف المادي كما اسلفنا، مجرد اصلاحات ماديـة او تغييرات شكلية، لانه اقترن بتحولات اعمق في مستوى «البنيـة الفوقيـة»، ولعل اهم مظاهر هذا الاقتران تتمثـل في ان الحركة التي دبت في الـزقاق في مستـوى الاعضاء كـانت في ذات الوقت حـركة في مستـوى الدّماغ والتفكير، فالكهرباء والماء والجسر ليست سوى علامات دالة على ان مجتمعا جديـدا بصدد النشـوء داخل المجتمع القديم. فمع هـذا الزحف المادي كـان الزحف الفكـري المتمثل في وعي الفئـات المسحوقـة بـانسحاقها ومن ثم عملهـا على تغيير الوضع من خلال الضغط المتواصل على التحالف الاقطاعي السياسي المهيمن، بهدف ان تاخذ لها مكانا تحت الشمس لتصبح فاعلـة لا مفعولا بها، متصلة بالحياة غير منفصلـة. ان الزقـاق رمز لمجتمع بـدأ يعي حقيقة مـوضعه من عـلاقات الانتـاج السائدة، ويتهيا للفعل.

ان البنية الـدلالية للنص «ورؤية العالم» ومـا بين البنية والرؤية من عـلاقات تفاعل تتجلى في هذا الوعي الذي تعبر به هـذه الطبقة عن وجودها في علاقاتها فيما بينها من ناحيـة، وبينها وبين الطبقة المتغلبة التي تعتمد القهر اسلـوبا للبقاء من ناحية اخرى، وقد صاحب هذا الوعي المحول ما يشبه القطيعة سواء، داخل الطبقة ذاتها او بينها وبين عـرمائها الـذين بيدهم السلطـة، وقد تجسم هذا الـوعي ـ في الروايـة ـ في ظهور جيل جـديد يمثله عزيـز وعباس وكامل وهـاتف، وعى حقيقة الوضع، فلم يـرض، وعمل بكل الوسائل مـن اجل احداث التغيير ومن اجل ان يعم الضياء كافة البيـوت ولذلك يرتمي «كامل» في الشارع العريض، ويـرحل عزيز الى بغداد ويعود هـاتف الى البادية بعد ان نشر فكرتـه بين عشرات العمال، ومدّ بينه وبينهم جسرا لا يتحرك ، واضـاء عقولهم واعـاد اليها دفق الحيـاة ثم ان هذا المد الواعي لم يقتصر على معاداة القهـر المسلط من اعلى، بل امتد ليصبح عملية تطهير داخلي، تمحـو كل مـا يشـد المجتمع الى الـوراء ويعطل فيـه قـوى التفكير فيحيلـه سكونيا يعلي من شان الغيبيات (الشيخ علي) ويعتـز بالماضي فيلوذ به هروبا من الحاضر، ويقبل الفقر والقهر وكانهما قـدر محتوم. وقـد بدأت تلـوح بوادر هـذه «الثورة الداخليةو من خلال مـا يمكن ان يسمى بالقطيعة بين جيلين داخل الزقاق جيل يـرضى بالدون ويتقبل الواقع بـاشتهاء وقناعـة، شان «حميد» الـذي ياكل بيضة ثم يـربت على صدره «علامة الرضى» (ص. 13) او «جبار» الذي يجد لذته في الحصول على دينـار في اليوم ولا يطلب المزيـد، حتى اذا اصابت احـدهم مصيبة زار ضريحا او قرأ طـالعه واكتفى بـذلك حـلاً. اما الجيل الثـاني فكثير الاحلام، لا يقنع بالقليل، يرى في موقف الكبار رضى بـالذل والكفاف، يكتشف الغبن تدريجيا

كما انير الزقاق بالكهرباء فيعلن الغضب، ويتكتل من أجل تحقيق احلامه، ولقد افضت عملية التطهير الى موت الضعفاء (حسنة وياسر؛ وطرد المارقين عن الاجماع (ياسين)، وفرار الجبناء (العريف مظهر)، واعتراف من لا قدرة له بعجزه وتسليمه بان البقاء للاصلح، يقول الشيخ علي لحميد:

«أنا وانت عجوزان لا نقوى على شيء فدع الشباب يفعلون» (ص.203).

إن هذه التحولات المادية والفكرية تشير بوضوح الى اننا نشاهد في «القمر والاسوار» مجتمعا في احدى منعرجاته الحاسمة، يفقد توازنه ويتحول بعمق وبطء ويمهد للثورة.

● **خاتمة :**

لقد التفت الربيعي في «القمر والاسوار» الى مسالة من «المسائل المؤجلة»، كما يسمّيها، فعاد الى فترة قديمة نسبيا من تاريخ بلده ـ العراق ـ فكتب روايته استجابة لإلحاح فكرة التاريخ عليه، فكانت القمر والاسوار كما أرادها ذات بعد تاريخي من حيث هي تتناول عراق نهاية الاربعينات وبداية الخمسينات، حتى انها لتكاد تبلغ مرتبة الوثيقة لما فيها من اشارات دقيقة الى احداث تاريخية محلية او قومية او عالمية، وذكر لشخصيات سياسية معروفة وايراد لمقتطفات من مقالات او مواقف عرفها من عاش تلك الفترة او أرّخ لها كما كانت الرواية سياسية من حيث كشفت ـ بوعي من الكاتب او عدم وعي ـ عن حقيقة الوضع السياسي القائم على مفهوم «الصراع» بين السلطة وغرمائها، هذا الصراع الذي اتخذ شكلا تقابليا اطرافه الاستبداد والثورة، والعلم والجهل، والصمت والكلام، وقد بدأ الصراع في شكل همسات ليتحول الى كلمات ثم الى ممارسة سرية لينقلب في نهاية الرواية الى صراع فعلي ميدانه الشوارع ومداره السلطة، وقد صحب هذا التغير السياسي تغيرا اجتماعي شكل البعد الثالث للرواية وتمحور حول مجموعة من القيم تتنازع حولها السلطتان الروحية والسياسية فالاولى تحلل وتحرم باسم الدين والاخلاق والشرف، اما الثانية فتحلل وتحرم باسم المصلحة وحب البقاء، فاذا للصوصية مفهومان، وللشرف معنيان يرفضهما الجيل الجديد ويحاول ان يشتق لنفسه سبيلا بكرا بعيدا عن هيمنة المسجد او سطوة السلاح. أما البنية الاقتصادية التي تبدو ثابتة كالابد فقد كانت تتاكل من الداخل وتسعى الى حتفها بظلفها اذ تهجر الفلاحين الى المدينة ليزداد عدد الحاقدين على السلطة السياسية حليفتها التاريخية، وفي تطور الحقد بداية نهايتها. ولئن انتهت الرواية ولم يتغير من هذا الواقع السياسي او الاقتصادي او الاجتماعي ما يمكن ان يعد تحولا حقيقيا فان التحول الفكري الحاصل كفيل وان كان خفيا بان يحيل الفكرة الى واقع. وهذا ما تقوله الرواية: «هذه البداية والايام حبلى» (ص. 266).

محمود الهميسي

الهوامش والاحالات:

*. يمثل هذا المقال قسما ثانيا من بحث نشر الأول منه بمجلة المسار (العدد 11. ص.124 ـ 130) قدّمنا فيه الرواية وهيكل البحث وخلاصة القراءة التاريخية وبعضا من القراءة السياسية وقد اعتمدنا في هذا العمل الطبعة الثالثة للرواية (تونس 1982) والى صفحاتها يشار داخل النص تيسيرا.

1 ــ الأمير عبد الاله (1913 ــ 1958): الوصي على عرش العراق اثر مصرع الملك غازي الاول وتعيين الطفل فيصل الثاني ملكا (1939)، صار وليا للعهد في 1943، قتل مع أفراد العائلة المالكة في ثورة 14 تموز 1958.

2 ــ «مدخل لتجربة عبد الرحمان مجيد الربيعي القصصيّة». ط 1. دار النضال. بيروت. 1984. ص 40.

3 ـ أفنان القاسم: «ع. م. الربيعي والبطل السلبي في القصّة العربية المعاصرة» ج 1. ط 1. عالم الكتب. بيروت. 1984. ص. 291.

4 ـ المرجع السابق. ص 295.

5 ـ إشارة الى قوله تعالى: «الا من تاب وآمن وعمل صالحا، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» (الفرقان الآية 70)

6 ـ زعيم عراقي (1892 ـ 1965) رأس الوزارة العراقية عدة مرات، حاول قلب النظام سنة 1941 ثم فر الى تركيا فالمانيا فالسعودية، عاد الى بغداد سنة 1958 فاتهم بالتآمر وحكم عليه بالاعدام شنقا ثم سرح سنة 1961.

7 ـ نقلا عن، عيسى بلاطه: «بدر شاكر السياب، حياته وشعره» ط. 1. الدار التونسية للنشر 1988. ص 28.

8 ـ (1895 ـ 1957): من مواليد الناصرية من اسرة فقيرة، تولى الوزارة مرات.

قصة

«محمود ولد محمد الصالح»

صالح الدمس

الحكاية بسيطة أنا وزوجتي ذهبنا الى تونس ولكن لا تستعجلوني فأنا لا يمكن أن أسرد عليكم الحكاية هكذا صبة واحدة وقد ابتليت بهذه العادة السيئة ولا يمكنني التملص منها لذلك لا بد وأن نتفق لان تقولوا فيما بعد لقد هملت بنا يا سيد وبدأت تخرج وتأخذ من الجابية وتضع في الخابية وان كان اليوم ليس في بيوتنا لا جابية نأخذ منها ولا خابية نضع فيها وهذا الكلام الاخير من عند زوجتي فقد كانت دائما تمط شدقها وتقول لي تركتنا هزأة أمام الناس تكتب عن حياتنا في الجرائد فيعرف عنا الجيران ما حق لهم أن يعرفوا أرأيتم لقد نبهتكم من الأول ألا تدعوني أسيح وأبعد بكم عن أصل الحكاية وهذا ليس ذنبي فقد تعلمت ذلك عن استاذي الذي كان إذا حدثنا كيف تحصل على الإجازة يبدأ من بعيد جدا من ساعة خروجه من مخرج بول أبيه إلى مخرج بول أمه وكان معجبا بنفسه كثيرا وقد كنت اعجب لهذا الذي تعجبه نفسه وقد خرج من مخرج البول مرتين والحكاية يا سادتي اني ذهبت وزوجتي الى تونس وهذا ليس بالعجب بالنسبة إليكم أليس كذلك؟ ولكن عجبه بالنسبة لنا لأننا لا نزور العاصمة الا مرات قليلة وكنا نخطط لذلك أشهرا واشهرا وربما بقينا سنة وأكثر دون الذهاب إليها لذلك تبقى زياراتنا الى العاصمة كمواقيت الحج لا بدّ أن نذكرها دائما ونخطط لها دوما وأنا رغم كرهي للعاصمة فقد كنت مضطرا دائما إلى الرضوخ والسمع والطاعة أمام أوامر الزوجة التي لا يروق لها شراء لوازمها إلا من هذه المدينة وأنا لا أكرهها لبناءاتها وشوارعها وحوانيتها

ولكن لعبادها وإلى الآن لم أفهم لماذا هنالك يفتخر الواحد منهم بأنه ابن قحبة أرايتم كيف بدأت أهزّ وانفض وإلا ما دخل هذا الحديث في حكايتنا وما كنا عليه مجبرين وإلا إلى قوله مكرهين ترى ماذا يحدث لو زرت العاصمة مرة أخرى واعترضني أحد سكانها وقال لي أنت قلت كيت وكيت في الجريدة ترى ماذا أقول له خاصة إذا كان هو بالذات ولد قحبة ولكن دعنا من هذا الآن لو تماديت أخبط هكذا وأدخل حكاية في حكاية لطالت حكايتنا ورفضت الجريدة نشرها والجرائد لا تحب الطول ولا القصر فهي تريد قصصا حسب المساحة التي عندها وتعامل القصاصين والفصالين سواء فإذا اطلت فلن تقرأوها وإذا لم تقرأوها فلماذا اكتبها إذا لتقرأها زوجتي التي لا تفهم الجريدة إلا أنها لفافة تضع فيها الفواضل وقد حدثت لي معها نوادر حتى إني صرت دائم التفتيش في صندوق القمامة عن قصاصات قد خبأتها في مكتبتي فرمت بها الزوجة في الزبلة وكنت احتاط إلا أقوم بذلك إلا خلسة حتى لا يراني جار من الجيران فيظن بي الظنون كأن يقول جنّ الرجل مثلا وتلك نهاية من يقرأ الكتب وأنا على يقين ان فيهم من يظن ذلك فهل أحول ظنه الى يقين ولكن تلك حكاية اخرى قلت لكم ذهبنا الى العاصمة كان اليوم جميلا صحت فيه السماء وكانت زرقاء كغلاف هذا الكتاب الذي اضع عليه الورقة التي اكتب فيها هذه الحكاية لعنة الله على الشيطان الرجيم ما هذا التشبيه كيف أقول لكم هذا والكتاب على ركبتي الآن وأنتم لا أدري أين ولكن صدقوني غلاف الكتاب أزرق صدقوني أرجوكم فأنا لا يمكن ان أكذب عليكم...

لما لفظتنا الحافلة في باب العسل كان لا بدّ لي من اعادة التوصيات الالتحاف جيدا عدم الالتفات فهنالك كل امرأة تلتفت نصف التفاتة تجلب صفا من العزاب كلهم يدعونها لجولة قصيرة في ربوع سرير في شقة ضيقة لصديق متغيب والسير بجانبي وهذه هي مشكلة المشاكل لنا نحن الاثنان فزوجتي تقول لي دائما لا تسرع وأقول لها دوما ترهقني في مشيتك وقد يحدث لي ان أسهو فأسير بعض الخطوات ثم التفت إلى شمالي فلا أجدها حذوي فأدير عنقي فإذا هي ورائي بعشرات الامتار فأتوقف حتّى تلحق بي وتقول غالبا تمهل فالحذاء جرح قدمي تعود فتعود إلى تخلفها وهكذا دواليك ولكن لا يفهم كل ذلك الآن لاننا حين وصلنا الى العاصمة تذكرت فجأة صديقي محمود ولد محمد الصالح وهو من أترابي عشنا مع بعضنا

في حومتنا القذرة صيفا شتاء وقد ضربني مرة بحجر فشخ رأسي وسال دم كثير وأرعد أبي وأبرق وكادت المسألة تصل إلى الشرطة لولا تدخل الجيران الذين هدؤوا أبي وقالوا له اننا اخوة ولا يصح أن تصل مشاكلنا إلى الشرطة وقد فهمت حكاية الاخوة لما كبرت وعرفت لماذا يقول الناس ان الفرخ لا ينقر الا عين أخيه ولكن ذلك تاريخ قديم ثم كبرنا انا ومحمود ولد محمد الصالح في حومتنا تلك وكانت زوجتي في ذلك الوقت تكبر هي أيضا من جهتها ولكن في حومة أخرى وكي لا ندخل داموسا آخر من هذه الحكاية سأسرد عليكم بسرعة حكاية محمود ولد محمد الصالح الذي حين كبر ابتلى بالمسرح وصار لا يفكر في شيء سواه حتى ان بعض الناس في قريتنا صاروا يتهامسون بحكاية جنون محمود وتبدل طبعه فجأة فأطلق لحيته.وحلق شعر رأسه ولا فائدة من ذكر الصورة التي أصبح عليها لأني على يقين من انكم فهمتم.كيف كان ذلك ثم بدأ يجذبنا نحوه نحن أترابه حتى ابتليت مثله وصرنا مجموعة لا هم لها سوى المسرح حتى أن زوجتي أحيانا تعيرني تقول لي يا من كنت فرجة أو تقول لي لما كنت عزباكانت الناس يتفرجون عليك واليوم حين تزوجت صرت تكتب عنا في الجرائد ألا تستحي يا رجل وتهتم بما يزيد وينقصك وهي تقصد نفسها طبعا لكن لا يهم ذلك الآن لأني لما تذكرت فجأة محمودا ولد محمد الصالح قررت الذهاب إليه لأراه ونتحدث قليلا أو كثيرا عن المسرح فلا بدّ وأنه ما زال كما كان فرجل مثله لا يمكن ان يتغير فقد كان يقول لنا دائما لا تتقدم أمة ليس فيها مسرح وأسررت إلى زوجتي بالامر فقالت لا بأس لكن لا تبطىء عندد كثيرا فنحن كما تعلم سنسير أميالا بحثا عن السوار الذي ان لم أجده وأرجع به في يدي أمت هنا في العاصمة ولترتاح ساعتها من خلقتي فتمنيت من أعماق قلبي ان نعثر على السوار عند اقرب صائغي كي لا أرزأ في الزوجة الحبيبة.

انحدرنا الي قلب العاصمة التي كانت كمجنونة وزغردوا في أذنها صخب غبار وزحام أتباطا في السير كي لا يتسع بيني وبين الزوجة فارق المسافة أعين الشبان والكهول والعجائز تلتهم كل شيء تبحلق تخزر تدقق ما اصح عيون أهل العاصمة نحن في قريتنا لا ينظر الواحد في وجه الآخر حياء أما هنا لأشكال أخرى لعنة الله على عيونهم.

لما وصلنا أمام العمارة التي يشتغل فيها محمود ولد محمد الصالح

كـرئيس قسم تنهـدت زوجتي وقـالت لـو ان لنـا شقـة مثل هـذه الشقق المرصوفـة فوق بعضها كعلب الثقـاب فقلت لها احمدي ربك يا ابنـة الناس وانظـري إلى أسفل كي لا يصيبك الـدوار ثم تقـدمت نحـو الحاجب الـذي يجلس الى طاولة في البهو فسلمته سيجارة ثم صبحت عليه وأمرت الزوجة ان تنتظر فسأعود إليها بسرعـة صعدت المدرج الاول بسهولة ثم أحسست بالتعب يأخذني من ركبتي ورجلي وشعرت سـاعتها اني بدأت أكبر فها اني لا اقدر على صعـود اربعة مدارج الا والتعب يتملكني من هذه الليلـة سوف آمر الزوجة بوضع إناء الماء بجانبها كي توقظني ليلا طلبا لشربة ماء فيطير الكرى مـن عيني لانه لو تمادت حكـاية الماء هـذه فإني لن استطيع في المرة القادمة صعـود مدرج واحد لتشرب ما طـاب لها ثم ما دخلي انا ان عطشت هي في قلب الليل أكان من اللازم عليها إيقـاظي حتى يحدث ما حدث لي ها إني لا اقدر على مواصلة الصعود توقفت قليلا ثم امسكت بالعمود الحديدي الملتـوي مع سيـاج المدارج واتممت سيري حتـى وصلت الى الطـابق الـذي يشتغل فيه محمود كـان هناك حاجب عجوز تقـدمت علبة السجائر قبل ان أكلمه سلمتـه سيجارة وصبحت عليـه ثم اعلمته بـرغبتي في مقابلـة السيد محمود امهلني قليـلا ثم وقف واتجه نحو المكتب نظـرت إلى الكرسي الخالي الذي كان يحتله الحاجب ورميت بجسمي عليه عاد الحاجب بسرعة وأمرني بكتابة اسمي على بطاقة الزيارة التي سلمها لي، عاد من جديد إلى المكتب ثم رأيت الباب ينفرج وظهـر محمود ولد محمد الصـالح صديقي القديم أسرع نحوي فاتحا ذراعيه ارتمينا في أحضان بعضنا قبلني اربع مرات ثم قال لي:

ادخل يا حبيبي ادخل.

دخلت تبعني محمـود اغلق البـاب وراءنـا بسرعة دعـاني للجلـوس على أريكة لـو شاهـدتها زوجتي لامسكت بتلابيبـي وقالت لي انظـر إلى اندادك ولكني انصرفت عن ذلك التفكير الى التحديق في محتويات المكتب كانت هنالك أشياء لا يمكن أن أصفها لكم لأني لا اعرفهـا ثم كيف تريدونني ان أصف كل ذلك الثراء وأنـا الذي أتخاصم دائما والزوجة التي تـريد مني ان أقسم علبة السجائر على اسبوع كامل ، فجأة محمـود قال لي : يا هذا ما لك تنظر إلى الستائر والتحف والـزرابي بأعين مخذولة أرأيت يا صـديقي هذا النعيم الذي أعيش فيه سـوف أريك اكثر من هذا عندما تـذهب معي الى المنزل لقد

حققت حلمي لقد كنت دائما أحلم بالترف أتذكر أيام الصغر حين كنا نجتمع في النادي لنتدرب على مسرحية لقد كنا نقتسم السيجارة أف لذلك الوقت أو تدري يا صديقي إني نادم على تلك الفترة التي قضيتها معكم في المسرح كان علي أن أكون أكثر فطنة وأحسن تدبيرا كي لا اترك الزمن يمـر في حكايات فارغة ترى أي فائدة جنيتهـا من ذلك التعب الذي تعبته وأنت تعرف الحياة نفسها مسرحية طويلة انا قررت ان امثل دوري الحقيقي في هذه الحياة كان علي ان استفيق قبل ذلك بكثير ولكني استفقـت على كل حـال أي مسرح يـا رجل وأي شعر وأي ثقافة اتدري الدور الذي كنت أحلم بالقيام به أمارسه الآن كل يـوم الدور هـو سمراء ضـامرة ذات نهدين ثـائرين وثغر بـاسم امسكها من خصرها وارقص صحبتها في علبـة ليل انت لا تعرف هذا الدور ولن تعرفـه ولن تمثله اقعـد في مكانك فستتعب كثيرا ثم ينسـاك كل الناس اعمل مثلي قبل ان ينسوك انسهم انت أو تدري ان احسن قصيدة شعر هي التي تكـون ابياتها أوراق نقـدية صنف عشرين دينـارا أو تدري أي إيقـاع سيكـون لها حين تحتك تلك الأوراق ببعضهـا أي شعـر وأي مسرح وأي مضيعة للوقت عش يا أخي عش.

لم أكن قد تكلمت بعد ولكن صديقي محمودا كان قد سبقني الى ذلك لم أكن انتظر منه هذا ربما خـزر اني كنت سأحدثه في ذلك الموضوع فسبقني إلى ذلك كنت انظر إليه وهو ينظر حولي ومن خلفي واسترجع صورته قبل ذلك بكثير حين كنا في قريتنا نمارس هوايتنا كان كثير الحركة ولكن لم تكن له كرش كبير مثل الذي يحمله الآن أمامه لم يكن له سروال كالسروال الذي يلبسه الآن ولا حذاء كالذي يعفس به الآن وضعت يدي على ركبتي طأطأت رأسي وانتصبت واقفا أراد صـديقي محمود امسـاكي كي أعود الى جلستي ولكني كنت في حـاجة الى البكاء أسرعـت نحو الباب ادرت المفتـاح وأسرعت اتدحرج والمدارج نسيت التعب وجدت زوجتي تنتظرني أمام الباب قلت لها هيا بنا لاحظت زوجتي ارتباكي وحزني قالت لي : ما بك ألم تقابل صديقك محمودا ولـد الحاج محمد الصـالح اجبتها : بلى فتساءلـت : إذا ما لك كمن يتقبل العـزاء فقلت لها : فعـلا أنـا كذلك لان محمـود انتحـر اتسعت عينـا زوجتي وقالت لي : مسكين ما يزال صغيرا.

وابتلعتنا المدينة من جديد.

صالح الدمس

مقتطف من رواية

حُلْمُ لَيْلَةِ حَرْب
أو
الرّحلة الثامنة لسندباد البحر

محمد رضا الكافي

1-

أعوام كثيرة مرّت على السيِّد أندري دوفينيو، أستاذ الأدب العربي بجامعة باريس الثّالثة، وهو يشتغل باجتهاد، وتفان على نصّ «ألف ليلة وليلة» في مختلف صيغه التي وصلت إلينا عبر قرون من التّداول بين شعوب المشرق والمغرب، ضمن سلسلة متّصلة من الرّوايات المثيرة، أضفى عليها حُكاةُ الهند، ورواة السِّند، ونُسّاخ بلاد الفُرس، ومترجمو العرب ألوانا من الخيال الجامح وأشكالا معقّدة من القصّ، صار من العسير معها تحديدُ الرّحم الأوّل الذي انبثق منه نصّ الليالي، أو معرفة تاريخ ولادته، أو حتّى مقاربة الظّروف التي حفّت بظهوره وانتشاره، واكتساحه الأصقاعَ تلو الأصقاع، وصولا إلى مكتب السيد دوفينيو في هيأة لغز عصيٍّ، ما يكاد يفتح إحدى مغالقه حتّى يزداد انعتاما، كأنّما عمليّة الجوس لظلماته لا تعدو أن تكون نجيفا في فسحة من ضباب الأيام والأعمال.

ولأنّ السيد دوفينيو لم يكن عنيدا فحسب، بل مكابرا أيضا، شديد الإعتداد بنفسه، يتمسك بأفكاره، ويمعن في الدّفاع عنها، وإثبات صوابها (حتّى في صورة خطئها!) مهما كلّفه ذلك من أتعاب لا يتوانى في تجشمها بإصرار ومثابرة نادرين، لا يدعوان إلى الدهشة بقدر ما يثيران نوعا من الشّفقة في نفوس زملائه الباحثين، فقد قرّر أن يقدّم ما تبقّى من عمره قربانا لشهرزاد («أجمل رهينة في تاريخ الأدب»، كما كان يحلو له أن يسمّيها)، فيقضي كل أيّامه وبعضا من لياليه في نفض الغبار عن مئات المجلّدات القديمة، وفحصها عن قرب، وتقليبها، وتفكيكها، وتحليل أجزائها،

والمقارنة بينها، والمقاربة، والمطابقة، والحفر في متن النّصّ، وتهوئة حواشيه، و... لعلّـه يتوصّل أخيرا إلى تحديـد مـا أسماه بـ «النصّ الـرّحمي الأول»، والـوقوف على حجم الإضـافـات التي تـراكمت عليه عبر القـرون في شكل طبقـات متواتـرة، متراصفـة، متراصّة، بل ومنـدمجة كلّهـا في نسيج النصّ الأصليّ المتوالد من ذاته باستمرار، وبصورة صار من العسير معها تخليص الجوهرة الكامنة من شرنقتها الصخرية الصلدة.

وإذا كان السيد دوفينيو يطمح ـ في نهاية بحثه المضني هذا ـ إلى نشر ما يتصوّر أنـه الصيغة النهـائية لنص «ألف ليلـة وليلة»، فإن همّه لا يكمن في دراسة التحوّلات التي شـهدهـا هذا النصّ من صقع إلى صقع ، ومن لغة إلى لغة، ومن عصر إلى عصر (فهي ـــ في افتراضه ـــ جزئيـة، رغم أهمّيتها، ولا تُطال البنيـة العامة للنّصّ)، ولا في مقـاربة حركيّـة النصّ عبر التاريخ، من حيث هـو مادة خيـالية تنبىء عـن وقائع مـادية، ولا حتى في الإستضـاءة بالنصّ لجوس ظلمات ماض بعيد، ولا في أي مبحث رفع التّحدّي، كلّفه ذلك ما كلّفه من أتعاب ونفقات.

***

كانت فُكـرة إنجاز هذا البحث راودت السيد دوفينيـو منذ عشر سنوات، وبالتّحديـد في يوم السادس عشر من شهر جـانفي عام 1981. وهو يـذكر هذا التاريخ جيـدا، وأنّى له أن ينساه وهو يطـابق عيد ميلاده الأربعين من جهة، وبداية مشاكله مع زوجته كـاترين من جهة ثانية. كانت هذه الأخيرة قد خرجت للتّوّ من فترة إنهيار عصبيّ مـدمر، واستعادت بعضا من شهيّة الحياة، فارتمت في أحضان طالب قميء، وفرّت معه يومها بالذات إلى إيطاليا في فسحـة مجون وعربـدة، قبل أن تعود بعـد أسابيع من التسكّع لتطـالب بالطلاق، فتحصل عليه بسرعة كانت أول من اندهش لها.

كان السيد دوفينيو قد عاد يومهـا من جولة مسائية عبر غاليريهات حي «لوماري» حيث يحظى ببعض صداقات قـديمة صمدت أمام كلّ العواصف. استلقى على الأريكـة قبالـة التلفزيـون، ثم مدّ سـاقيه أمـامه على السجّـاد الفـارسيّ، مريحا رأسـه على راحة يـده. ظلّ يحلق في أشيـاء الغرفـة دون تـركيز، فيكـاد بصره لا يقع على أي شيء محدّد، لكنّه سرعـان ما أفـاق من ذهوله، ورفع كُمّ القميص بحركة آلية لينظـر إلى ساعته اليدويّة، فتذكّر أنهّا معطّلة منذ أكثر من أسبوع، فنهض وعاد إلى الرّواق. كانت الساعة الحائطية تشير إلى السـاعة العـاشرة مساء. عـاد إلى الصّالـون، وفكّر في فتح جهـاز التلفزيون، لكنّه وجـد نفسه يسير دونَ إرادة نحو المكتب، يجلس، يفتح أحد أجزاء «ألف ليلـة وليلة» في تـرجمةَ غَالأن التي لا تفارقـه أبدا رغم مـا كان

لديه إزاءها من احترازات علمية، وينهمك في قراءة الصفحات الأخيرة من حكاية سندباد البحر. بعد برهة من الغياب عمّا حوله، توقف عن القراءة، أغلق الكتاب، وعاد إلى الصالون بحركة لا إرادية، كالمدفوع بقوّة سرّية، فعثر حذو جهاز التلفون على ظرف صغير خطّت عليه بقلم أحمر هاته الكلمات «عزيزي أندري»، ففضّ الظرف، سحب منه الورقة، قرأ ما فيها بهدوء كبير (فقد كان ينتظر من زوجته حركة متهوّرة مثل تلك التي أقدمت عليها)، أعادها إلى مكانها، وعاد إلى مكتبه، سحب ورقة بيضاء من الدّرج، وخطّ عليها السؤال الذي أقضّ مضجعه خلال الأيام الفائتة : «هل كان لا بدّ لسندباد البحر أن يغادر ميناء البصرة ليقوم برحلته السابعة؟» فكانت تلك بداية رحلته المضنية الطويلة مع شهرزاد التي سرعان ما ملأت عليه كلّ أوقاته، فأنسته حماقات كاترين، وعوّضت عليه تجربة العزلة التي فُرضت عليه بسبب نوع نادر من الشيخوخة المبكّرة.

يومها، راود السيد دوفينيو إحساس غامض وملحّ بأن الرحلة السابعة لسندباد البحر ما كان يجب أن توجد في النصّ الأصليّ (طبعا، مع افتراض وجود هذا النص أصلا!)، وأنه من الأرجح أن تكون قد أضيفت إليه في فترة لاحقة من تاريخ تداوله الطويل بين شعوب الشرق، فرحلات سندباد البحر تنتهي في تحليله عند الرحلة السادسة، لما عاد البحّار المغامر إلى بغداد، وحلّ ببلاط الخليفة هارون الرّشيد، فروى له ما عاناه من تجارب مريرة، وتجشّمه من أتعاب جسيمة، وكابده من مصاعب شتّى، وخاصه من غريب المغامرات، فأعجب الخليفة بذكائه وشجاعته وسعة اطّلاعه، وأمر بكتابة حكايته، وجعلها في خزائن المملكة، ليعتبر بها من آخر من هذا الصنّف... بل إن كلّ همّه يتمثّل في ضرورة الوصول إلى الخلاصة، إلى الجوهر، إلى الأصل، وذلك (ربما!) عن تعلّق فطريّ لديه بمطلق البدايات وهوس بنقاوة الأشياء من أدران الزمن العابر.

ومهما كان التأويل الذي ارتآه البعض لإدمان السيد دوفينيو على دراسة ليالي شهرزّاد المليئة بهمس الأميرات المهجورات، وجدل الملوك المتحبّرين، وجنون العُشّاق الولهين، وغدر السحرة، وحشرجة الوحوش، وعويل الغيلان...، فقد وجد باحثنا نفسه، بعد أعوام من العمل المتّصل الشاقّ، أمام عدد مهول من المعلومات الجغرافية، والتاريخية، والدينية، والأنثروبولوجية، والأدبية، والألسنية، والمعجمية، وغيرها، وبلغات كثيرة، شرقيّة منها وغربيّة، وبرغم ترتيبه لها في جذاذات مختلفة الألوان والأحجام، ودفاتر، وصناديق، وأدراج، ورفوف، وغيرها من وسائل الحفظ والتنظيم المكتبي، فقد بات يتحرّك بصعوبة وبطء كبيرين في مسالك بحثه التي تشعّبت، وتفرّعت،

وتوسّعت، وأوغلت في اتجّاهات عديدة، بحيث بدأ هذا البحث يأخذ حجما لم يتوقّعه من قبل، بل كاد أن ييأس من إمكانية إيصاله إلى شاطىء آمن، فكان كلّما شعر بالإحباط يتسلل إلى وجدانه، يهجر شقّته الواقعة بإحدى أجمل البنايات بالحي اللاتيني بباريس، ويغيب أسبوعا أو أسبوعين يقضّيهما بإحدى «بلدان التّخوم» (وهي في عُرفه بلدان جنوب شرقي آسيا)، لكنه يعود كل مرّة ليغرق في عمله من جديد، بنهم وإصرار متجدّدين. فقد كان على يقين من صحّة الفرضية التي بنى عليها بحثه، ولعل سخريّة بعض زملائه واستخفافهم به قد زادا من شحذ إرادته وحفزه على العمل من أجل يقرأها من المسلمين.

هذا الاحساس بدأ يتحوّل مع مرور الأيام إلى قناعة راسخة ثابتة لا يُطالها الشكّ (خاصة إذا كان مصدره بعض الزّملاء الخانعين، من دعاة الجهد الأدنى والكسب السّمين!)، فصار السيد دوفينيو لا يترك فرصة تمرّ دون أن يدافع فيها عمّا أسماه «نظريّة الحلقة الضعيفة» التي تحوّلت إلى نكتة يتندّر بها زملاؤه في أروقة الجامعة وقاعات الندوات، وتتلخّص في اعتبار حكاية سندباد البحر «حلقة ضعيفة» في سلسلة «ألف ليلة وليلة»، لذلك يجدر بالباحثين اعتبارها المدخل الأنسب لدراسة البنية العامة للّيالي، وحركيّة تشكّلها عبر العصور، والظروف الحافّة بـ ...، إلخ. وبالطبّع، ركّز السيد دوفينيو بحثه منذ البداية على هاته الحكاية، لعلّه يلمح أخيرا شعاع ضوء يساعده في الخروج من سجن شهر زاد ومتاهاتها العجيبة.

* * *

في تلك الأثناء، أسرّ السيد دوفينيو لأحد الأصدقاء، بالمصاعب التي صار يواجهها في لمّ شتات عمله وإضفاء مسحة من الإنسجام على مختلف فصوله المتناثرة كحبّات عقد منفرط، فأشار إليه بضرورة الاعتماد على الحاسب الالكتروني، لما يقدّمه هذا الجهاز من تسهيلات لا تقدّر بثمن في مجال تنظيم المعلومات، وفرزها، وخزنها، وإعادة ترتيبها باستمرار. ولكي يقنع السيد دوفينيو بأن العمل على مثل هذه الأجهزة لا يتطلب تكوينا تقنيا خاصا، دعاه إلى تناول كأس ويسكي بشقّته المطلّة على حديقة مونسُوري، حيث قدّم له عرضا تبسيطيّا لطريقة عمل الحاسب، ثم دعا إبنه الصغير الذي لم يتجاوز العاشرة، وطلب منه تشغيل الجهاز، وإنجاز بعض الأعمال التي بدت للسيد دوفينيو معقّدة إلى حدّ كبير، لكنه تمكّن هو أيضا (ولو بمساعدة طفيفة) من القيام بها على أفضل وجه، وبسرعة أثارت في نفسه إحساسا غريبا ـ لعله مزيج من دهشة ومن ذعرٍ ـ فانفجر بضحكة دوّت بها حنجرته، وارتدّ صداها ضاجا موحشا في أركان الشقة الفارغة : «هل

رأيت؟ إنه بمثابة مصباح علاء الدين...» تمتم السيد دوفينيو، وهو يسوّي القبعة على رأسه : «فعلا، فعلا...»، وقبل أن يتخطى البوّابة الحديديّة الضخمة، ويقذف بجسده إلى ظلمة الحديقة، كان بعدُ قد أخذ قراره، فلم تكد تمضي على تلك المحادثة أيام قليلة حتى اقتنى جهازه الخاص الذي صار يتوسط مكتبه العريض، شامخا، متألّقا كالملك المتوج حديثا. كان قد أزاح كل شيء حوله، فالتهم مئات الصفحات، وابتلع عشرات الملفات، بنهم متزايد، لا يشبع، ولا يكلّ، ولا يراوده الملل أبدا، كأنه يقاسم السيد دوفينيو هموم بحثه، ويشاركه لذّة الإيغال في عتمات الخيال الشرقي، والتحمّم بأضوائه السريّة.

ظلّ السيد دوفينيو يجالس أنيسه الوحيد في عزلته الباريسية، فيقضيّ تسع ساعات كل يوم مشدودا إليه، صاغيا، صاغرا، يحاوره في صمت، ويناجيه، يزفّ إليه المعلومة تلو المعلومة كما تُزفّ الأخبار الجميلة، فيستعين به في تحليلها، وإعادة ترتيبها، وخزنها مؤقتا، والمقارنة بينها، والمقاربة، والمطابقة، بغاية استنباط معلومات جديدة، في نوع من السباق المضني مع سراب معرفة غائمة عصيّة، تزداد اختفاء يوما بعد يوم تحت حجب كثيفة من الكلمات والأرقام والفرضيات التي ما تكاد تنقدح في ذهنه حتى يكون الجهاز قد حلّلها، ورتّبها، وحفظها في ملفّاته، مضيفا إليها جملة من نقاط الإستفهام الملحّة، تدفع بحثه في وجهات لم يستشرفها بعد.

2-

في مساء السادس عشر من شهر جانفي عام 1991، فيما بدا العالم وكأنه يحبسُ أنفاسه ويقوم بالعدّ العسكريّ توجّسا لانفجار في منطقة الخليج باتَ وشيكا، كان السيد دوفينيو، كدأبه دوما، منكبّا على جهازه، يحاوره همسا كالعاشق المتيّم، ويداعب مفاتيحه بأطراف الأصابع في نوع من المناجاة الرمزية المرقّمة، ويحرّك رأسه يمنة ويسرة، مترنّما بلحن داخليّ حزين، فإذا به يشعر بارتخاء في كامل جسمه، وبموجة غريبة من الإعياء تغمره، فيتملكه إحساس حادّ بالملل. تنحّى جانبا، وأراح ذراعيه على خشب المكتب، ثم أسند إليهما رأسه، يتوسّل إلى نعاس شارد ما فتىء، خلال الأسابيع الأخيرة، يراوده برهة من الوقت وجيزة، ويلحّ عليه، ثم سرعان ما يهجره لساعات طويلة، ممعنا في إثارة أعصابه، وجعله لقمة سائغة للأرق والسّهاد. لكنه، هذه المرة، لم تكد تمضي عليه بعض لحظات من الفتور والخدر اللذيذين حتى غاب تماما عما حوله، وتحول إلى كتلة واهية من

العضلات الرّخوة المتكوّمة داخل مريلة صوفية وافرة.

فجأة، التمع برق خاطف كالق نصل قاطع، تفجّر ضوؤه في فضاء الغرفة، باهرا عنيفا، ثم لمّ شظاياه، وتجمع على نفسه، وفي لمح البصر، تكوّم ليأخذ شكل سحابة بيضاء متقدة بإشعاعات ملوّنة، تبدو متوالدة من بعضها في حركة انبجاس متواصلة، متّصلة، حازمة، لا تهدأ. ظلّت السحابة تحوم فوق الحاسب، تلفلفه، ثم تغمره تماما، فيختفي في بهرة صمّاء من الأضواء المتفجّرة شررا، وما هي الا لحظات حتى بدأت السحابة تنحسر، تلملم أصوافها، تتشرّب نفسها، وتتقلّص، إلى أن انقشعت تماما، فعادت الغرفة إلى سكونها الذي ظلّ يوقّعه الضوء الأصفر الشاحب المنبعث من مصباح خزفي متدلّ من السّقف.

كانت ساعة الكوارتز الصغيرة المنسيّة فوق جهاز الـ «هي في» تشيرُ إلى انتصاف الليل دون إلحاح، كأنّ عقاربها قد توقّفت فجأة عند ذلك التوقيت، فظلّت تنوسُ بالأرقام الأربعة في نوع من الخمول، فيما بدا السيّد دوفينيو هامدا، وكأن الدم قد جمد في عروقه، وتوقف قلبه عن النبض، فبات جثّة باردة، وجهها إلى خشب المكتب، وجذعها مهملٌ على المقعد، وساقاها مثنيتان على السجاد الفارسيّ، خاويتان تماما.

وسط تلك الهدأة التي عادة ما تسبق العاصفة، ضجّ الحاسبُ بخشخشة عنيفة، وإذا بشاشته تحتدم بآلاف الحروف، والأرقام، والحركات، والألوان، والأشكال الهندسية المتهافتة، والخطوط المنحرفة، المتكسرّة، المتدافعة، الساهمة في كل اتّجاه، حسب نظام فوضوي جامح، ثم تعيد تشكيل نفسها، في حركة جزر، ودوران، وانثناء، وليّ، وشيئا فشيئا، تتجسد الدوامة طيفا هُلاميّا غائما. يظل يقترب، ويكبر، ويفصح عن ملامح وجه صارم، سرعان ما يكتسح شاشة الحاسب الذي بدا وكأنه يتململ، ويتلوّى، ويتكوّر، كي يفسح للوجه حيزا يتشكل فيه رأسا، فعنقا، فجذعا، فذراعين، وساقين...

رجل في الأربعين، قويّ البنية، شديد السّاعد، باسقُ القامة، حادّ النظرات، يضع على رأسه عمامة بيضاء مرقّطة بالأصفر، ويرتدي جلبابا طويلا مطرّزا بخيوط من ذهب وفضة، أطلّ من الشاشة، غمزَ بعينه اليمنى، ورسم على شفتيه الغليظتين ابتسامة زهو وطرب وبعض سخرية، ثم كشّر عن صفي أسنان ناصعة البياض، مستندا بذراعيه إلى طيف جدار، وبحركة سريعة حاسمة انبجس من الشاشة، واستقام واقفا على قدميه وسط الغرفة تماما، وأطلق قهقهة ارتجت لها جدران الشقّة برهة، ثم عاد الصمت، وانتشر على الأشياء كرداء بارد شفّاف.

تاجر عربيّ من بغداد هارون الرشيـد مدّ يدا حازمة إلى جهاز الحاسب، ضغط على زر التشغيل، فضجت الشـاشة لحظـة، راسمـة إسم «سندبـاد» بحروف عـربية كـوفية مرتعشـة، ثم كتمت خشخشتها النـافلة، وانطفأت، فتقدم زائر الليل خطوة ناحية الجثة الملفوفة في مريلة حمراء بدت له كلطخة دم جامدة على خشب المكتب، ومرر أصـابع يده اليمنى على نُسالات الشعر الشيباء المتبقية في رأس السيد دوفينيو، ثم رفـع الرأس بكلتا يديه إلى أعلى، فإذا بالجثة تفقد توازنها الهشّ ، وتتدحرج على الأرض لدنة رخوة، لتستقر على السجّاد، بين قـوائم المقعد وأدراج المكتب، وتظل هنـاك، هامـدة، باردة، منسيّة، وقد بدأت تعلوها غشاوة كثيفة من غبار أو رماد...

محمد رضا الكافي

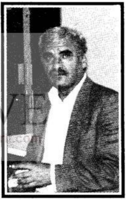
صدر أخيرا





نافذة على الفن

حوار الرسم والشعر مع الرسام ناصر بن الشيخ



الفنان التشكيلي ناصر بن الشيخ أهدى للمسار صورة الغلاف. وبمناسبة زيارته للاتحاد ومتابعته لأشغال ندوة «مرجعيات الفكر العربي المعاصر» التقينا به وحاورناه في بعض القضايا التي تشغل بال المبدعين في تونس. وهي نافذة جديدة أردنا أن نفتحها كل مرة مع أحد وجوه الابداع في بلادنا محاولة منا خلق حوار بين مختلف أشكال الإبداع.

ناصر بن الشيخ ليس رساما عاديا. لقد ارتاد مختلف المناخات والفضاءات الفنية التشكيلية ممارسة وتنظيرا، نقدا وتدريسا، إذ هو يدرس الفن التشكيلي بمعهد الفنون الجميلة منذ سنة 1972 وكون أجيالا من الرسامين الجدد. له رؤيته الخاصة وحساسيته وتجربته الطويلة في ما تعرفه بلادنا من حركة تجديدية وانتعاشة فكرية ساهم فيها من موقع المثقف المبدع.

□ المسار : ماذا يقول الرسام عن «الكتابة بالرسم»، أو كيف يرى ناصر بن الشيخ وهو يفكر بالعملية الإبداعية العلاقة بين الإبداع بالكلمات والإبداع بالألوان والأشكال؟ أليس الرسم كتابة بالمفهوم الحديث للكلمة؟ هل الرسم هو نوع خاص من الكتابة؟

■ ن . بن الشيخ : لا أعتقد أنه يصح، منهجيا، أن نتحدث عن رسم بالكلمات أو عن كلمات ترسم.

□ المسار : هناك معجم نقدي ومصطلحات وفضاء دلالي ووظيفة إبلاغية لها بعدها الاجتماعي تنطبق على الابداع بصفة عامة. هل تعاملك مع إبداعك يخرج عن هذا الفضاء الدلالي إلى فضاء الذات والانعكاس المرجعي، بعبارة أخرى هل تتعامل مع الإبداع بالعلامة أو بالرمز؟

■ ن . بن الشيخ : الإبداع بالنسبة لي ليس قضية تواصل، وليس قضية اتصال. بل هو يعكس الإتصال (a - comunication) وفي عدم الاتصال هناك اتصال أعمق وهذه العلاقة تجعل المتلقي يتصل بنفسه ولا يتصل بالخطاب المرسل إليه، فعملية اللاإتصال هي الأصل، الفن هو اللاإتصال، الجريدة والتلفزة هي وسائل اتصال، أما الفن فهو بالأساس علاقة اعمق ترفض الخطاب المباشر والإخبار. اللاإتصال هو ما يدعوك إلى أن تتصل بنفسك من خلال عمل الرسام أو الشاعر. هناك عملية تحويل للمادة الخام حتى ترجعها لجوهرها وروحها. الجوهر الفني هو نتيجة لعمل المبدع، علاقة الانسان بالمادة، الرسام يخرج جوهر المادة إلى الوجود ويجعل منها عملا روحانيا إبداعيا، وفي هذه العملية يكتشف الرسام أو الشاعر ماهيته الإبداعية ويخرج أيضا إلى الوجود، وعند ذلك يلتقي بالذات الموضوعية.

□ **المسار : لنطرح السؤال بشكل آخر. هل يعيش الرسام حالات شعرية قبل الرسم أو وهو يرسم ؟**

■ **ن . بن الشيخ** : قبل الرسم لا. وهو يرسم نعم. هو يرسم ويعيش الحالة الشعرية الحقيقية وهي الدخول في زمن الإبداع، وهذا الزمن يختلف تماما عن الزمن العادي، هو الخروج من الزمن الموضوعي الذي له قيمة مادية إلى زمن الخلود.

□ **المسار : هل هي نزعة تصوفية ؟**

■ **ن . بن الشيخ** : لا. بالعكس. الخلود الذي أتحدث عنه هو التكشف عن لحظة اللازمن.

□ **المسار : إذن هو ليس الوصول إلى حقيقة ميتافيزيقية أو إلاهية؟**

■ **ن . بن الشيخ** : الحقيقة أو السر هو تمشي (démarche) وليس مكانا Un lieu) . وهذا التمشي ليس له نهاية أو حدود، هو بحث متواصل.

لنرجع قليلا إلى السؤال المطروح عن طبيعة العلاقة بين الابداع والفضاء الاجتماعي، أو بين المبدع والمتلقي. في اعتقادي البعد الاجتماعي ليس في الكتابة، بل في مادة الكتابة. الكلمات مشحونة بدلالاتها الاجتماعية والتاريخية، وهي دلالات متغيرة تخضع لمنطق التحول والتطور. الرسم هو مشاركة في الخطاب الجماعي، يفتح آفاقا جديدة للمجموعة من خلال هذه العلاقة بين الزمن والرمز.

□ **المسار : هل أنت ترسم بثقافتك أم بإحساسك أم بانتمائك؟**

■ **ن . بن الشيخ** : سأعرج أولا عن تاريخي الشخصي. بعد تخرجي من ترشيح المعلمين وتنظيمي لأول معرض بها، انتقلت إلى ضاحية حمام الأنف، واكتشفت التوجه التجريدي من خلال ما تصورته آنذاك عن حضارة المدينة التي تختلف تماما عن ذاكرة طفولتي التي طبعتها رموز الريف الساحلي (ثقافة الأرض)... وعندما رجعت من باريس سنة 1970، اكتشفت أن حتى صورة الريف الساحلي تغيرت...

هذه التراكمات تؤثر في الفنان...

منذ بداية تجربتي، كنت دائما أطرح تساؤلات عن جمالية ما أرسمه وأفكر في اللغة التشكيلية من خلال تجربتي الميدانية. لماذا هذا الشكل وهذا اللون؟ ما هي العلاقة بين الاشكال وتركيب المساحة وتغطيتها؟ واكتشفت هنا أمرا خطيرا؟ وهو أن طريقة الرسم هي بالنسبة لي **صيغة معادلة لفهم الوجود.**

فلسفة الوجود هي في تنظيم هذه المساحة البيضاء التي هي اللوحة، الرسم هو

فلسفة بـالأشكال ومعـادلتها داخل مسـاحة معينـة سطح اللوحـة الأبيض هـو العالم. الرسام يخلق العالم ويشكله من جديد. هو يعيد خلق العالم.

□ **المسار : هذا التصور. ألا يعطي للرسام وضعا مريحا من الناحية الاجتماعية والسياسية، مقارنـة بالشاعر أو الكاتب، باعتبار أن لغة الكتـابة تتنزل في الفضاء الاجتماعي، الشـاعر والكـاتب هما في الواجهـة من خلال الفعل في الـوعي الجماعي والحركة التاريخية بينما نـرى أن حركة الفن التشكيلي في تونس تخرج عن منطق المواجهـة والفعل الجماعي إلى البحث في الجماليات، وأصبح هنـاك أقطاب ووجـوه «بارزة» سـدّت الطريـق أمام الجيل الجديـد من الرسـامين الذي لم يجد الفـرصة للتعبير ضمن انخـراطـه الاجتماعي من خـلال الـرسم، هل وجـد نـاصر بـالشيخ معادلة جديدة للتوفيق بين البحث في الجماليات والانخراط في الوعي الجماعي؟**

■ **ن . بن الشيـخ :** الـوضـع ليس مريحا كما يتصـور البعض، المريح هو الالتـزام بالتثقيف وبالتـوعية وبما يسمى بالرسـالة. هناك من يعتقد أن الحضـور الفاعل هو في الالتزام برسالة، وأن التاريخ له مسار واضح. لحظة الابداع هي خارجة عن التاريخ وفي آن واحد هـي الجزء الحقيقي المادي للتاريخ. معنى ذلك أن الشـاعر أو الـرسام عنـدما يتفاعـل مع ذاته الحقيقيـة يجد نفسه متفقا مع حـركة التـاريخ، لا التاريخ النظـري بل التاريخ الذي نصنعه من خلال صنع وجودنا.

حتى بالنسبة للتعبيريين والتشخيصيين والأكاديميين وغيرهم، لم يكن في ذهنهم البتة أنهم يرسمون لابلاغ شيء ما الى الآخر فقط، حتى الواقعية هي أكثر من ذلك.

□ **المسار : القضية تطرح من زاوية خصـوصية الكتابة واختيار أسلوب معين، حتى وإن بقينا في مجال الإبداع المحض.**

■ **ن . بن الشيـخ :** سواء تعلق الأمر بالرسم أو بـالشعر، المتلقي مطالب بأن يقوم بنفس الجهد الذي قام بـه المبدع، وهو تفجير الدلالات وإعادة صياغـة الكون بول كلاي يقول بالنسبـة للرسم المعاصر «العين تكلاً سطح اللوحـة». الجانب الجمالي يعطي للوحة أو القصيدة بعدا أساسيـا لا يتعلق بمضمون الاتصال. هو بعد المغـامرة، أي الدخول في المجهول، إلى التاريخ دون سابق اضمار.

لا بد من الإشارة هنا إلى أننا وجدنا أنفسنا في العالم العربي، منذ خمسين سنة، أمام تعاقب للأجيال. كـل جيل يصرح «نحن المؤسسون»، والسـؤال هو : ماذا أسسنـا؟ كل جيل ينظر إلى الانتاج الغـربي ويحاكيه ويقـول: نحن المؤسسـون، لابد إذن من طـرح سـؤال الذات والآخـر حتى نـدخل عملية التأسيس. والـذات هنـا ليست الذات المنغلقة المتقوقعة؛ بل الذات الناقدة المجاوزة.

هناك في الرسم ما يوازي ما هو موجود في الشعر: الانطباعية، التعبيرية، السريالية... العلاقة هنا هي في إطار الخلفيات النظرية للإبداع بوصفه اختيارا جماليا لجملة من القيم المتعلقة بـالذات والوجود والـزمن. العلاقة بين الشعر والـرسم هي ليست في المضامين، فمثلا، النـزعة الصوفية في الشعـر العربي هي خاصـة بهذا الشكل من التعبير الابداعي، تماما مثل تمثـلات التراث في شعر البياتي أو أدونيس... لا يمكن أن نتحـدث عن ترجمة هذه المضامين تشكيليا.

□ **المسار : لو نتحـدث قليلا عن النقد. نلاحظ أن المصطلحات النقـدية الخاصة بالكتابة الشعرية (وزن ـ إيقاع ـ مـورفيم ـ تداعي ـ إتساق ـ حقل دلالي ـ تركيب**

ـ بنية...) وهي مصطلحات وصفية وتحليلية يوظفها النقد الحديث لتحليل الإبداع الشعري والنص الادبي عموما، نلاحظ إذن أن نفس المصطلحات تكاد تكون موظفة في نقد وتحليل الإبداع التشكيلي. ألا يطرح هذا التوازي في المصطلحات فرضية وجود نفس الفضاء الإبداعي والترميزي في فهم ظاهرة الإبداع لدى الشاعر والرسام؟

بلغة أخرى، هل أن المبدع، سواء كان شاعرا أو رساما، هو مخلوق من نفس «الطينة» ونفس البنية والاختلاف فقط هو في اللغة المستعملة والأسلوب؟

■ **ن . بن الشيخ** : السؤال كبير. بالنسبة للرسم المعاصر، نلاحظ أن المصطلحات والاجهزة النقدية نشأت على هامش الإبداع كمحاولة تنظيرية لإيجاد منهجية ونظرية متكاملة لهذا الرسم. ولكن الإبداع لا يخضع لهذه النمذجة وهذه الآليات الواضحة. الرسم، مثل الشعر، هو حركة متجددة وليست جوهرا جاهزا يمكن حصره في بنية ومصطلحات الإبداع هو في الاختلاف عن الظواهر وفي إعادة تشكيل هذه الظواهر. (rendre visible l'invisible) هذه الحركة في الاختلاف لا يمكن أن تخضع لنظام مسبق ونموذج جاهز.

اللوحة لا توجد إلا من خلال صناعتها، أي خلقها.

□ **المسار : أنت توافق إذن تعريف الرسام براك لعملية الخلق عندما يقول : «اللوحة هي سطح مغطى بالغبار. عندما أرسم، أنا أمسح هذا الغبار لأكتشف تحته ما أنا بصدد رسمه»؟**

■ **ن . بن الشيخ** : هناك مثل بوذي يقول : «الأشياء لا تعني شيئا بذاتها، الكلمات كذلك لا تعني شيئا بذاتها. يجب إذن نمسح الأشياء بالكلمات، وبعد ذلك، تختفي الكلمات لتبرز حقيقة الأشياء».

والشعر كذلك. لابد من الخزن والتراكم ثم النسيان، بعد ذلك يأتي الإبداع. ممارسة الرسم هي ممارسة ثقافية، أي فيها البعد الحضاري والذاتي والنظري. وهي كذلك قضية الحداثة التشكيلية.

ومن المؤسف أن نلاحظ ضعف حركة النقد الخاصة بالفن التشكيلي في بلادنا. هذا النقد إنطباعي أو تنظيري فلسفي لا يرصد حقيقة العمل الابداعي، مع اعتقادي شخصيا أن الرسامين في تونس لهم ما يستحقون من النقاد. الرسام في تونس يجد نفسه أمام نوعين من النقاد: المنظرون القادمون من الفلسفة والعلوم الانسانية ولهم نظرة متعالية غارقة في المفاهيم ومتسلطة على الممارسة الإبداعية معتقدة أنها تملك الحقيقة، ومن ناحية أخرى نقاد الصحف والمجلات وهو نقد يغلب عليه التعليق والوصف السطحي الخارجي.

□ **المسار : ضعف حركة النقد هذه تقابلها ظاهرة «الكتابة الفنية» (Livre D'art) التي تحاول أن توثق للحركة التشكيلية وأن تمكن الجمهور العريض من «إستهلاك» المادة الفنية.**

■ **ن . بن الشيخ** : في رأيي، الفن لا يوثق. وعندما يوثق يوثق بأصله.

□ **المسار : ولكن هذا التقليد له وظيفة تقريب الفن من الناس وهو ظاهرة معروفة في الغرب.**

□ **ن . بن الشيخ** : في الغرب هناك المتحف، حيث توجد الأصول. وهناك الصورة.

من جملة ما يعاني منه الغرب هو تحويل كل شيء إلى صورة. ولكن اللوحة الفنية ليست صورة. هي واقع، لها فرادتها. هي ليست صورة من الواقع. شكلها ونتوءاتها وسطحها ولمسها يعطيها حرارتها وشحنتها التي لا يمكن أن تعبر عنها نسخة أو صورة. وهذا وجه اختلاف مع الشعر مثلا. هناك مشكل عائق ابستملوجي هام جدا. الرسم المعاصر ليس رسما تعبيريا، بل هو رسم استكشافي (Peinture de Manifestation)، وهذه الخصوصية لا يمكن أن تعبر عنها الصورة أو الكتاب، اللوحة فقط مؤهلة لذلك.

□ **المسار : هذا القول ينطبق كذلك على الكتابة الحديثة، التي عبر عنها أراقون بقولته الشهيرة: «أنا أكتب كيف أكتب وأنا أكتب». فالكتابة تطرح مشروعية وجودها كإشكالية تعكس أزمة اللغة والمجتمع والحضارة وانحسار فضاء الفرد في ظل تضخم الخطاب المهيمن. مساءلة الكتابة تقود إلى مساءلة اللغة ومن ثم كل المؤسسات والقيم المسيطرة.**

■ **ن . بن الشيخ** : يمكن أن يلتقي الرسم المعاصر بهذا المفهوم من زاوية البحث عن ماهية الإبداع في جدلية الذات والموضوع خارج النماذج الماقبلية والمرجعيات المكبلة لروح الخلق والمغامرة والحرية.



لوحة خطية
للناصر بن الشيخ
1969

رقصات مع جبّة الحلّاج

سمير السحيمي

مصلوبًا
فوق الخزف الكوفي المكتوب
ببعض دماء القلب
جمّع أشلاء الجهد الممتد إلينا
حرّك أطراف أصابعه
ارتبكت جبته
«ما تحت الجبة إلا الله»
ما تحت الجبّة إلاّ الزمن العلقم
والعلقم كالسّكّر
والسّكر مرّ لا يحلو
ما تحت الجبة إلاّ .....

مصلوبا
فوق الخزف الكوفيّ المرقون على الجبهة
والجبهة قد تعلـو
تكبو
تتعب
انتكست جبته
فارتبكت دقّات القلب.... قليلا
عادت للنبض ...... قليلا
عادت في البعض الى النبض.... قليلا

مصلوبا
فوق الحرف الكوفي
رسمته شرايين القلب
على الكف الأيمن
والكف الأيسر
والصدر
مصلوبا
فوق الحرف الكوفيّ المنشدّ إلى الفجر
يرسمه القلب عجيبا
كالرّحلهْ
والرحلةُ مِـحْـنَـهْ

الرحلـة الأولـى

حين البدء
يكون الموت ولاده
تناثر حبات الشمس تزاوِج حبّـات الرّمل
حين حلول الحبّـة في الحبّـة
حين حلول الحبّـة في الجبّـة
حين حلول الحبّـة في الجثّـة في الجنّـة....
...... قَـدْ ......
كان العالم يحمل أسفارا
كان حمارا يحمل أسفارا

السفـر الأوّل

في البحر الأحمر
والبحر الميت
ودماء القلب الميت
وشرايين القلب المنسدّة
والمنشدّة عشقا لفنائي
المَـلَـكُ ابن الجنّـة

ابليس ابن جهنّـم
سـافر فيّ !

السفر الأول

في الوقت الموت
ونصف دقيقة عشق بي فيّ
سافر فيّ
كان العالم يحمل أسفارا
كان حمارا يحمل أسفارا

الرحلة الثانية

(إلى بعض منه)

أعطني من بعض روحك
برهة في الصّمت ..... عشْـقَكْ
أعطني بعضا لقلبي
بعض عشقك
عشقك الصُّوفي لا يكفي
وقد يكفي بقلبي وبقلبك
أعطني قلبا بقلبك
رحلة فينا بقلبك
ملأ تلك الجبة الصفراء
تحوي روح قلبك
أعطني الحـلاّج
مثل التّاج
حلّ فينا
بعض ما يرضيه يرضينا
حلّ فينا

السّفر الثاني

أنا .... ما أنت
وأنت الماء .... فينا
عاشقات العشق
لا تعرفن قلبه
هنّ لا تعرفن قلبه
هن: ..... «لا تعرفن قلبه»
هن لن يعرفن قلبه
قلبه العاشق (مبتدأ وخبر)
العشق
وعش العشق فيه
أنا .... ما أنت
ولكن
أنت منّـا
أنت منّا
أنت منّـا.... قد أمنّا

السّفر الثالث

سافرت روحك
لكن
لست مصلوبا
لست مصلوبا
وقلبي فوق ريش الموج
مصلوب... حزين
يا سفينه
جدّفي الآن .... مدينه
يا حزينه
جدّفي الآن .... مدينه
جدّفي الآن .... سجينه
في صفاء الموج عشق الموج

سمير السحيمي
1992

بـــرزَخٌ طائـــر

فوزية العلوي

هَبْهَا نسيَتْ أقراطها عند الغدير
أتعود نجمةٌ وقد نَسِيَتْ ظفائرهَا
على أكتاف ليل ؟
من علّم القُمريَّ أن يُعلّق قلبَهُ
في طلحة الحيِّ القديم؟
من علّم العُنّاب كيف يسرقُ قُبلةَ الخوخِ المُقدّس؟
من حَاكَ بُردَ الغيْم
لتدفّئي حُلْمَ الخطاطيف الصّغيرة؟
هذه الرّموش قد استقالت من أرضها.
وسرابهَا / من بحرها وسحابهَا / من قمحهِا وشرابهَا /
من خضرة المَرج
ومن بوّابة المنفى
لم تبق إلاّ قبلة في دربها
لَونُ سماك
وصهيلُ كفّيك
ونعومة النعناع في ذكرى الحنين إلى لُغاك

ويمامة مشنوقةٌ عند الشّروق
من علّم العين المروق؟
عادت إلى أقراطها عند الشّفق
خافت تمرّ سحابةٌ
أو شوكةٌ
أو بذرةٌ مجنونةٌ
دَعْهُ... دَعْ... يا واقترب منّي
حُلّهَا خيمة وجد...
يا ... كم طويناها...
ويا كُمْ شفْنا ولَهٌ في القلب...
وجراحات رحيل...
حُلّها خيمة وجد...
ذا وتَدٌ مكانه القلبُ...
ذي حبالٌ من أهدَاب
ذا حنين وحدَاءٌ وسرَاب...

* * *

يا كم بَعُدْتَ... يا كم براني الشّوقُ !
يا كم تعيَّـرتَ...
من خطّ باقلام الثّلجِ
على عباءة ليلك ؟
من بعثَر دُرّي ومرجاني ؟
من بلاني ؟
من شربَ الخمرة من دناني ؟
من داسَ سهول الوردِ في خدّي ؟

من شقّق الدّيباج في كفّيك...
خُذني إليك...
«كفاني من رحيلك ما كفاني»
تَرْوي الّذي قد أبصرتْه
قلباً رأتْ تلك السّحابة
مترعا بالفجر كان
وفراشتان كانتا عند الحصى والأقحوان
والشوكة الأخرى تقول
عن نرجس متشرنق حدّ الذّهول
عادت إلى أقراطها عند الغير ولم تجدها
النجْمَةُ الْعَشِقَتْ نداء اللّيل
نسيت ظفائرها على بوّابة الحزن الجميل
عادت لتاخذ مشطها... أربة شعرها...
حمرة خدّها / مرآتها / حلم طفولتها
قصّتها الأخيرة
لم تجد مكان ظفيرتها إلاّ أريج سحابة
ريش حمام
وبعض عطرك

فوزية العلوي
(القصرين)

أصداء ومتابعات



ببالغ الحسرة والأسى، خسرت أسرة الأدب والثقافة في تونس أحد أبنائها المبدعين المؤسسين المرحوم الطاهر قيقة.

وقد كان للمرحوم دور ريادي في مجالات الفكر والكتابة والاعتناء بالتراث والحضور المتميز في قضايا مجتمعنا.

وقد خسرت « المسار » أحد أعضاء هيئتها الاستشارية كما خسر الاتحاد أحد أعضاء المؤسسين والغيورين على اشعاعه وتطوره.

رحم الله الفقيد العزيز وسيبقى في ذاكرة كل الذين عرفوه وأحبوا خصاله العالية.

أعضاء اتحاد الكتاب التونسيين الجدد

البشير التلمودي - إبراهيم النصراوي - الحبيب كريم - سامي البيداني - محمد البدوي - السيد محمد الهادي الجزيري - فريدة هاشمي - الحبيب الهمامي - نور الدين الجريدي - محمد آيت ميهوب - آمال صفته - فتحي التريكي.

باتحاد الكتاب التونسيين :

ندوة مرجعيات الفكر العربي المعاصر
التاريخ ـ العقل ـ المقدس

على مدى ثلاثة أيام ـ 16/15/14 ماي 1993 ـ شهدت قاعة اتحاد الكتاب التونسيين فعاليات الندوة التي نظمها الاتحاد بالتعاون مع اللجنة الثقافية الوطنية والتي تتمحور حول :

مرجعيات الفكر العربي المعاصر : التاريخ ـ العقل ـ المقدس، وتهدف هذه الندوة «إلى طرح بعض الإشكاليات المركزية الراهنة للفكر العربي المعاصر والمتعلقة أساسا بروافده ومرجعياته التكوينية من منظور نقدي يرصد الخصوصيات ويشخص الأزمة ويستشرف المستقبل، ولا بدّ في هذا الإطار من مساءلة العلاقة الإشكالية بين العناصر المتداخلة لبنية المعرفة العربية الحالية باعتبارها حصيلة تاريخية ومرحلة انتقالية لتأسيس البدائل الضرورية للدولة الحديثة والمجتمع المتحرر والانسان القادر على استنهاض قدراته الكامنة لرفع تحديات العصر». هكذا جاء تقديم هذه الندوة التي واكبها جمهور غفير وشارك فيها دكاترة من عدة بلدان عربية علاوة على تونس.

أما المحاور الأساسية لهذه الندوة فتتمثل في :

تشكل العقل العربي :

1) تحديد مفهوم العقلانية في علاقته مع التراث الفلسفي الاسلامي من ناحية، وإشكالية إعادة صياغته في ظل تأثيرات الفكر الغربي والأنظمة المعرفية الحديثة.

2) العقلانية والعلمانية في الدولة والتنظيم السياسي.

3) العقل وقيمة المعرفة في تشكل الانسان الحديث (المعرفة، المؤسسات، السلوك).

4) العقل وتحديث المجتمع العربي : شروط الحداثة العربية وأسباب فشل مشاريع النهضة (فكريا وسياسيا).

التاريخ :

1) الهوية العربية الإسلامية بين الأصالة (التجذير) والاستلاب.

2) تاريخانية الفكر العربي المعاصر : عناصر الوضوح والغموض.

3) التاريخ السياسي والتاريخ الاجتماعي ونسبية المقاربات.

4) التاريخ بين مناهج البحث العلمي والإيديولوجيا.

المقدس :

1) القراءة الأنتروبولوجية والسوسيولوجية لقيم المقدّس في الثقافة العربية المعاصرة.

2) المقدّس في الفكر الديني وموقف العقل من توظيفاته السياسية والاجتماعية.

3) المقدس في الخيال الشعبي واللاوعي الجماعي.

4) المقدّس وتمثلاته الحديثة في المشاريع السلفية.

أما سير الأنشطة فقد كان حثيثا ومكثفا حيث تم تنظيم أربعة جلسات علمية تناوب فيها الأساتذة المحاضرون على المنبر لتقديم مداخلاتهم حتى يناقشهم الحضور بعد ذلك.

في جلسة الافتتاح أخذ الكلمة الاستاذ **الميداني بن صالح** رئيس الاتحاد، الذي عبر عن اعتزازه بالحركية التي أصبح يشهدها الاتحاد وأشار إلى أن هذه الندوة هي من أخطر الندوات التي شهدتها البلاد. حيث أنها ستعالج قضايا جوهرية وعميقة تمس من قريب جوانب حياتية ومصيرية لمجتمعنا.

ثم تناول الكلمة السيد **يوسف الرمادي** مدير ديوان وزير الثقافة نيابة عن الوزير ليبين «مدى سعادته بالحضور في ندوة يشارك فيها نخبة من الأساتذة والمثقفين الذين أثروا الساحة الثقافية بانتاجاتهم وساهموا مساهمة بارزة في بلورة مشروع ثقافي مستنير. وأكد أنه يغتنم هذه الفرصة ليشكر كل من ساهم في إقامة هذه الندوة الهامة والتي تندرج في إطار الحوار والاسهام في الإضافات الفكرية ونبذ الانغلاق والتطرف...

بعد ذلك جاء دور الأستاذ **عثمان بن طالب** منسق هذه الندوة ليساهم بنص تقديمي تحت عنوان : «في بنية الفكر العربي» فأوضح في البداية أن الاتحاد كمؤسسة وطنية أصبح له دوره الهام في نشر الثقافة ودعم الانتاج الفكري والأدبي وهو كفضاء مكمل لفضاءات أخرى له خصوصية الدفاع عن الفكر الديمقراطي وحرية الابداع. وبين أن هذه الندوة تنضوي في إطار نقد الفكر العربي والبحث في بنيته ومعالجة قضاياه الراهنة، وطرح بعض الإشكاليات المتداخلة التي لا بد من تناولها بالدرس والتمحيص والبحث خاصة في هذا الظرف الحساس من تاريخنا، ومن خلال طرحه هذا بين أن الصراع الدائر اليوم بين المد العقلاني التحرري وبين المد السلفي الديني يذكر في واقع الأمر بنقطة البداية. فلم يكن التحول من جاهلية العصور الوسطى إلى العصر الحديث سهلا بل كان عبر صراع طاحن ودامي وقد استمر التحول رغم محاولات قوى الردة والجاهلية .

وقد حدد الباحث في نصه هذا مهام المفكر العربي في هذه المرحلة وركّز على قضية العقل والحرية وبين أن تجديد الفكر العربي هو شرط رئيسي لتصور مصير العرب. وهذا التجديد ينبغي أن ينطلق من نقد المطلقات (اللغة ـ الدين ـ الثقافة ـ التراث ... الخ).

ثم انطلقت الجلسات العلمية التي ساهم فيها :

ـ الأستاذ **ياسين سويد** (من لبنان) بمداخلة تحت عنوان «الهوية العربية الإسلامية بين الأصالة والاستلاب» قدم في مستهلها بسطة تاريخية عن نشأة الفكر العربي بعد ظهور الإسلام، وأوضح أن الإسلام ليس حكرا على العرب كما أن العرب ليسوا بالضرورة مسلمين. وتناول ضمن مداخلته العلاقة الجدلية بين العروبة والاسلام التي لم تشكل عند ظهورها ـ حسب وجهة نظره ـ أي تضارب أو إشكال، لكن الاشكال انطلق عند ظهور فكرة القومية ومن هناك بدأ الصراع بين القومية العربية والتيارات الإسلامية، وتطرق في الختام إلى ظاهرة الإستلاب أو الإغتراب التي تعيشها المجتمعات العربية وأبدى بعض الآراء في أسباب هذا الإستلاب.

ـ الأستاذ **محمد سعيد مضية** (الأردن) مداخلة بعنوان «ثقافة التقدم في الصراع ضد عوامل التبعية والتخلف» بحث فيها عوامل القصور في الثقافة العربية وأسبابها الموضوعية والذاتية. وتحدّث عن مرحلة التنوير التي برز خلالها عديد المصلحين والمفكرين الذين حاولوا أن يقبضوا على عوامل النهضة والتقدم. ولكن المشروع التنويري أيضا قد سقط لعوامل كثيرة منها عدم تركيز حركة التنوير على العلوم الصحيحة والجماهير في خوضها لمغامرة التجديد والنهضة.

ثم قدم طروحات ورؤى لتصور مشروع ثقافي تنموي قد يخرج بالمجتمع العربي من هذه الأزمة.

ـ الأستاذ **واسيني الأعرج** (الجزائر) مداخلة بعنوان «إخفاقات النهضة وأسئلة الحيرة : إشكالية نشوء النص الروائي العربي» وقد أوضح في بداية النص أن عنوان الداخلة يحيل إلى سؤالين متعالقين معقدين نسبيا لا يسهلان مهمة البحث بقدر ما يعيدانه إلى البداية، يعني إلى البياض الذي يخلفه سؤال غير مؤسس على إجابات مفترضة ويرى أن هذين الاشكالين هما : إشكال مثقفاتي. وإشكال تأصيلي. ويبدو ظاهر على الاقل ان هذين الاشكالين متناقضان. ويمضي الاستاذ في بحثه هذه الثنائية إلى أن يلج السؤال التالي :

ـ من أي موقع نتعامل مع الذات أو الأنا؟ عن أي أنا نتحدث؟ هل هي أنا واحدة أم متعددة.

ـ من أي موقع نتعامل مع الآخر؟ أي آخر؟ هل الآخر وحدة فكرية متجانسة وضمن أي مشروع وأي تمايزات يمكن إنشاء الحوار المعقد (على افتراض أن الآخر ليس مطلقا).

في الجزء الثاني من المداخلة وتحت عنوان فرعي : «سؤال النشأة النصية (الرواية) يتوصل الكاتب إلى أن البحث في هذا الموضوع ودلالاته المختلفة يوصلنا حتما إلى إعادة النظر في الكثير من الحقائق وتواصلا مع الجزأين الأول والثاني يأتي الجزء الثالث والأخير «السؤال المركزي/مركزة السؤال» ويطالب ضمنه الأستاذ باستفزاز الأسئلة والحقائق. والتعمق في البحث والتقصي حتى نتمكن من العودة إلى طفولة الاشياء لأن داخل هذه الطفولة تم اختزال الكثير من الحقائق التي طمست عن حسن نية أو بسوئها. وحسمت الكثير من الشكوك الموضوعية باليقين المطلق لتكشف بعد زمن فجأة أن اليقين الوحيد الذي أصبحنا نملكه هو الشك بمعناه الواسع.

ـ الأستاذ **منصور قيسومة** (تونس) مداخلة بعنوان «القناع المقدّس في الاسطورة والخرافة والحكاية العربية وجدلية العبودية والانعتاق» يبدأ الاستاذ مداخلته بتوضيح جاء فيه: ما زالت الأسطورة العربية في حاجة إلى دراسات أكاديمية معمّقة ودقيقة، كما أنها ما زالت في حاجة إلى مقاربات علمية وقد كانت طيلة التاريخ العربي الاسلامي منبوذة ومحتقرة، ومطموسة المعالم والمعاني والدلالات، عن قصد وعن غير قصد. وبين أن سبب ذلك قد يكون راجعا إلى مزاحمة الأسطورة للنص الديني حيث تقوم بدوره.

ـ الأستاذ **خميس أبو الندى** (فلسطين) مداخلة تحت عنوان «الذهنية العربية من خلال ألف ليلة وليلة». وقد بدأها الاستاذ بوضع أسئلة عديدة حول عمله هذا وقد أوضح أن السبب في هذه التساؤلات الكثيرة يعود إلى :

ـ ضخامة العمل المطروح للتحليل والنقد.

ـ الخلاف المعروف حول أصل هذه الحكايات.

ـ هل صاغ الحكايات مؤلف واحد أم أن لها مؤلفين عدة؟ وقد قسم عمله هذا إلى أجزاء كالتالي :

1) مكانة ألف ليلة وليلة وطابعها العربي الاسلامي.

2) تعريف الذهنية العربية.

3) العلاقة التصالحية بالكون والقدر.

4) مكانة الجن في العقل العربي.

ـ الأستاذ **حميد بن عزيزة** (تونس) مداخلة بعنوان : «الحداثة الممتنعة». وقد جاء فيها : «وإذا كان مصدر هذا الطرح وعي مجرد بالسبق

الحضاري للغرب بالقياس بوضع الشرق وخاصة جانبه العربي فإن الرغبة إلى استيعاب هذه الفوارق أدت إلى تضخم الإيديولوجيات «الثورة» بعد الاستقلال ولكن فشل هذه الإيديولوجيات سينقل الصراع إلى ساحة التراث.

وتناول بالنقد والتحليل بعض المؤلفات في محاولاته معاينة الافكار التي سيطرت خلال الصراع القائم في البلاد العربية ومنها كتاب : «الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي» وبعد تحليل مستفيض لهذا المؤلف يتحول إلى مؤلف الاستاذ عبد الله العروي «في الإيديولوجية العربية المعاصرة» باعتباره يمثل التيار التاريخاني «الثورة». وكذلك الى مؤلفات عدة للأستاذ الجابري على أساس أنه يمثل الأنموذج التاريخاني العلمي.

- الأستاذ **أبو يعرب المرزوقي** (تونس) مداخلة بعنوان «العقلانية والحصانة الروحية» وقسم الأستاذ نصه إلى أقسام كالتالي :

1) تمهيد بيّن بإيجاز كبير مستويات العقلانية.

2) تعريفات : **- التعريف التقابلي المتنامي بمستوياته الخمسة :**

- المستوى النفسي - المستوى العرضي — المستوى الذهني — المستوى المؤسسي - المستوى العضوي العنصري.

- التعريف التجاوزي المتوائم.

3) فقدان المناعة الروحية أو توقف الوجود التجاوزي.

4) تفسير حركية فكر النهضة العربية الإسلامية بالصراع.

- الأستاذ إبراهيم جدلة (تونس) مداخلة بعنوان :

ركود العقل العربي في زمن ابن خلدون» وقد تساءل المحاضر في بداية مداخلته عن مدى عقلانية المفكر ابن خلدون وقد عاش في محيط يمتاز بشلل العقل والركود الذهني والمعرفي.

ووضع محل التساؤل ثلاث نقاط هي :

- كيف حصل هذا الركود؟ - ما هي أهم اسبابه؟ - ما هي أهم مظاهره؟

وقد قسم نصه إلى أجزاء هي :

1) سلطة النقل وتهميش العقل.

2) علم النخبة في خدمة السلطان.

3) المفكر المسجون.

4) خاتمة وجاء فيها : يمكن القول أنه بداية من القرن 5 هـ وإلى جانب التراجع الاقتصادي والعسكري في العالم العربي الإسلامي تم تهميش العقل وتدجين «العلماء» وظلت العديد من المفاهيم خارجة عن نطاق التفكير الإسلامي في نطاق جمود هيكلي.

كمال بوعجيلة

نشاط دار الكاتب

في نطاق التنشيط الثقافي لدار الكاتب تم استدعاء الشاعر كمال بوعجيلة لإحياء أمسية شعرية وذلك يوم السبت 8 ماي 1993 على الساعة الرابعة مساء.

في البداية قرأ أصدقاء الشاعر بعض قصائده المعروفة نذكر منهم : عادل معيزي الذي ألقى قصيدة «حنين» ومنير هلال وقد ألقى قصيد «بلادي» ومصباح بوحبيل وقد ألقى قصيدا طويلا للشاعر يحمل عنوان «نشيد البدو العائدين» كذلك شارك في قراءة نصوص الشاعر كل من محمد الهادي الجزيري «لن أسمّيك» وعادل بوعقّة «كلما مرت» وجوهر أولاد حمودة «ستأتين» وقصائد أخرى كان يحفظها عن ظهر قلب.

وفي الختام قرأ الشاعر بعض قصائده القديمة والتي كتبها في بداية الثمانينات وقصائد جديدة وهي من آخر ما كتب نذكر منها : «مرثية لأرض السراب» «إحتياطي الروح» «هذيان»... قام بالتنشيط الشاعر سويلمي بوجمعة.

نشاط منتدى القصاصين

الخميس 1 أفريل/حفيظة قارة بيبان في قراءة قصصية بعنوان : في ظلمة النور.

الخميس 8 أفريل/محمد آيت ميهوب لقاء لمناقشة مجموعته القصصية «الورد والرماد». تقديم الأستاذ كمال زغباني.

الخميس 22 أفريل/ظافر ناجي ومناقشة لمجموعته القصصية «المتاهة» ناقشه الكاتب السوري نبيل سليمان والكاتب مصطفى المدائني والروائي والشاعر محمد علي اليوسفي والأستاذ مصطفى الشريف.

الخميس 30 أفريل/لقاء مع القاصة شريفة العرباوي في نص جديد.

ملاحظة : ننشر في العدد المقبل نشاط نادي الشعر (لم نتصل به في الابان)

إتحاد الكتاب التونسيين :

توضيح للرأي العام

يتعرّض اتحاد الكتاب التونسيين منذ مدة إلى حملة تشويه ومغالطات تسعى من خلال ما نشرته بعض الجرائد والمجلات إلى تعطيل مسيرته وتلهية أعضائه بالقضايا الهامشية المفتعلة وتغييب رسالته وتوجهه الجديد.

وآخرها ما نشرته مجلة «الملاحظ» عدد 19 (صفحة 32) تحت عنوان : «مهزلة إسمها المسار» بتوقيع «علي الصغير» (وهو إسم نكرة لا ينتمي لا إلى الأسرة الصحفية ولا إلى الاتحاد!) والهيئة المديرة للاتحاد، إذ تحترم حرية التعبير والصحافة وترحّب بالنقد البنّاء لتعبّر عن استنكارها واستغرابها لما ورد في هذا المقال من مغالطات وتشويه للحقائق وثلب يتعارض مع أخلاقيات المهنة الصحفية ووظيفة الاعلام النزيه.

وننشر هذا البيان التوضيحي إنارة للرأي العام :

أولا : إن اتحاد الكتاب التونسيين منظمة مستقلة ترفض الوصاية والوعظ من أي لوبي أو مركز نفوذ... سواء كان صحفيا أو سياسيا أو فئويا جهويا، وأعضاؤه راشدون لا ينخدعون بالفبركة الإعلامية الموجّهة ويتابعون عن كثب ما انجزته جمعيتهم من نشاط في كل مجالات الفكر والإبداع والثقافة وما تطمح إليه من نقلة نوعية في نطاق إحترام قانونها الأساسي ونظامها الداخلي والتزامها بالأرضية الوطنية للفعل الثقافي، ولهم مؤتمرهم الذي يقيم في ظل الديمقراطية والشفافية ما حققوه وما يطمحون إليه.

ثانيا : إن المقال المذكور هو أبعد ما يكون عن «المصلحة العامة وإرضاء الضمير ورفض الزيف» التي صدّر بها موقع المقال حملته التضليلية المركّزة على مجلّة المسار ورئيس تحريرها عضو الهيئة المديرة ومن خلالهما كامل أعضاء الهيئة المديرة، والاتحاد كمنظمة وطنية تنصهر في الحياة الجمعياتية وتناضل بإمكانياتها المتواضعة من أجل الاسهام الفعلي في دفع الحركة الثقافية بأساليب وأهداف تتجاوز الجمود والعجز والغوغائية.

ثالثا : أما عن مسلسل الإفتراءات والتي أرادها كاتب المقال «كلمة تقال للتاريخ»

فللتـاريخ والضمير نجيب عنهـا نقطة نقطـة، في انتظـار ما سيضفي عنـه المؤتمر القادم من حقائق.

1) مجلة الاتحاد تمكنت، منـذ المؤتمر الأخير، بفضل تطويـر شكلها ومحتـواها وأساليب عملها من تحقيق قفزة نوعية يشهد بها كل القراء وكل الأوساط الثقافية في الداخل والخارج، حيث رفعت مـن سحبها من 3 آلاف نسخة إلى 4500 نسخة. وكل نسخ الاعداد التي أشرفت عليها الهيئـة الحالية (12 و13 و14) تم تـوزيعها وسينفذ العدد 15 بفضل ما أصبح للمجلة من رصيد وانتشار لدى جمهور عريض من القراء والنقاد والقول بأن «المجلة لم يشملهـا أي تغيير جوهري» هو كلام يدلّ على غباوة مرضية ونشاز يستبله القرّاء وينطلق من مقولة «عنزة ولو طارت» من الواضح أن البعض لم يرق له هذا التطوير من دافع المزايدة المجانية.

2) تهجّم موقّع المقال على الهيئة المديرة بقـولـه «الهيئة المديرة للإتحاد ادّعت في أكثر من مناسبـة أنها طـوّرت العمل وأدخلت حـركيـة جديـدة على النشـاطـات باستقطاب أعضاء جددا وتنشيط النوادي والاكثار من الندوات» هل الهيئة المديرة اكتفت بالادّعاء أم حققت ما وعدت بـه؟ الجواب يعرفه الخاص والعام وغاب فقط عن مـوقّع المقـال الـذي يتـابع نشـاط الإتحاد من خـلال تقـاريـر الأستـاذ الكبير «المعروف بخبرته ومعرفته بالساحة الثقافية بحكم إشرافه على الصفحات الثقافية لعدد من الجرائد والمجلات» وهي خبرة ومؤهـلات لا تقوده بالضرورة إلى التقويم الموضوعي البناء.

الهيئـة المديرة الحاليـة ليست في حاجـة للقـول بأنها طوّرت الأنشطـة على كل الأصعدة بتنظيمهـا لأربع ندوات أدبيـة فكريـة ناجحة وتطـويرهـا لمجلّة الاتحاد وتنـويعها لأنشطـة النوادي وإقبـال أعـداد كبيرة وأسماء مرمـوقة على الانخـراط بالاتحاد وتركيز الفروع الجديدة وتنشيط حركة النشر والبقية تأتي...

3) فيما يتعلق بهيئة التحرير، نودّ أن نوضّح ما يلي :

ـ كل القـرارات المتعلقة بتسيير المجلـة هي قرارات جماعيـة، تنسّق وتقرّر بين مدير المجلـة ورئيس تحريرها ومساعده، وهي لجنـة تسيير المجلة، بالتنسيق مع الهيئة المديـرة. أما هيئـة التحرير، فهـي لجنة قراءة مهمتهـا إستشاريـة ودورها يتمثل في قراءة المواد وتقويمها. ورضا الملول حضر اجتماعا واحدا ليتسلّم مواد لم يرجعها ولم يقيّمها، ثم حضر اجتماعا آخر في آخر الوقت ورفض تسلّم المواد التي اقترحت عليـه. إذن هو الـذي أبعد نفسه وتصرّف بطـريقة سلبيـة جعلت الاتحاد يقرّر الاستغناء عن إسمه باعتباره لا يساهم بأي عمل في نشاط المجلة وتطويرها، وهو قـرار جماعي مدوّن في محضر جلسـة هيئة التحرير وليس قرارا فـرديا كما يوحي بذلك صاحب المقال.

ـ أمـا إضافة إسم الـدكتور «محسن جاسم المـوسـوي» فلمن يجهل ذلك نقول : بانـه من أكبر النقاد والـروائيين العرب وانتماؤه لاستشـاريـة التحـرير لا لهيئـة التحـرير كما ورد في المقـال هو كسب للمجلـة وفرصـة للتعريف بها في الأوسـاط الفكرية العربية، ومن حق المجلة أن تبحث عن الصيغ التي تطورها وتتعامل مع من هم أهل لذلك والأستـاذ فوزي الزمرلي هـو أستاذ جامعي معروف بمسـاهماته القيّمة في النقد والـرواية وعضو بالاتحاد ولا وجـه للمقارنة بين من يعمل وينتج

وبين من يحرص على وجود إسمه وهو لا يقدّم شيئا.

ـ أما عن العزوف المزعوم لأعضاء هيئة التحرير عن القيام بمهامهم فمحاضر جلسات الهيئة تبيّن أن جل الأعضاء يشاركون في أعمالها ما عدا «رضا الملولي» الذي أقال نفسه منذ البداية ونتساءل كيف تفتق خيال موقّع المقال على هذا الهذيان.

والقول بان رئيس التحرير «يصر على أنه المرجع الأوحد والحكم الأول في شؤون المجلة» هو كلام مردود على أصحابه لأن المجلة تطورت بفضل العمل الجماعي والتسيير الديمقراطي والانفتاح على كل متطوّع صادق والحرص على الجودة والمستوى. وهي قيم لا تعجب الذين يحترفون الرداءة ويتطفلون على الكتابة.

ـ ومن «الأسرار» الغريبة الأخرى التي باح بها لموقّع المقال «أحد الأصدقاء» من أعضاء هيئة التحرير»، وكنّا نودّ أن يكشف لنا عن هويته بدل الاحتماء بالظلام وهو من له محاولات مدرسية في نقد الشعر واكتشاف المواهب، الأمر لا يعدو أن يكون تزويرا للواقع.

ويتمثل هذا «السر» كما جاء في المقال «نشر نصوص أوصت تقارير للقراءة بعدم نشرها وحجب نصوص أخرى». ونجيب بكل وضوح بان لرئيس التحرير ومساعده كل الصلاحيات للحسم في التقارير المتناقضة، مع العلم أن كل النصوص تقرأ من طرف عضوين وتُنشر عندما يوصي التقريران بنشرها، وعندما يستحيل ذلك، يرجّح رأي قارىء ثالث حتى نضمن الموضوعية والشفافية.

ومن ناحية أخرى، نريد أن يشير علينا هذا «الناقد» بالنصوص الرديئة التي نشرناها في الأعداد الأخيرة إن وجدت؟ ونحن نتحداه رغم اعتقادنا بان مقاييسه في حاجة إلى مراجعة. أما عن النصوص التي حُجبت، فنريد أن نوضّح وهي فرصة أعطانا إياها صاحب المقال باننا رفضنا نشر دراسة عن الشاعر محمد الخالدي لأنها قد سبق أن نشرت في كتاب، ونفضل إفساح المجال للنصوص غير المنشورة أما عن الحوار مع «محمد الخالدي» فقد فضلنا عدم نشره بالمجلة لأسباب لا نريد ذكرها حتى لا نسيء للرجل، وهو يعرفها جيّدا واقتنع بها، ولا نتصوّر أن من مصلحة «محمد الخالدي» أو مصلحة المجلة نشر ما جاء في هذا الحوار.

4) أما عن ملف الشاعر التونسي «الطاهر البكري»، فنشير فقط إلى نقطتين :

ـ هذا الملف هو نافذة على الإبداع في المهجر وصاحبه في غنى عن التعريف وهو من أكبر الكتاب المجدّدين. والمجلة مفتوحة لكل الأسماء التونسية الكبيرة ونحن لا نستثني أحدا، والاسماء المذكورة لا تقل قيمة ولكل منها إسهامها في بلادنا. والدسّ الخبيث في هذا الباب لزرع الانشقاق بين الكتاب هو عملية فاشلة ومتخلّفة، فنحن ننطلق من نظرة شمولية تسعى إلى مصالحة الاتحاد مع كل الأجيال والأقلام وتمكينه من أن يلعب دوره الريادي في مجال الثقافة والانتاج الفكري.

ـ التقاطعات الحوارية مع «الطاهر البكري» نشرنا مصادرها وهو تقليد معروف في العمل الثقافي والرجوع إلى العد 14/13 يبيّن أن رئيس التحرير لم يوقّعها، بل ذكر أنه قام بتنسيقها. والتنسيق يعني اختيار النصوص وترتيبها حسب منهج معيّن وتقديمها.

ـ الطاهر البكري دعي للمشاركة في ندوة «حرية الإبداع في الوطن العربي» كما دعي لندوات الاتحاد عشرات الأجانب ولم يُدع على نفقة الاتحاد كما ادّعى ذلك موقع المقال بل في نطاق التعاون مع وزارة الثقافة. ومن غرائب الأمور أن يلام الاتحاد على تنظيم الندوات واستدعاء الأسماء البارزة وضمان النجاح لنشاطه.

5) أما صورة الغلاف فالجماعة لم يعجبها التحسّن الكبير لشكل المجلة وانفتاحها على الفن التشكيلي التونسي المعاصر فاللوحات التي اخترناها هي من إهداء أصحابها للمجلة بما في ذلك الأقلام، مما مكن المجلة من اقتصاد هذه التكلفة، وهي في أشد الحاجة إلى ذلك. وقد توجهنا إلى عدد كبير من الرسامين للمساهمة في هذا التوجه وبعضهم لبّى الدعوة.

6) أما بقية ما جاء في هذه الصفحة من تهجّم مجاني على شخص رئيس التحرير، وهي سلسلة من الافتراءات التي تدخل في باب الثلب وإساءة معنوية مغرضة لا مبرّر لها، فنجيب عنها فقط بان من يعرف رئيس التحرير يعرف جيدا تواضعه والتزامه بالعمل الجماعي وإيمانه بالنسبية ونبذه للجهوية والفئوية.

وهو أستاذ جامعي منذ 12 سنة وله حضوره المعروف من خلال منشوراته من كتب وبحوث في المجلات العربية والأجنبية ومن خلال نشاطه في عديد المؤسسات الثقافية والعلمية.

فالتطاول لا يعدو أن يكون دلالة على محاولة فاشلة للتضليل والادعاء وهو أسلوب يتعارض مع رسالة الإعلام النزيه واحترام الافراد وتقدير مجهوداتهم.

بقي أن نختم هذا التوضيح بالملاحظات التالية :

ـ المقصود في حقيقة الامر من هذا المقال هو جرّ الاتحاد إلى الجدل والصراعات الهامشية وشله عن العمل وزرع الانشقاق في الهيئة المديرة في أجواء الحملة الانتخابية التي يريد البعض أن يجعل منها فرصة للإجهاض على التحول الكبير الذي يشهده الاتحاد، وما هو مقبل عليه من نقلة نوعية.

والمقصود أيضا هو تهيئة الجو للبعض للتسلل إلى موقع القرار ولتضليل أعضاء الاتحاد وهذه النوايا مفضوحة لأن الاتحاد سيواصل مسيرته بنفس العزيمة والنسق، ومنخرطوه يرفضون العبث بمصداقية منظمتهم، ولهم من الرشد والاطلاع ما سيمكنهم من الحسم السليم مع هذه المناورات اليائسة.

الهيئة المديرة
لاتحاد الكتاب التونسيين

للاعلام : سلّم السيد محمد الهاشمي بلوزة استقالته من هيئة التحرير الى مدير المجلة. ونعلن عن ذلك حتى لا نتهم بحذف إسمه كما فعل غيره للتضليل والمزايدة.

البنك التونسي

BANQUE DE TUNISIE

البنك التونسي

جائزة أبي القاسم الشابّي لسنة 1993

تصحيح

مقدار الجائزة

المقدار المالي للجائزة خمسة آلاف (6.000) دينار تونسي.

إذا كان النص المحرز على الجائزة كتابا مطبوعا سلمت الجائزة كلها إلى الكاتب.

وإذا كـان النص المحـرز على الجائزة مخطـوطـا لم ينشر قسمت الجائزة نصفين يسلّم النصف الأول منها أي ثلاثة (آلاف (3000) دينـار للكـاتب بعـد الإعـلان على الجائزة والنصف الثاني للكاتب أيضا بعد طبع الكتاب ونزوله في السوق.

وقـد أشرنـا في العدد الماضي الى ان القيمـة الماليـة للجـائزة (5000) دينار. في حين أنها (6000) دينار لذلك وجب التصحيح.